محمد عبد العاطي

رواية

# المساخيط

دار نهضة مصر

t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية.©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب

t.me/twinkling4

« الإنسانية صنعة الإنسان».

فؤاد حداد

# الجزء الأول

## من بعيد

## فؤاد

عمرو ابن أخي مبروك هو من أخبرني بما حدث في فيلا وجيه طلعت، وعندما ذهبت إلى كفر العلو بعدها، مررت عليه وجلست معه وحكى لي القصة كلها بنفسه بالتفصيل.

في هذه الفيلا الكبيرة في كفر العلو كان يسكن وجيه طلعت. هو أحد أقارب أبي، لا أعرف إلا أنه من عائلتنا، ولا أذكر صلة القرابة بالضبط، كعادتي.. هذه تفاصيل كان أبي يبالي بها.

الأستاذ وجيه كان مدير بنك حكومي ثم تقاعد.. والغريب أنه ترك شقته التي كان يسكن فيها طيلة سنين عمله في حلوان ثم جاء ليسكن هنا في كفر العلو من جديد، وهذا غريب (بالنسبة لي ولكل سكان كفر العلو) لأن الهجرة عادةً تكون في الاتجاه العكسيّ من الداخل إلى الخارج.. لا أحد يعود، لكن وجيه بك عاد.

نظرة واحدة للفيلا تخبرك أنه أنفق عليها بسخاء. والحق أنه أنفق عليها نسبة كبيرة من مدخراته.. لكن لماذا؟ فيلا بهذه الأناقة في جزيرة كفر العلو؟ أي مجنون يفعل هذا؟ حتى ولو كانت ناحية النيل، فبهذه الأموال كان بإمكانه الحصول على فيلا في وسط حلوان أو أية شقة فاخرة في العاصمة بالقرب من الحياة الحقيقية.. الخدمات والمحلات

والمولات، بدلا من هذا الموقع المرميّ في آخر الدنيا.. الكبار فقط من أبناء كفر العلو يفهمون هذا الحلم، التقاعد المريح في البلد الأم، المكان الهادئ الذي يسترخي فيه ويستريح بقية عمره.. وهو قد اختار بقعة نظيفة تجمع بين الهدوء والخضرة والنيل، مضحيًّا بحياة العاصمة، ومفضلًا الاسترخاء على الخدمات والمولات.

عالمه هنا هو حديقة مشمسة، في ركن منها يقبع الكرسي القش الأصفر العتيق الذي صار يقضي جل يومه عليه، تحت شجرة التمر حنا، يتأمل فيما حوله من نماذج الحيوان والطير والشجر وبعض بني البشر.

هنا يمكنه أن يرى السماء أمامه وحوله، دون أن تحجبها عنه الأبنية الأسمنتية التي كانت تحاصره في المدينة كقضبان السجن.. هنا يسمع أصوات شقشقة العصافير وهديل الحمام كموسيقى تصويرية هادئة في خلفية حياته الجديدة.

هنا يقضي نهاره في الحديقة تحت ضوء الشمس الدافئ في الصباح الباكر، ويشرب قهوته تحت ظلال أشجاره الحبيبة قبل الغروب، ومساءه يقضيه في الشرفة الواسعة على كرسي قش أصفر عتيق مماثل، ثم يكمل أمسيته الهادئة أمام التلفزيون حتى يسقط نائمًا أمام برامج التوك شو.

يشاهد المشاكل نفسها الآن لكن دون ضغط.. يشاهد من بعيد وهو لم يعد جزءًا مِن كل هذا. هو الآن مثل محللي الكرة.. على البرّ.. ومَن على البر عوّام.. يتابع صراعاتهم وهم يأكلون بعضهم، بينما هو هنا قد خلع جلده الذي لبسه طيلة حياته كمدير بنك، وعاد لأصله

الذي ظل يحنّ إليه طويلًا، أصل أبيه الفلاح الذي لم يكن يستريح وينام هادئًا إلا بجوار زرعته التي غرسها ورواها بنفسه.. يضبط وقته بشروق الشمس وغروبها، لا بساعته الذكية.. يشعر بمرور الأيام بنمو زرْعته أمامه لا بروزنامة جوجل وتقارير الاجتماعات الأسبوعية.. الشهور هنا تعلن عن وجودها بتغيّرات الطقس لا بتحويل مرتب الشهر الجديد وحلول موعد دفع الأقساط.

صحيح أن كفر العلو نفسها لم تعد قرية كما تركها في الماضي، بعد أن زحفت البيوت والمباني على الأراضي الزراعية حتى غطتها تمامًا ثم رُدمت الترعة وانتهت فكرة الزراعة من البلدة كلها تقريبًا، إلا أنه لاذ بالرقعة الزراعية المتبقية فيها، وهي الجزيرة المجاورة للنيل.

هنا صُحبة كلها من الدجاج والبط والحمام والأوزّ والأغنام والقطط.. ومعه صابر البواب وزوجته يساعدانه في العناية بكل هذا.

حياة هادئة خالية من الإزعاج تقريبًا، حتى جاء الثعلب.

ثعلب؟ في كفر العلو؟

حسنا، هو لم يكن متأكدًا تمامًا من ذلك، لكن يبدو أنه ثعلب.

بدأ الأمر باختفاء بعض الأفراخ أو الكتاكيت ليلة بعد ليلة.. هكذا قال له صابر.

سأله وجيه بك منزعجًا عن الفاعل، فقال صابر:

- لعلها «عِرسة».. المشكلة أنها لا تأتي إلا ليلًا.

لكن الزائر الليلي الغامض اختطف دجاجة ناضجة في اليوم الثالث.

قال له صابر بقلق:

- لا بد أنه ثعلب يا وجيه بك.

- ثعلب؟ هنا في كفر العلو؟

- نعم ثعلب أو ثعبان، فالعِرسة لن تقدر على دجاجة كبيرة مثل هذه.

- ثعلب! هذا خطر.

لكنه في تلك الليلة كان يراقب الحديقة في شرود، حين لاحظ ذلك الظل النحيل يتسلل ناحية عشة الطيور.. ظل غامض معتدل القامة لا يشبه الثعلب ولا أي حيوان آخر يعرفه.

صاح بأعلى صوته مناديًا صابر، دون رد.

صابر المسطول الذي ينام من بعد صلاة العشاء لم يستجب إلا بعد ساعة، جاء يسعى، بعين مغمضة وأخرى مفتوحة، يتساءل عما هنالك.

قال له وجيه بك بغيظ:

- هذا الشيء كان يتسلل للعشة، وكنت أناديك لتمسك به.

- حاء. حاضر يا بك.

غاب صابر لحظات ثم أتى صوت صراخه من هناك:

- يا بوووويا! يا دين النبي!

وخرج ممتقع الوجه.

- ماذا جرى يا صابر؟

- لا أفهم يا بك.. تعال انظر بنفسك.

نزل وجيه ليرى بنفسه.. وعلى الأرض بجانب العشة كانت بقايا الكتاكيت والأفراخ والدجاجة خلف شجرة. ارتجف وجيه وهو يرى هذا المنظر البشع.. هذا ليس حيوانًا طبيعيًّا.. أعتى الحيوانات المفترسة لا تفعل هذا بفرائسها.. هذا وحش مخيف.

# ليزا

كلهم يقولون إنني فنانة صغيرة، مثل ماما. وهذا صحيح، فأنا أحب الرسم مثل ماما، وأحب الموسيقى وأعزف بيانو جيدًا، وماما لا تفعل.. فتقدر أن تقول إذن أنني فنانة أحسن من ماما.

ماما تقول لي دائمًا إن الفنان لا يشعر بالملل. لكنني في هذه الفترة كنت أشعر بالملل. لم يعد أحد منهم يوليني اهتمامًا. كلهم كانوا مشغولين. عيد ميلادي الثامن اقترب، وأشعر أنهم جميعًا لا يهتمون به، مثل زمان وأنا صغيرة.

بابا (فؤاد) دائمًا مشغول في عمله في الصباح، هنا في البيت في غرفة مكتبه، أو في الخارج في مكتب المحاماة.. وحتى بعد العمل لا يرجع بسرعة، ويقابل أصحابه، كأنه لا يريد أن يقعد في البيت.

في الماضي كان يقضي معنا وقتًا أطول. كان يقرأ لي القصص بنفسه، يرسم ويلوّن معي (أكثر حتى من ماما، مع أنه ليس فنانًا مثل ماما ومثلي)، ويلعب معي، أو فقط يجلس معي أمام التلفزيون ويتركني أختار الفيلم الذي نشاهده معا.. عندها كنت أسأله عن الأشياء التي لا أفهمها في الفيلم.. أما الآن فأنا أشاهد الأفلام، ولا أحد بجانبي لأسأله عن هذه الأشياء.

متى توقف ولماذا؟ لا أعرف. ربما منذ مرض ماما. بعدها اختلفت أمور كثيرة.

منى أختي الكبيرة أيضًا تغيرت كثيرًا في السنة الأخيرة،

منذ دخلت الجامعة. صار لديها أسرار ومساحات مجهولة، صارت طوال الوقت قاعدة أمام الكمبيوتر، أو تحدّث أحدًا لا أعرفه أو تتكلم مع عمرو ابن عمي في التليفون.

أنا لا أحب عمرو، وأكره العطر النفّاذ المزعج الذي يضعه دائمًا.. قلت ذلك لماما مرة فمنعتني من ذكر ذلك أمامه لأن هذا عيب. أشعر أيضًا أنه لا يحبني لكنه يتظاهر بأنه يحبني، ربما لأنني طفلة والكبار لا يستطيعون أن يقولوا إنهم لا يحبون الأطفال. الأطفال فقط يمكنهم أن يقولوا إنهم لا يحبون الكبار، وعندها يضحك الكبار ويقولون: إن العيال دائمًا هكذا!

أحيانًا عندما يزورنا عمرو في البيت يلعب معي، لكنه لعب ممل بلا حماس. يحاول أن يتكلم معي بالفصحى مثلما أفعل أنا أحيانًا، لكنه لا يعرف الفصحى جيدًا، مع أنه كبير وفي الجامعة، ويصر على أن يتكلم ويضحك وهو يظن أنه ظريف.. يقول لي إنني أعرف الفصحى من أفلام الكرتون، وهذا صحيح إلى حد ما، لكن ألم تكن عنده أفلام كرتون وهو صغير؟

يلعب معي بدون تركيز وهو يتلفّت ويختلس النظرات بحثًا عن (منى) أختي. يلعب معي بفتور وشرود ويتركني أكسب وكأنه مجبر على اللعب معي. لكنه يلعب جيدًا عندما تكون (منى) بالقرب تشاهدنا مبتسمة عندها يبالغ في التفاعل والضحك والاندماج وكأنه تحول لطفل فجأة. أعتقد أنه يحسبني لا أفهم شيئًا لأنني طفلة. لا أعرف لماذا يظن الكبار أن الأطفال لا يفهمون؟ أنا طفلة نعم، لكنني لست عبيطة.

أعرف كل ذلك عن عمرو، لكنني لم أخبر أحدًا، لأنني أعرف كيف أستفيد منه. مثلًا هو لا يقاوم حين أقول إنني أريد الخروج معه هو بالذات للعب بالطائرة الورقية في الحديقة، والنبي والنبي والنبي. فينتفخ هو ويبتسم في تواضع، وأربح أنا وأحصل على ما أريد. وهناك أبدأ باللعب معه وأتركه حتى يأخذ اللقطة فيشاهدوننا معًا نلعب، ثم أنطلق أنا كما أشاء.

ماما هي الوحيدة التي ما زالت تلعب معي، لكنها صارت تعبانة دائمًا. بعد أن مرضت وذهبت إلى المستشفى وغابت فترة ثم رجعت، لم تعد كما كانت من قبل. لم تعد تذهب إلى المدرسة.. أنتم تعرفون أنها مُدرّسة رسم، صح؟ أخذت إجازة حتى تستريح. كنت فرحانة لأنها ستبقى معي أكثر، لكنها صارت دائمًا تعبانة، وعينها نصف مغلقة، كأنها نعسانة طول اليوم. تمدد في السرير أو على الكنبة معظم اليوم، وهي نائمة أو صاحية.

أصبحت أجدها أحيانا تسقط نائمة في مكانها وهي تكلمني، عندها أصبح أنا مثل ماما، فأقوم وأُحضر لها بطانية وأغطيها وأطفئ النور وأجلس بجوارها أمسح على شعرها، ثم أتركها تنام.

أحب التصوير أيضًا، أحيانًا أفتح كاميرا التابلت وأدور في المنزل وأصور كل شيء.. أفتح كاميرا الفيديو وأثّبت التابلت على الترابيزة، ثم أصور نفسي وأنا أتكلم مع منى.. وأستدرجها لتتكلم عن عمرو وتأخذ راحتها (قالت مثلًا في مرة إنه يعجبها ولكنه ساذج إلى حد ما)، وحينما تنتهي من الكلام أقول لها: «الكاميرا الخفية!»

وآخذ التابلت وأجري وأنا أضحك، فتجري خلفي وهي تقسم أن تعضّني!

لا.. لم أفكر في استخدام هذا الفيديو في ابتزازها.. فهي تحبني وتفعل لي أي شيء أطلبه منها..

ربما أفكر فيما بعد في استخدام الحيلة نفسها مع بابا.. هو الذي أحتاج إلى ابتزازه أحيانًا.. ربما لو استدرجته للحديث عن ماما؟

***

والآن أنا وحيدة وأشعر بالملل. عندي عرائس وألعاب تملأ الغرفة وعندي التلفزيون لكنني شعرت بالملل.

ماذا أفعل إذن؟.. إنها السابعة مساءً والظلام حل. أريد أن أذهب إلى خيمتي الصغيرة في الحديقة لكنني ممنوعة من الذهاب هناك في الظلام وحدي. تلفتُّ حولي.. لا أحد منتبه لي، وماما تعبانة ونائمة، هكذا خرجت من الفيلا وذهبت وحدي إلى الخيمة.

الخيمة فيها ألعاب بسيطة وعرائس ووسائد وفانوس كبير نوره ملون وجميل، خصوصًا من خارج الخيمة، وخصوصًا في الظلام.. أحب أن أفتحه في الخيمة وأرى نوره من الخارج، كأنه مصباح كبير!

عندما ذهبت إلى الخيمة في هذه الليلة كانت مضاءة.. الفانوس كان مضاءً بداخلها!

كيف هذا؟ من أضاء الفانوس؟

اقتربتُ من الخيمة.. كانت هناك آثار أقدام غريبة

بجانبها.. شعرت بالفضول واقتربت لأرى من بالداخل.

فتحت سوستة باب الخيمة وانحنيت ودخلت برأسي.. عندها وجدت أمامي هاتين العينين الكبيرتين تنظران لي.. كان ذلك الكائن الأزرق وكان ينظر لي.

تجمدتُ في مكاني وتحرّك هو. كنت أريد أن أصرخ لكنني لم أفعل.

# فؤاد

لم تفارق صورة هذه البقايا ذهنه. لم يكن وجيه بك شخصًا مغرقًا في الحساسية، لم يكن ينزعج من رؤية الدماء كبعض مرهفي الحس، بل كان مثلا يذبح الأضحية بنفسه كل عام، وبرغم ذلك صدمه المشهد.

كانت هذه بقايا الطيور والأفراخ المفقودة.. يمكنه تمييزها، لكنها كانت مهروسة تمامًا، معتصَرة كمصاصة عود قصب خرجت من ماكينة العصر لتوها.. ذلك الشيء امتصها امتصاصًا واستحلب كل قطرة فيها ثم بصق بقاياها بهذا الشكل البشع.. أي كائن هذا بالضبط!

لم ينطق بكلمة. كان يرتجف. صمت تمامًا وصعد إلى الشرفة وجلس يفكر..

بعد دقائق صاح مناديًا صابر، وأشار له بالصعود وسأله عندما دخل عليه الشرفة:

- ماذا تظن هذا الشيء يا صابر؟

- علمي علمك يا بك.. كنت أفكر أنه «عِرسة» أو ثعلب أو ثعبان.. لكن هذه البقايا...

- ماذا عنها؟

- لا أعرف شيئًا يفعل ذلك.. لعلها...

- لعلها ماذا..؟

- «سلعوة» ربما..

- أهذا ما تفعله السلعوة؟

- علمي علمك يا بك!

- وهل ظهرت السلعوة هنا من قبل أصلًا؟

- لا.. لكن.. هذا حيوان مجهول.. والسلعوة أقرب شيء..

تفكر وجيه لحظات ثم تذكر شيئًا فسأل صابر:

- هل تعرف شكل السلعوة هذه؟ أذكر أنني رأيت بعض الصور لها وكانت تبدو كشيء بين الثعلب والذئب.. بينما هذا الشيء مختلف..

- هل رأيته يا بك؟

رماه وجيه بنظرة قاسية وقال:

- رأيته وناديتك لتلحق به.. لكن المستنجد بك يبيع أولاده!

ثم زفر في توتر وقال:

- رأيت ظله، وهو بعيد تمامًا عن شكل الثعلب أو السلعوة.. بل أظن أنه..

وتردد لحظات ثم قال في خفوت:

- أظن أنه يقف على قدمين.

هنا تجمد صابر في دهشة ودوت شهقة أنثوية من خلفه.

كانت هذه زوجته، أم عربي، وقد جاءت بصينية الشاي التي اهتزت في يديها، وتصادمت عليها الأكواب وكادت تسقط من بين يديها لولا أن لحق بها صابر وحملها عنها وهتف يوبخها:

- انتبهي يا ولية!

تجاهلت أم عربي قوله وراحت تبسمل وتحوقل، فنهرها صابر وحاول أن يصرفها، لكن وجيه أشار له بأن يتركها وسألها عما تعني فقالت:

- واضحة يا بك.. بسم الله الرحمن الرحيم.

- جن؟

ارتجفت أم عربي واتسعت عيناها ارتياعًا وكأنه يستدعي الجنّ بذكرهم. أشار لها بالانصراف وراح يُقلّب الفكرة في رأسه.. هو يؤمن بوجود الجن من حيث المبدأ كجزء من عقيدته الدينية، لكنه يرفض هذا الاستسهال الذي يجعل الناس تصنّف كل كائن مجهول على أنه جن.. لكنه، من ناحية أخرى، لا يعرف الكثير من الكائنات التي تقف على قدمين وليست من البشر.. هناك القرد وهناك الكنغر وربما الدب، لكن هذا الشكل الذي رآه لا يبدو كأيٍّ من ذلك..

ثم إن طريقته في امتصاص الفرائس هذه، لا تشير إلى أي حيوان يعرفه..

انتبه إلى صابر الذي ما زال واقفًا ينتظر، فقال له:

- لو افترضنا أنه ثعلب أو سلعوة يا صابر، فماذا يمكن أن نفعل؟

- فخ أو مصيدة أو كلب.. لو حضرتك تسمح يعني.

كان يعرف أن وجيه بك يكره الكلاب.. تردد وجيه ثم قرر أن هذا هو الحل السهل.

استعار صابر كلبًا من أخيه حسنين، الذي يسكن عند جنينة الجوافة ويقتني عددًا منها لحراسة بيته هناك. لم يكن كلب حراسة شرسًا وإنما مجرد كلب بلدي من الكلاب المستأنسة الغلبانة. يتركونها تسرح نهارًا و تلقط رزقها بنفسها ثم تبيت عندهم ليلا تحرسهم ويطعمونها.. نموذج فريد لتبادل المنفعة.

لكن ما حدث في الليلة التالية كان أعجب. قبع الكلب أمام عشة الطيور ليلًا. ألقى عليه وجيه نظرة أخيرة قبل أن يذهب إلى النوم، كان ينبح وقتها في اعتداد وكأنه يستعرض قدراته في الحراسة. وفي الصباح كان الوغد - الحيوان المجهول وليس الكلب - قد اختطف ضحية جديدة، بينما هذا المغفّل - الكلب وليس الحيوان المجهول! - على الوضع الصامت طيلة الليل. ما معنى ذلك؟

هل أخاف هذا الكائن الكلب مثلًا؟ هل استأنسه؟

لا، صعب. فحتى لو أخافه كان سينبح على الأقل.

تكرر هذا الأمر ليلة بعد أخرى، برغم استخدامهم لكلاب أخرى، ولم يكتف الوغد بالكتاكيت، ولكنه بدأ يتّجه للحمام ثم الأرانب، ورفع معدله من فريسة إلى اثنتين في الليلة.

انتقلوا إذن لفكرة الفخ. راح صابر يجمع أقفاصًا وبراميل وصناديق وصنع فخًّا. كل هذه الفخاخ تعتمد على الفكرة ذاتها، إغراء الفريسة بقطع من طعامها المفضل، توضع بعناية في نقطة حرجة حساسة للحركة أو للوزن، وبمجرد أن يتحرك الطُعم تفلت قطعة الخشب أو ينقطع خيط وينغلق باب المصيدة أو ينطبق الفخ على الفريسة أو ينقلب عليها

برميل ثقيل حابسًا إياها بالداخل.

المهم أن صابر يفهم في هذه الأمور.. أو هكذا كان يظن، لأن المصيدة فشلت.

والأدهى أن الكائن الوغد قد انتشل طعامه منها دون أن تنغلق.

تفحص صابر المصيدة في ذهول، وقال لوجيه في ذعر إن هذا تصرف كائن عاقل.. لقد ألقى حجرًا أو شيئًا ثقيلًا داخل المصيدة لاختبارها فانغلقت، ومن ثم فتحها هو ببساطة وأخذ الطعام.

- مستحيل! هذا يعني أنه.. إنسان؟

- أو أسوأ!

وزاغت عيناه تلقائيًّا باتجاه زوجته، وكأنما يشير لنظريتها من جديد.

***

وهكذا طفح الكيل، وقرر وجيه بك أن هذا الأمر سينتهي بأي ثمن.

وبأوامر منه جمع صابر عددًا من الرجال وأعدوا كمينًا لهذا الوغد. أخبرهم وجيه بك أن يتصرفوا كأنهم يطاردون كائنًا ذكيًّا.. كأنه لص عادي. قال لهم بوضوح:

- المصيدة التي لن تخدع إنسانًا لن تخدع هذا الـ.. شيء.

هكذا أعدّوا شبكة لتسقط على هذا الكائن بمجرد أن يخطو عند باب الحظيرة.

اختبأ وجيه بك في الظلام في الشرفة، يراقب من بعيد.. وفي الليل حدث ما حدث.

جاء الكائن وسقطت الشبكة فوقه، فهرع الرجال وانقضوا عليه بالشوم والعصي بعنف.. وعندما لمحوه ولم يميزوا ماهيته أصابهم الفزع أكثر وزادوا في الضرب بعنف حتى حطموه تمامًا.

جاء وجيه بك يصرخ، لم يكن يريد ذلك، كان يريده حيًّا..

عندما رأى وجيه بك هذا الجسد الدامي شهق بعنف. فبرغم أنهم هرسوه تمامًا، إلا أن جسده وتكوينه ظل واضحًا.. لم يبد له كأي حيوان أو كائن آخر يعرفه.. بل لعله أقرب للقرود، لكن دون الجسد المشعر المنحني، وببشرة تميل إلى الزرقة (أم أن هذه كدمات من الضرب؟) ثم إنه يرتدي ملابس قطعة واحدة كالجلابية.. والحيوانات لا ترتدي الملابس على قدر علمه.

اقترب أحد الرجال يلقي نظرة ونهض لجأة وقال بارتياع:

يا رحمن يا رحيم! لقد قتلنا جنيًّا! قتلنا جنيًّا! يا رحمن يا رحيم!

# ليزا

كنت قد خرجت من غرفتي لأغسل سكينة النحت، بعد أن انتهيت من تشكيل تمثال جديد من الصلصال كما علمتني سيرين، وعندما رجعت وجدت بابا وماما هناك يحطمان التماثيل ويبعثران الرسومات.. لم أدرِ ماذا أفعل.. كنت غاضبة جدًا مما يفعلان، وكنت سأبكي وألومهما على ذلك.. ثم لاحظت أنهما ينظران لي في خوف. وبحذر أخذ بابا سكينة النحت من يدي، وأجلستني ماما وهي تبكي، وراحت تسألني أسئلة غريبة: ماذا حدث لك يا حبيبتي؟

قلت ببساطة:

- لا شيء.. كلكم مشغولون عني، وأنا عثرت على صديقة أقضي وقتي معها وألعب معها.. هذا هو كل شيء.

تبادلا النظرات الخائفة واحتضنتني ماما أكثر.

أنا أحب الرسم وتشكيل الصلصال وأحب الموسيقى، لكن لا أحد منهم كان يشاركني في هذه الهوايات. لحظاتي المفضلة حقًا كانت عندما كان بابا يشاركني الرسم أو الموسيقى.. نلطخ الأرض والملابس بالألوان المائية وننسى أنفسنا لساعات وساعات ونحن نتراقص على الموسيقى ونضحك معًا.. وتأتي ماما وتصرخ وتشكو من المكان الذي كان نظيفا ومنظما فأفسدناه.. لكن كل هذا انتهى.

وعندما قابلت صديقتي هذه في الخيمة وجدت من يشاركني كل هذا من جديد..

لماذا يتصرف بابا وماما هكذا؟

أشعر أنهما غاضبان.. أو خائفان!

# فؤاد

كانت نادية هي التي نبهتني إلى هذه التغيرات التي طرأت على ليزا.

في ذلك الوقت لم تكن علاقتنا أنا ونادية في أفضل حالاتها. منذ سقطت نادية مريضة تغير كل شيء.. استغرقنا بعض الوقت حتى تجاوزنا حيرة التشخيص وعرفنا أنه مرض مناعي أصاب العضلات والقولون.. المشكلة أن آثاره على حياتها وطريقة أكلها وجسدها وشكلها كانت سريعة وقاسية.. ثم المتاعب الصحية التي لازمتها بعدها.. صعوبة النوم والألم المتواصل وفقدان الوزن الرهيب، وجسدها الذي برزت عظامه..

فقدت نادية حيويتها وصارت في البيت وردة ذابلة تنتظر الجفاف الآتي لا محالة، حتى تأتيها هبة رياح تعصف بها وتذروها وتبددها..

كنت أشاهد والألم يعتصرني.. نجمتي.. زهرتي البرية، تذبل أمامي وليس لديّ ما أفعله.

بمرور الوقت تحول الأمر إلى روتين.. أمر واقع.. حالة ميؤوس منها استقرت وتجمدت عند لحظة حزينة.. لحظة امتدت لعامين تقريبًا.. في هذا الوقت كنا زوجين بالروح فقط.. جسدها ذبل تمامًا ولم تعد امرأة كما كانت..

وأما جسدي أنا فكان يعذبني.. أصارعه ويصارعني.. أهزمه ثم أضعف وأرضخ في وهن ولو في الأحلام، أحلم بنادية القديمة الشابة.. أو بأخريات.. فيعود الذنب ليطحن عظامي، ويذكرني بنادية الملقاة هناك تنتظر المعجزة أو

الرحمة.

صرت أتقزز من نفسي كلما عاودتني تلك النزعات.. أيّة أنانية وأيّة حيوانية هذه؟ في ظروفها هذه ما زلتَ تفكر في جوعك؟

كيف أتوقف؟ متى ستموت هذه الرغبات؟

رباه! متى سأموت أنا؟

وجدت نفسي أبتعد.. أتفادى الجلوس معها لأتجنب عذاب الذنب والضمير..

هل لاحظت نادية كل ذلك؟

لا أعرف، لكن هذه نادية.. أحاسيسها رادار كما كنت أقول لها دومًا.. رادار يخترق أعماقي ويكشف ما أخفيه مهما حاولت.. فما الذي سيمنعها هذه المرة؟

هي شعرت بي حتمًا، لكن ماذا فهمت بالضبط؟ لماذا لا أستطيع قراءتها كما تقرؤني؟

عيناها الذابلتان يسكنهما حزن غامض لا أفهمه. أهو لوم؟ شفقة؟ أسف؟

لا أعرف. كانت دائمًا تتهمني بالغباء العاطفي، والآن أعرف كم هي محقة.

صار تواصلنا يقتصر على هذه النظرات الحزينة الصامتة.

ربما كان الكلام عن مشكلة ليزا هذه كان أطول محادثة نتبادلها منذ وقت طويل.

سألتني نادية، وهي تتجنب النظر لعينيّ، إن كنت قد

لاحظت شيئًا غريبًا على ليزا في الفترة الأخيرة. كنت أتغيب كثيرًا عن البيت - متعمدًا - في الفترة الأخيرة، فلو كان هناك شيء غريب ما كنت لألحظه. تبًّا، لقد نسيت دوري كأب وسط مشاكلي كزوجٍ. أجبتها بالنفي في خجل، فقالت إن ليزا صارت مختلفة مؤخرًا.. صارت لا تتحدث وتبدو شاردة وكفت عن مشاكساتها المعتادة.. بل إنها صارت تميل إلى الانطواء والانعزال..

قلت في حذر:

- هذا غريب عليها، لكنه ليس بالضرورة يدعو للقلق..

- صارت تتخلى عن أشياء كانت مغرية لها عادةً مثل أوقات استخدام البلاي ستيشن والخروجات.

- ربما.. لا أعرف.. هذا غريب، لكن الناس يتغيرون.. حتى الأطفال..

- لا.. أنت لا تفهم.. لقد صارت مختلفة.. وكأنها شخص مختلف تمامًا..

- كيف؟

- صارت تسحب مأكولات لا تحبها وبكميات، ثم تأكلها وحدها في غرفتها.

- مأكولات؟ مثل ماذا؟

- فول وفاصوليا وخضراوات نيئة.. وألبان.. وبيض..

- جيد أنها صارت تأكل أفضل..

- المشكلة أنني لا أعتقد هذا..

- ماذا تعنين؟

- في المساء وأكثر من مرة سمعت من حجرتها أصواتًا عجيبة، بعضها بصوتها وبعضها بأصوات أخرى..

- أصوات مثل ماذا؟

- لا أعرف.. أصوات حنجرية.. كأنها تقلد ذئبًا أو شيئًا كهذا.. ثم هناك الأضواء.

- أضواء؟

- أضواء فسفورية خافتة تخرج من تحت باب غرفتها..

- أظن أن لديها مصابيح ملونة تصنع مثل هذه الأضواء.. لا تبالغي في القلق..

- انتظر.. كان هذا حتى اكتشفت (منى) ذلك المخبأ السري!

- مخبأ سري؟

صحبتني نادية إلى غرفة ليزا وأشارت إلى أسفل السرير.. نزلنا على ركبتينا لنرى ذلك المشهد المرعب.. كانت هناك عشرات الأوراق المليئة برسوم أحادية اللون، بالأسود أو بالأحمر فقط.. رسومات بدائية عجيبة كأنها لقبائل وثنية أو لساكني الكهوف.. رسومات بعثت في نفسي قشعريرة غامضة.

تناولت بعض هذه الرسومات وتحسستها بأصابعي.. ملمسها عادي، لكن هذا اللون الأحمر، القاني مثل الدم، عندما لمسته وجدته لزجا مقززا.. مثل الدم!

لكن الأسوأ كان هناك، مغطى تحت ملاءات بيضاء

كأشباح أو جثث صغيرة.. كشفنا الأغطية لنرى ما هو أكثر إثارة للرعب.. أصنامًا وتماثيل وثنية عجيبة الشكل.. يا للهول! كأنها تنتمي إلى عقيدة سرية ما.. تخبطنا في بعضنا تحت السرير فتحطم بعضها تبادلنا النظرات في فزع ونحن نفكر في الهرب.

ما هذا؟ مستحيل أن تصنع ليزا كل هذا.. هذا استحواذ شيطاني. هناك كائن شيطاني استحوذ عليها.

تراجعنا لنخرج، حين وجدنا ليزا أمامنا بملامح غضب شيطاني وظلال حمراء تتراقص على وجهها.

لم أرها هكذا من قبل.. هذه ليست ليزا التي أعرفها. كانت تقف أمامنا هناك تسد الباب وعلى ملامحها غضب شنيع، وفي يدها سلاح قاطع أشبه بالسنجة.. ليزا التي لم نكن نتركها تستخدم المقص وحدها حتى لا تجرح أصابعها كانت تمسك بهذه السنجة وتلوح بها بشراسة..

# عمرو

تسألوني ما الذي جاء بي إلى هنا؟ وهل هذا سؤال؟ هذا بيت عمي، أي أنه بيتي. أنا عمرو مبروك أمين أبو ضيف. أنا ابن مبروك أمين أبو ضيف، الأخ الأكبر للأستاذ فؤاد أمين أبو ضيف.

كنت الأخ الأصغر بعد إخوة ثلاثة، هم (فتحي) و(إبراهيم) و(طه)، والثلاثة كانوا يعملون مع أبي في تجارة الخردة.. كان أبي يأخذهم معه، منذ طفولتهم، إلى المخزن ومقلب الخردة ويسند لهم أعمالا صغيرة ليساعدوه في عمله وفرز الخردة وتصنيفها ونقلها.. وعندما كبروا كانوا قد فهموا الشغلانة وانخرطوا مع أبي فيها.. هكذا وجدوها عملا سهلا، لا يحتاج إلى مشوار طويل من الدراسة والتخرج والشهادات.. لم يأخذوا المدرسة بجدية.. فيمَ يتعبون أنفسهم ويجهدون عقولهم والقرش قريب تحت أيديهم؟

أما أنا فقد حاولت أن أكون مثلهم وفشلت.

كنت صغيرا طريا كما كانوا يقولون عني. أبي تركني لهم ليعلموني الشغل كما علمهم هو، لكنهم دائما كانوا يشعرونني بخيبتي ويضحكون من سذاجتي وصمتي وتلعثمي وخجلي، ويسخرون من ضعف عضلاتي وضآلة جسمي.. حتى الكلام لم أكن أقدر على مجاراتهم فيه، فكنت مادة لسخريتهم ونكاتهم وقت الاستراحة حول أكواب الشاي.. كنت أسمع وأشاهد في صمت وعيني في الأرض، حتى أرجع إلى البيت، فأجري باكيا إلى أمي.. كانت

تحتضنني وتطيب خاطري وتحدّثني عن قوتي الحقيقية التي ليست عندهم. هي التي نوّرت بصيرتي، وأرشدتني إلى هدفي، هي التي عرّفتني طريقي.. وسيلتي للدفاع عن نفسي وإثبات خطئهم.. أنا لست طريا أو ضعيفا أو عديم النفع.. أنا سأنفع لكن في مجال آخر وفي طريق آخر.. طريقي غير طريقهم.. الفرق بيني وبينهم مثل الفرق بين أبي وعمي فؤاد.

كانت تدافع عني أمامهم، وتخبرهم في تحدّ أن «مخي نظيف» مثل عمي فؤاد. كانت مقتنعة بذلك. كانت تحلم بأن يترقى ابنها ويصير مثل هذا الفرع المتعلم الراقي من بيت أبو ضيف. كانت تبثّني أحلامها وأمانيها، منذ كنت طفلا أنام في حضنها، وكأنها تناجي وسادتها.. لكن الطفل كان يسمع ويحتفظ بما يسمع. والحق أن أحلامها كانت منطقية تماما، فأنا بالفعل كنت ذكيا أحب التعلم والمدرسة، ولا أميل إطلاقا للعمل في تجارة الخردة التي يعمل فيها أبي وأخوتي الثلاثة.

هكذا احتل عمي فؤاد وأولاده هذه الصورة البراقة في ذهني.. المثال والنموذج.. الحلم والقدوة. على أنه كان حلماً قريبًا قابلًا للتحقق، فهذا عمي أنا، مثلي ومن عائلتي، وأنا قادر على أن أصير مثله في المستقبل.

وعندما كبرت ودخلت الجامعة، اخترت جامعة حلوان لأكون قريبا من بيت عمي.

بعد التنسيق أخذني أبي معه في واحدة من زياراته القليلة إلى بيت عمي فؤاد في حلوان، وقال لي أمامه كأنه يُشهده على ذلك:

- هذا بيت عمك، أي بيتك، أي شيء تحتاجه ستجده هنا قريبا منك.

وصدّق عمي فؤاد على كلامه في حرارة، بينما كنت أنا صامتا كالعادة لا أكاد أنطق، وإنما أكتفي بالايماء برأسي.

فلماذا إذن لا أتردد على بيت عمي فؤاد في حلوان؟

على أنني كنت أذهب وأنا أسأل نفسي ذلك السؤال، ولا أجد له إجابة.

كنت أحرص على أن أتأنق وأتعطر قبل أن أذهب، فأخرج من بيتنا وأنا في كامل ثقتي بنفسي، إلى أن أصل، فيذهب كل ذلك.. فأطرق باب البيت وأدخل وعيني في الأرض، لا أجد ما أقول. أُدعى بكرم وحفاوة إلى الداخل، فأجلس بينهم صامتا لا أدري ماذا أقول.. ثم أرفع صوتي وأعلق على أي شيء، أو أحكي حكايات عشوائية عن آخر أخبار الأهل والأقارب في كفر العلو.

تأتي (منى) فتنتبه حواسي وتسري الطاقة في جسدي، كأن الشمس طلعت.. تراني فتبتسم وتسلم عليّ، ثم تجلس صامتة مثلي تماما.. وعندما يستمر الصمت تملّ وتغادر في بساطة، وأجلس أنا وحيدا كالخائب، أنتظر اللاشيء.

كان هذا هو الوضع، حتى ظهر ذلك الكائن الأزرق في بيتهم. كانت هذه مناسبة ممتازة لأن أفعل شيئا، ويصير لي دور هنا.

كنت أنا الذي حكيت لعمي فؤاد عن الكائن المشابه الذي هاجم مزرعة أستاذ وجيه طلعت في الجزيرة، وزار

هو الأستاذ وجيه بعدها وسمع منه القصة بالتفصيل، وبرغم ذلك فإنه لم يستوعب الخطر الحقيقي لهذا الكائن.. كلهم لم يستوعبوا هذا الخطر. هكذا عندما ظهر ذلك الكائن في غرفة ليزا بنت عمي كان يجب أن أتدخل بنفسي وأحميهم من هذا الخطر.

كنت معهم عندما جلسوا معها يسألونها بهدوء.. حكت لنا قصة لقائها بذلك الكائن في خيمتها الصغيرة بحديقة البيت، ثم راحت تسترسل في تفاصيل حوارات خيالية بينها وبينه كما يفعل الأطفال عندما يلعبون مع القطط والكلاب ويكلمونها.. كانوا يسمعونها بذهول واندهاش ويسألون كثيرا، فتحمست ليزا وراحت تحكي بحماس وبتفاصيل أكثر.

في النهاية سألها عمي فؤاد:

- وأين هي الآن؟

أشارت ليزا للشباك وقالت:

- سيرين؟ ستأتي في المساء.

نظر عمي فؤاد للشباك بدهشة وسألها:

- من هنا؟

- نعم.. هي تأتي مساء من الشباك؟

تبادلنا النظرات. لم نكن نصدق. لم نكن نعرف وقتها أن ذلك الكائن يطير.

انتظرت معهم حتى المساء، ثم صعدنا مرة أخرى إلى غرفة ليزا، التي كانت تقودنا بحماس حتى تقدّمنا إلى

«سيرين» هذه. انتظرنا هناك في قلق وترقب.. وظهر الشيء.. نفس الوصف الذي سمعته من الأستاذ وجيه، العيون الواسعة والبشرة الزرقاء والأذنان الكبيرتان.. شهقوا جميعا في فزع، وتبادلوا النظرات الخائفة، وتحركت أنا بسرعة.. جريت إلى الخارج ورجعت بعصا المقشة، ورفعتها لأضرب بها هذا الشيء.. كدت أقتله بضربة قوية على رأسه، لكن ليزا حالت بيني وبينه، فلم تصبه الضربة، وأصدر صرخة كالفرقعة، وقفز إلى الخلف، ثم رمقني بنظرة عجيبة، وكأنها نظرة متوعدة، ثم قفز عائدا إلى الشباك قبل أن أضرب ضربتي الثانية، وهرب محلقا إلى الخارج كالبالون. هرعت نحو الشباك، وهويت عليه بضربة أخرى، أصابته بطرف عصا المقشة، لكنها لم تؤذه كثيرا على ما أعتقد.

التفتُّ إليهم وأنا ألهث، وقلت بهدوء وثقة وأنا أشعر بنظرات الدهشة والإعجاب لتدخلي البطولي هذا:

- خلاص، لن يجرؤ على التعرض لـ(ليزا) مرة أخرى.

هزّ عمي فؤاد رأسه موافقا، بينما ارتمت (ليزا) على سريرها وبكت. لقد نجح الكائن في الاستحواذ على عقلها.. هذا الكائن خطير فعلا..

# فؤاد

كنت أظن أنني أعرف ليزا جيدا لكنني لم أتوقع ما فعلته بعدها.. لا أنا ولا نادية. يبدو أن ثمة غريزة لدى الآباء تجعلهم يحسنون الظن بأبنائهم أكثر من اللازم فلا يتوقعون منهم الكذب أو الخطأ.. لا بد أنها هي نفسها الغريزة التي تجعل من القرد في عين أمه غزالا.

أسبوعان مرا قبل أن نكتشف أن المخلوقة - التي تسميها ليزا (سيرين) - ما زالت هناك، وأن ليزا ما زالت تقابلها سرا. وبعد أن أحكمنا نحن الرقابة على الحديقة والخيمة وغرفتها وتحت سريرها، خاصة في أول يومين، واطمئننا إلى ذهابها.. بعد كل هذا عادت (سيرين).

بدأنا نشك في الأمر بسبب الخيمة التي اختفت.. وكان عمرو هو الذي لاحظ ذلك. سألها عمرو أمامنا جميعا عن الخيمة وطلب منها أن تُحضرها ليلعب بها معها في الحديقة. حاولت ليزا أن ترفض بارتباك لكنه ألحّ، فقالت ببرود إنها لا تعرف أين الخيمة.

هذه مشكلة الأطفال حين يكذبون.. الكذب يحتاج إلى خبرة وحساب للعواقب. هنا تدخلت نادية، التي برغم حالتها لم تتخلّ قط عن اهتمامها بالنظام والترتيب، ورفضها بشدة لكلمات مثل «لا أعرف أين هي» أو «ضاعت» هذه، فأصرت أن تذهب مع ليزا إلى غرفتها لتريها إياها.. ولم تفلح ليزا في التهرب. وعندما لم نعثر على الخيمة جن جنون نادية وقررت أن تقلب البيت رأسا على عقب حتى تجدها.. هكذا هي نادية، عنيدة صلبة الرأس.. وكأنها

تستعيد حيويتها في مثل هذه المواقف!

أصررتُ على أن تستريح هي ونبحث نحن، لكنها ظلت تلفّ وتدور معنا، ولم نتوقف حتى عثرت هي على المخبأ وعلى سيرين فوق السطوح.

كان السطح خاليا تقريبا إلا من طبق الاستقبال، وبعض الكراكيب والأخشاب وقوالب الطوب المتناثرة. عرفنا بعدها أن ليزا كانت حذرة هذه المرة، فكانت تتجنب التغيب أو قضاء وقت طويل مع سيرين فوق السطوح، وحاولَتْ سحب الأطعمة والمشروبات التي تسرقها لها في حدود المعقول، وكانت تستكمل الباقي بمعلبات تشتريها بنفسها وتخفيها في حقيبتها المدرسية. حتى انكشفت بسبب الخيمة وبسبب عمرو.

هذه المرة وقفت نادية منفعلة متوترة أمام سيرين. كانت خائفة حقا على ليزا.. أمسكَتْ بذراع ليزا أمام سيرين وانفجرت باكية وصرخت في وجهها - وكأن سيرين هذه ستفهمها - أن تبتعد عن ابنتها ولا تؤذيها.

كنت أراقب في صمت بينما راحت هي تصرخ ودموعها لا تتوقف عن الانهمار.

هل فهمَت سيرين؟ هل كانت تفهم العربية؟

لا نعرف.. لكنها ظلت جامدة تماما كتمثال شمعي حتى انتهت نادية من الكلام والصراخ، وراحت تجفف دموعها وتحتضن ليزا في صمت.

ساد الصمت لحظات ثم حركت سيرين رأسها ببطء.. أومأت مرة واحدة برأسها إيجابا ثم نظرت إلى ليزا ورفعت

يدها ولوحت بكفها بإشارة الوداع.

احتضنت نادية ليزا أكثر، بينما استدارت سيرين واتجهت نحو سور السطح.. وقفزت.

# منى

منذ دخل عمرو بيتنا لأول مرة وماما تتساءل عن سبب زيارته، التي صارت «زيارات» بعدها.. اعتاد المرور علينا عدة مرات أسبوعيا، دون سبب واضح.. كان يدخل ويجلس معنا ولا ينطق. فقط يجلس هناك. ماما في البداية كانت تتذمر، خاصة أنها مريضة وتحتاج للراحة، ولا طاقة لديها للجلوس معه طوال هذا الوقت.. بعد أن تكررت الزيارات كفت عن محاولة الترحيب به، واعتبرته موجودا هناك والسلام.

الغريب أنني وجدته أكثر صمتا وانطوائية مني أنا.. أنا الانطوائية الخجول الصموت، أنا التي تجلس وسط المجموعة تستمع وتراقب ولا تتحدث ما لم «ينكشها» أحد، فوجئت بأنه يفوقني صمتا وانطوائية.. وسذاجة.

ماما لم تفهم، لكنني أنا فهمت سر زياراته المتكررة لنا، وشعرت بالشفقة والتعاطف نحوه.. عمرو ينظر إلى بيتنا الكبير بحديقته الواسعة على أنه فيلا فخمة، وربما قصر منيف، وبالتالي فنحن أثرياء أولاد ذوات.. فضلا عن أننا نسكن هنا في «المدينة»، لا في «البلد».. لا يعرف أن البيت هو مجرد بيت، والمدينة مجرد مكان خال من الأراضي الزراعية والحيوانات، والناس هم الناس في كل مكان.. لا فرق بين الناس هنا وهناك.. لكنه هو يرى فرقا.. والناس هناك يرون فرقا لا أفهمه.. أنا لست مختلفة عن قريباتي اللواتي في مثل عمري الساكنات في كفر العلو.. لا آكل طعاما أفضل ولا أمتلك سيارة

خاصة، ولا أعيش حياة مختلفة.. أبي مثل آبائهن، وأمي مثل أمهاتهن، وإن عشنا في بيت أكبر.. بل إنهن أحسن منا حالا، لو أخذنا في الحسبان حالة أمي هذه، ووضعنا الأسري منذ أصيبت بالمرض...

لكن عمرو يظن أننا مختلفون.. ويظن أنني مختلفة.. لو كنت أكثر لباقة وطلاقة في الكلام لقلت له في وجهه: أنا لست بنت باشا يا عمرو..

كان يتعمد فتح الكلام معي، وينتظر مهما طال الوقت حتى أدخل ويتحدث معي، وإن كان يحاول التظاهر بعدم إظهار اهتمام زائد نحوي.. هذه أمور لا تفوتني طبعا.

المشكلة أنه كلما تكلم قلّ تعاطفي معه وزاد نفوري منه. أنا أكره الغرور والتفاخر، وهذا شخص لا يتوقف عن مدح نفسه وذكر مميزاته وعلامات ذكائه وتفوقه ونبوغه، ورواية المواقف والحكايات التي يمدحه فيها الآخرون. ثم إنه يروي كل هذا بلهجة المتواضع، وبعد أن يؤكد قبل كل حكاية على أنه «لا يحب أن يمدح نفسه، ولكن...»، ثم يحكي الحكاية التي سيمدح فيها نفسه.. هذا كثير فعلا!.. لكنني لم أُبدِ أي انتقاد.. ليكن، هو يحاول الانخراط في أسرتنا، ليُشعر نفسه بالتفوق.. لا بأس، لعل هذا يلهمه الاجتهاد والنجاح في دراسته.. ربنا يوفقه.

ثم ظهرت سيرين وهو معنا، وتدخل هو بهذا الشكل العنيف وهاجم سيرين، التي هربت من الشباك. كان حسن النية بالطبع، فبعد الحكاية التي حكاها عن الكائن الأزرق الذي ظهر في كفر العلو، كان من الطبيعي أن يخشى على ليزا من هذا الكائن.

بعدها تغيرت ليزا. لم نر ليزا في هذه الحالة من قبل. هي عنيدة ومراوغة بطبعها، وكثيرا ما تلتفّ حول القواعد والتعليمات بذكائها البالغ، وإن كانت في النهاية تستقبل العقاب باستسلام وهدوء، وربما بابتسامة ثعلبية ماكرة وكأنها حصلت بالضبط على الصفقة بشروطها هي، فبعد أن حصلت على ما تريد فإنها لا تمانع في أداء الثمن عن طيب خاطر.

ليزا مثلا كانت تقترب فأشم رائحة الليمون.. كانت في تلك الفترة لا تتوقف عن أكل الليمون.. تقطعه وتمتصه بتلذذ، لا أعرف كيف تتحمل طعمه اللاذع.. المهم أنها تفوح بعدها برائحة الليمون المنعشة، وتتحرك في براءة كمعطّر الجوّ، وهي تتصور أن أحدا لن يعرف أنها ما زالت تمتص فصوص الليمون، لمجرد أنها تخلصت من القشر في المرحاض.. صغيرتي الساذجة.. من يمكنه ألا يحب ليزا هذه، بكذبها برائحة ليمونها؟

لكن ليزا بعدها صارت حزينة وغاضبة.. ليس غضب الأطفال سريع المفعول قصير المدى إياه، وإنما غضب حقيقي صلب، وكأنه نابع من شعور بالظلم والقهر.. نظرة لوم صامتة لا تفارق عينيها، ونبرة صوت تقطر مرارة لا تفارقها. لم نر ليزا هكذا من قبل قط. لم يكن ينقصها إلا أن تكتئب وتُضرب عن الطعام، كأنها مرّت بصدمة عاطفية عنيفة. لحسن الحظ لم تصل إلى هذا الحد، فقط لزمت غرفتها وأعرضت عنّا جميعا.

أعتقد أنها لم تكن تحاول أن تثبت شيئا.. كانت فعلا راغبة عن اللعب أو الكلام أو حتى الجلوس معنا.

في ذلك الوقت بدأنا نعرف أكثر عن ذلك الكائن، بعد أن تكرر ظهور المزيد والمزيد منه في المنطقة، وفي مناطق أخرى متفرقة في مصر.. لم يكن اسم «المساخيط» قد ظهر وقتها، فكانوا يشيرون إليها بأسماء وأوصاف مختلفة، منها «السلعوة الجديدة»، و«القرود المسعورة»، و«البلاء الأزرق»، نسبةً إلى لون بشرتهم. وبدأنا نسمع في الأخبار وعلى وسائل التواصل حوادث متكررة لظهور هذه الكائنات، والتعامل معها.. ثم بدأ بعضهم في صيدها حية، وذبحها، وقيل إن لحمها قريب من لحم النعام (على حد وصف بعض الصيادين الذين تخصصوا في صيدها)، مما جذب المزيد من الهواة لمحاولة صيدها بالبنادق والشباك والحبال والفخاخ.. أنا نفسي رأيت مجموعة شباب اقتنصوا مسخوطا خلف حديقة ٦ أكتوبر.

تعمدنا تجنب الكلام عن أمور كهذه أمام ليزا بالطبع. لو أن طفلا اتّخذ من أرنب حيوانا أليفا، فلا نتوقع منه أن يتحمّل كلاما عن ذبح وأكل هذا الأرنب، مهما كان لذيذا.

لكنها ظلت على حالتها العجيبة هذه، حزينة صامتة.

ماما وبابا طلبا مني أن أحاول إقناعها بالخروج، وربما النزول إلى الحديقة. ليزا ليست مجرد أختي الصغيرة، ليزا مثل ابنتي، برغم أنني لست كبيرة إلى هذا الحد. عندما وُلِدتْ كنتُ أنا في العاشرة من عمري تقريبا، إلا أنني لم أشعر بالغيرة منها قط.. على العكس، كنت أعتبرها هديتي التي طالما تمنيتها. صحيح أنها لم تكن الأخت التي أستطيع أن ألعب معها كما كنت أتمني، لكنني أحببتها ووجدت

نفسي حقا في تسليتها وتعليمها وممارسة أمومة حقيقية معها، وجدتها مختزنة بداخلي منذ كنت ألعب بعرائسي..

فاتحتها وأنا أتوقع أن تصرخ فيّ أو ترفض أو تقاوم، لكنها قبلت بهدوء وبساطة، وإن ظلت واجمة لا تنفرج أساريرها ولا تبتسم.

وفي الحديقة رحنا نراقبها وقد أطلقت طائرتها الورقية وراحت تعدو أمامها رائحة وغادية حتى تسقط منها، فتعيد رفعها وتعدو بها من جديد، حتى تعبت، فجلست على النجيل الأخضر ووضعتها أمامها وراحت تعبث بها بأصابعها وتناجيها وكأنها تبثّها شكواها.

كانت ماما في الشرفة تراقبها في صمت.

أنا أعرف ماما جيدا.. هي تقاوم شعورها بالذنب وتُحمّل نفسها مسؤولية هذه الحالة التي وصلت إليها ليزا.. هكذا هي ماما دائما.. دائما تحمّل نفسها مسؤولية كل شيء وتلوم نفسها على أية مشكلة تحدث لنا..

وكان بابا يجلس بجانبها على كرسيه الأصفر المفضل، يراقب ليزا ويتابع الأخبار على هاتفه..

أما أنا فكنت عند الأرجوحة في أول الحديقة تحت الشرفة مباشرة. كلنا كنا هنا نراقب ليزا، حين رن جرس هاتفي، كان عمرو يتصل بي. قمت أرد على المكالمة وأنا أتمشي رائحةً وغادية كعادتي.. لم يكن يريد شيئا بالتحديد، كان يسألني إن كنا موجودين، ليأتي ويزورنا.. وكأنه بحاجة إلى إذن!

دقيقة واحدة، رجعت بعدها أبحث عن ليزا حيث

كانت فلم أجدها! رحت أتلفت حولي وأنا أهتف في جزع:

- بابا! ماما! أين ليزا؟

كانت ماما قد أخذتها سِنة من النوم وهي جالسة كعادتها، بينما انشغل بابا بقراءة شيء ما على الفيسبوك فيما يبدو..

قال بابا محاولا تهدئة ماما التي كانت على وشك فقدان الوعي:

- لا بد أنها رجعت لغرفتها أو دخلت الحمّام.. سنجدها لا تقلقي..

لكننا بحثنا وبحثنا، ولم نعثر لها على أثر.. لا في الحديقة ولا في الفيلا كلها.

# ليزا

عندما رأيتها لأول مرة هناك خفت منها، ثم اكتشفت أنها مجرد كائن خائف يرتعش من البرد.

لا أعرف لماذا هي شكلها غريب. هي بنت مثلي، لكن لونها أزرق، وأيضا عيناها وأذناها أكبر. أنا تعلمت أن لون الإنسان ليس مهما، لكنني لم أرَ إنسانا أزرق من قبل.. رأيت ألوانا أخرى لكن ليس الأزرق.

ساعدتها وأخذتها إلى غرفتي في الدفء وأحضرت لها الماء والطعام.

كانت لا تتكلم في البداية، وعندما حاولت أن أتكلم معها اكتشفت أنها أجنبية لا تجيد العربية ولا الإنجليزية.

علمتها بعض الكلمات. كنت أشير إلى نفسي وأقول: «ليزا». فهمَتْني وكررت الاسم بلكنة غريبة.. نطقته (ليسا)، ثم أشارت إلى نفسها وقالت اسما طويلا (سيريناتيس).. كان الاسم طويلا وصعبا فأخذت منه الجزء الأول وقلت لها (سيرين).. قررت أن أسميها (سيرين) وهي وافقت.

علمتُها أيضا أسماء بعض الأشياء مثل: قلم، ورق، تفاح، أحمر، سرير.. وعلمتني هي أيضا كلمات من لغتها بنفس الطريقة.

وبعد ذلك بدأت تلعب معي وترسم لي رسومات جميلة، ثم بدأت تعلمني كيف أرسم مثلها خطوة بخطوة. ثم علمتني التلوين بطريقة التنقيط.. أحببت طريقتها الجميلة في الرسم

وفي التعليم أيضا كانت سيرين أفضل من مُدرّسة الرسم (مُدرّسة الفصل.. فهي ليست أفضل من ماما طبعا!). علمتني كيف نصنع الألوان من مواد طبيعية مثل الدقيق والطماطم والتوت واللبن والزيتون.. وعلمتني أيضا النحت باستخدام الطين والصخور والصلصال و»السلايم»، ثم علمتني صنع خلطة جديدة لم أعرفها من قبل.. شيء طري بين الصلصال والسلايم وبعد أن ينشف يصير تمثالا جميلا. رحنا نصنع أشكالا وأشكالا.

أريتها صورا لشخصياتي الكرتونية المفضلة ميكي ماوس وبطوط وتويتي وباجز باني واليونيكورن والمينيون ومارد وشوشني.. ورسمت لي هي الشخصيات الغريبة التي تحبها من بلدها. وعلمتني كيف أصنع أنا شخصياتي المفضلة.

كنا نلعب ونرسم وننحت معا ونتعلم كلمات أكثر.. هي تتعلم كلمات بالعربي وأنا أتعلم كلمات بلغتها (اللغة نفسها اسمها صعب.. اسمها أوله «دوجو...» ولا أتذكر بعد ذلك!).

جربنا بعد ذلك اختراع شخصيات هجينة بين ناس مثلنا وناس مثلها.

أسمعتها بعض الأغاني التي أحبها فعلمتني سيرين معزوفات صوتية بالحلق وطريقة في الغناء من الحنجرة فقط. حاولت أن أقلدها كثيرا لكن الموضوع كان صعبا بصراحة.

عندما سألوني حكيت لهم كل شيء. كانوا يسمعونني بذهول واندهاش ويسألون كثيرا، فتحمست ورحت أحكي كل شيء.. كلهم كانوا حولي.. ماما وبابا ومنى

وحتى عمرو ابن عمي.

لكنني لم أفهم وقتها سبب كل هذه الأسئلة.. في النهاية سألني بابا:

- وأين هي الآن؟

أشرت للشباك وقلت:

- سيرين؟ ستأتي في المساء.

نظر للشباك في تساؤل وسألني:

- من هنا؟

- نعم.. هي تأتي مساء.

- من الشباك؟

تبادلوا النظرات. كانوا لا يصدقونني.. وليتني تركتهم لا يصدقونني. ليتني لم أخبرهم أصلا.

في المساء أخذتهم إلى الأعلى لأقدمهم إلى سيرين، لكنهم عندما رأوها لم يرحبوا بها ولم يحاولوا الكلام معها. تبادلوا النظرات في فزع.. وجرى عمرو إلى الخارج ثم رجع ممسكا بعصا المقشة، ورفعها ليضرب بها سيرين، لا أعرف لماذا.. حاولت أن أمنعه، لكنه راح يدفعها بها حتى أخرجها من الشباك ثم أغلقه خلفها، والتفت لنا يقول في فخر: خلاص.

جلست على سريري وبكيت.

هل يحسبون أنهم هكذا قد أبعدوها عني؟

سأصل إليها. سأجد وسيلة.. هي ستبحث عني، وأنا سأجدها.

## نادية

نعم أنا معروفة بقوة الشخصية ورباطة الجأش، بل إنني أُتهم أحيانا بالتسلط، وهذا غير صحيح أو على الأقل هكذا أعتقد، لكن الأكيد أني موسوسة فعلا ومهووسة بالتحكم في التفاصيل التي تخصني. لهذا فإن شخصية مثلي لا تفقد أعصابها إلا إذا خرجت الأمور عن السيطرة تماما، وهذا ما حدث هنا حين اختفت ليزا.. صرخت بهستيريا، ونسيت تعبي وإرهاقي وجريت إلى الخارج.. انطلقت أدور في الشوارع المحيطة بالفيلا في سرعة على أمل أن تكون ليزا ما زالت بالقرب.

رحت أمشط الشوارع بنظام، محاولة ألا أترك بقعة دون أن أمر بها.. ثم خطر لي أن هذا سيصلح فقط لو كانت ليزا ثابتة في مكانها فلو كانت تتحرك الآن فلربما تنتقل إلى إحدى البقاع التي تخطيتها أنا، وقد تبتعد أكثر وتضيع فرصة العثور عليها للأبد.. رباه! يجب أن نعثر عليها بسرعة، فكلما مر الوقت قلت فرصتنا في العثور عليها. تقلصت أمعائي لهذه الفكرة.. الوقت.. الوقت.

رحت أدور حول سور الفيلا غير قادرة على اتخاذ قرار.. ماذا أفعل؟

راودني فجأة شعور خفي بأن هناك من يراقبني.. وحين رفعت عيني لأعلى التقتا بذلك الوجه الأزرق ذي العينين الكبيرتين غير الآدميين.. كانت هذه سيرين فوق شجرة بداخل سور الحديقة اليابانية تنظر لي في ثبات.

***

توقف فؤاد خلفي بالسيارة وأخرج رأسه من نافذتها وصاح:

- ليست في هذه الناحية.. أين ستبحثين؟

أشرت له بالانتظار واقتربت من تلك الشجرة. لم أكن متأكدة من أنها ستفهمني، لكنني رفعت وجهي إليها وصحت في سيرين في حدة:

- ليزا.. أين ليزا؟

تراجعت سيرين برأسها وكأنها فوجئت.. حتى لو لم تكن تفهم العربية فلا بد أنها فهمت لهجة الاتهام هذه. ترجّل فؤاد من السيارة واقترب مني ووضع يده فوق كتفي لأهدأ.. أول مرة يلمسني منذ وقت طويل.. أول مرة وليزا تائهة.

انتفخ جسد سيرين، وهبطت من على الشجرة ببطء كالبالون، ووقفت أمامنا في صمت.

رحت أحدق فيها مبهورة.. هكذا إذن يطيرون! كنت قد سمعت أنهم ينتفخون ويطيرون لكنني لم أكن قد رأيت هذا بعيني من قبل. كررت سؤالي بهدوء هذه المرة:

- أين ليزا؟

هنا سمعت صوت سيرين المفرقع اللطيف لأول مرة:

- ليسا!

بل هو هذا الصوت الذي كان يغني مع ليزا في غرفتها. قال لها فؤاد بلهفة:

- نعم، ليزا.. أين؟

لم تُبد سيرين أية علامة على الفهم وكررَتْ:

- ليسا!

ثم رفعت كفها بأصابعها مفرودة وأدارتها في الهواء بإشارة «ماذا؟».. لا بد أنها تعلمتها من ليزا.

كررتُ خلفها السؤال، مع إشارة «ماذا؟» نفسها:

- نعم.. ليزا.. أين؟

بدا لي أنها فهمت هذه المرة لأنها رددت «ليسا» وأشارت إلى الفيلا.

وجدت نفسي أخاطبها بعبارات ركيكة مفككة، لأسهّل عليها الفهم، كما نتحدّث مع الأطفال.. قلتُ لها وأنا أشير إلى الفيلا:

- لا.. ليزا لا.. هنا..

ودعمت ذلك بهز أصبعي ورأسي يمينا ويسارا بمعنى النفي وأنا أنطق اسم ليزا.

هنا أومأت سيرين برأسها إيجابا.. هل تعني أنها فهمت؟ هل تعرف أين هي؟ هل تعرف أين تبحث؟

سألها فؤاد بكلمات متقطعة لعلها تفهمه:

- ماذا؟.. هل.. أنتِ.. تعرفين.. أين يمكن أن نجدها؟

جملة طويلة صعبة، لن تفهمه طبعا.. وكأنه في وادٍ آخر!

قالها وهو يشير إشارات خزعبلية يستحيل فهمها..

ولم ترد سيرين هذه المرة. انتفخ جسدها وارتفعت

في الهواء ببطء حتى صارت على ارتفاع ثلاثة أمتار، ثم أشارت بكفها إلينا بمعنى أن ننتظر.. (من الواضح أنها تعلمت الكثير من ليزا فعلا) ثم استدارت وتحركت باتجاه السوق الجديد الموازي للمترو. أدركت إلى أين تتجه وتذكرت مشاهد الصيد في الأخبار فصحت فيها في هلع:

- لا يا مجنونة، سوف يصطادونك.. ارجعي!

لكنها لم تتوقف.. راحت ترتفع وتتوقف في الهواء وتفتح فمها وكأنها تطلق صيحة ما، بصوت لا نسمعه، ثم تتحرك مرة أخرى، بينما رحنا أنا وفؤاد نجري خلفها محاولين اللحاق بها.. ظلت تكرر هذه العملية عدة مرات ونحن لا نفهم. توقفنا عن الهرولة خلفها في يأس وتمتمتُ أخيرا وأنا ألهث:

- ماذا تفعل هذه المخبولة؟

قال فؤاد:

- لا أعرف.. كأنها تجرب نوعا من التعاويذ السحرية.. أو الصلوات!

كانت تتوقف في الهواء وتغمض عينيها في خشوع غريب..

الوقت يمر.. يضيع.. ماذا نفعل الآن؟ هل نرجع إلى البيت؟ أين نبحث بعد ذلك؟

هتفتُ فجأة:

- الشرطة يا فؤاد! دعنا نبلغ الشرطة!

- لكنها اختفت للتو، وهناك قاعدة الـ24 ساعة...

صحت فيه بحدة:

- انسَ لحظة أنك محام! اتصل بهم!

لو لم نكن في هذا الموقف العصيب لتحول الأمر إلى مشاجرة.. اكتفى بأن حدجني بنظرة لوم، ثم أخرج هاتفه وطلب الرقم.. رحنا نتابع سيرين التي كانت في الهواء مغمضة العينين، ثم فتحت عينيها وهبطت نحو شارع بعينه هذه المرة.. كنّا نراها من بعيد.. اقتربت كثيرا من الأرض هذه المرة، لأنها اختفت عن عيوننا خلف بعض المباني..

كان فؤاد يتحدث في الهاتف، يسجل بلاغا عن اختفاء ليزا، حين دوّت في الأنحاء أصوات إطلاق رصاص.

تلفتنا حولنا في جزع، لكن سيرين ظهرت بسرعة من خلف أحد المباني واقتربت منا حتى ارتفاع ثلاثة أمتار وقالت بصوتها المفرقع الحاد: «ليسا».

وأشارت إلى نقطة ما في الأفق ثم راحت تطير وهي تنظر خلفها فتبعناها أنا وفؤاد، الذي انتبه فجأة إلى أنه ما زال في مكالمة النجدة فعاد لها معتذرا وقال:

- نعم نعم، سأنتظر 24 ساعة ثم أتقدم ببلاغ.. شكرا.

كانت سيرين تتجه إلى منطقة السوق الجديدة، وهناك في المساحة الواسعة الفاصلة بين السوق والمترو حدث كل شيء بسرعة.. كانت سيرين تطير قبلنا بمسافة، ثم ظهرت ليزا خارجة من السوق، وحين رأت سيرين جاءت تجري وتصيح باسمها.. لمحتها سيرين وزادت من سرعتها، عندما جاءت الرصاصة التي أصابتها وأسقطتها أرضا بلا حراك.

صرخت ليزا وصرخت أنا في ذعر، وهرول فؤاد باتجاه ليزا، في حين ظهر صاحب الطلقة من مكمنه القريب رافعا بندقيته، وهرع نحو فريسته في نخر وانتصار.. كان جزارا، يرتدي الجلباب الأبيض الملوث بالدم، والحزام الجلدي المسلح بالسكاكين ذات الأحجام والاستخدامات والأسماء المختلفة.. والشخص نفسه كان نموذج الشخص المخيف الذي لا أحب أن أجد نفسي في نزاع معه.. الملامح الغليظة الثقيلة التي لا تعرف الابتسامة الخفيفة أو نظرة العتاب أو اختلاس النظرات الجانبية.. ملامح ثقيلة تتحرك بأوامر واضحة نحو أهداف مباشرة، كالقطع العسكرية الثقيلة.. ملامح تتحرك بالجنازير مُحدثةً صريرا معدنيا.. ملامح من النوع الذي يتحرك لأغراض واضحة مباشرة، كالغضب أو الضحك المجلجل أو... فقط! لا بد أن هذا هو كل شيء. من الصعب أن تعرف هذه الملامح الحزن أو القلق أو الابتسامة الخجلى، وما إلى ذلك من الانفعالات الرقيعة التي يتداولها أمثالنا.

خرج من الجانب الأيسر لمدخل السوق وجاء بخطوات ثابتة واثقة حاملا في يده بندقية طويلة.. مصدر الطلقة.

وكأنما لم يرني أبكي عند جسد سيرين المسجى، ولم ير فؤاد وليزا أمامها، انحنى ببساطة على الجسد النازف وهمّ بالتقاطه، حين اعترضتُه أنا بجرأة.

نظر لي بدهشة. لا بد أن هذا شعور إنساني جديد عليه.. لا بد أنه لم يرَ من يقف أمامه بتحدٍ هكذا من قبل.

وقف متسائلا، فتقدمتُ خطوة أحولُ بينه وبين جسد سيرين، وصحت فيه أتهمه بارتكاب جريمة وأطالبه بالخجل

من نفسه. تساءل بدهشة عما أعنيه. دهشة حقيقية.. هو في نظر نفسه رجل شريف يصطاد رزقه.

سألته عما يريد منها، فقال ببساطة:

- هذا صيدي.. حقي!

- صيدك؟ ماذا تعني؟

- أعني.. ذبيحتي! لو غرضكِ تجربة اللحم الأزرق فلا بأس، سأقطع لك كيلو من لحمها، لكن لا تعطّليني من فضلك يا مدام.

نهض فؤاد وحاول التفاوض معه بالعقل، فصاح فيه الرجل بخشونة، بينما كانت ليزا قد انفجرت باكية وألقت نفسها على جسد سيرين..

تجمع الناس محاولين التدخل وفض الاشتباك.. و دارت مناقشة عبثية رحت أتابعها في صمت حول أحقية الصياد في صيده، في مقابل حق الطفلة في حيوانها الأليف، كما فهموا من جزعها عليها.

بدأت الأصوات تميل لكفة الطفلة بدافع الرحمة بكل الكائنات، وشعر الجزار بتناقص حظوظه فرفع صوته الجهوري معلنا رفضه للتدخل، ودار مندفعًا نحو سيرين برشاقة الثور مخترقا زحام الواقفين، وانحنى يلتقط الجسد الساكن.. لكن ليزا ألقت نفسها عليه، وتعلقت برأسه وراحت تضرب وتخمش وتصرخ وتردد أوصافا طفولية لا تُقال هنا في السوق عادةً، مثل «وحش» و»شرير»..

كانت عنيفة حقا، وكان يمكنه بحركة واحدة أن يرميها

لآخر الشارع، لكنه لم يجرؤ على ذلك أمام كل هؤلاء، خاصة أن بعضهم أخرج هاتفه وبدأ يصور ما يحدث.

هنا تغير الموقف وتدخل الناس لإبعاد الطفلة التي التصقت به كقطة غاضبة وتصاعدت الصيحات من أجل الهدف الأول والأسمى لكل الوسطاء الشرفاء، رسل السلام في كل الخناقات: تهدئة الأمور.

هجمة ليزا غيّرت المعادلة وصارت تهدئة الأمور الآن هي: «دعه لها، إنها طفلة يا أخي»!

وأخيرا تركَنا الرجل ورحل.

احتضنت ليزا واطمأننت عليها، ثم أوقف لنا فؤاد سيارة أجرة فجلست أنا في المقعد الخلفي بجوار ليزا وعلى ساقيّ جسد سيرين الساكن.

تولى فؤاد إرشاد السائق للطريق البيت، ورحت أنا أتأمل سيرين أخيرا.. هذه البشرة الزرقاء الداكنة وهذه الملامح البريئة الغريبة وهذا الجسد الساكن تماما.

مددت يدي أجس رقبتها وساعدها، فلم أشعر بأي نبض في جسدها.. هل ماتت؟

# حكم أكل لحوم المساخيط

## من فتوى متداولة للشيخ أحمد سعيد زغلول

هل يجوز أكل لحم المساخيط، علما بأنها كائنات ليس لها تصنيف واضح، لكنها تطير، ونجدها على البر وفي الماء كذلك، في البحر والنهر، فيمكن اعتبارها من الطيور أو البرمائيات. فهل يجوز أكلها؟

(...)

وبعد، فإن أصل المسألة في الأطعمة هو الإباحة، ولا يحرم إلا لدليل خاص كما يقول الفقهاء. فعندما يحرّمون شيئًا ينظرون إلى ما ورد من أدلة التحريم لأسباب، كأن يكون ضارًا بالبدن أو العقل.. (...)

والسبب الآخر الإسكار أو التخدير، فكل مسكر حرام ومثله كل مخدر لأنه مفسد.

والسبب الثالث للتحريم كونه نجسًا أو متنجسًا فالدم مثلًا نجس، والزرع قد يكون متنجسًا إذا سُقي أو سمّد بنجس.

والسبب الرابع للتحريم الاستقذار كالبصاق والمخاط والمني، فهي وإن كانت طاهرة إلا أنها مستقذرة (...)

وعليه فإننا لا نرى ما يمنع من أكل هذا النوع المذكور من الحيوانات، إلا إذا تبين فيه سبب من أسباب التحريم السالف ذكرها، والله أعلم.

# فؤاد

حتى هذه اللحظة لم أكن قد اتخذت موقفا واضحا من سيرين. أعتقد أنني عموما غير صدامي، خاصة مع نادية.. أحيانا إيثارا للسلامة وتجنبا لحماسها الدائم وحدتها المبالغ فيها، حتى في توافه الأمور.. وفي أحيان أخرى - أعترف - كنت أتأثر برأيها وأنحاز له تلقائيا.. ولعل هذا أحد أسباب المشاكل التي نشأت بيننا.. لا أحب ضعف شخصيتي ناحيتها.. بعيدا عنها أنا مستقل متوازن، ولكنني معها أتحول إلى هذه الصورة التي أكرهها.

لا أعرف ما الذي أوصلني إلى هذا.. ربما لأنني، منذ عرفتها، وأنا أراها في تلك الصورة المثالية.. جميلة رقيقة قوية الشخصية.. كنت دائما أنا الطرف الصامت الذي يتمنى نظرة منها وينظر إليها كأنها نجمة بعيدة. برغم ظروفي المادية الجيدة، والبيت الكبير الذي ورثته مبكرا، إلا أن ضياعي في الحياة وقتها، وفقداني للهدف، في مقابل ثقتها الكاسحة وثقافتها الموسوعية وحيويتها وكل هذه الطاقة التي تشع منها.. كيف لنجمة مثل هذه أن تهبط من عليائها وتستقر بجواري أنا بالذات؟

أنا الخطّاء التائه الأحمق.. وهي الفيلسوفة الواثقة الجميلة المثقفة التي لديها كل الإجابات.. كان اقترابي منها يسحرني.. وبلا وعي صرت أجد نفسي أتغير لأصير جديرا بها. ترسخت في ذهني صورتها كمقياس للمبادئ وكمعيار لتحديد الصواب والخطأ. وبعد ذلك وعبر سنوات من الزواج والعشرة وبرغم أنني رأيت منها عشرات الأخطاء

والتفاهات والحماقات والعيوب، فإنني كنت أضبط نفسي كل مرة وأنا أحدق فيها ولا أكاد أصدق أنها هي - هي نادية - كائن بشري يخطئ ويتحامق مثلنا.. والعجيب أن هذا كان يثير في نفسي كل مرة نوعا من النشوة والارتياح وكأن كل خطأ جديد منها إثبات جديد على جدارتي بها.

وفي تلك المرة حين اتخذت نادية ذلك الموقف العدائي من سيرين وطردتها من البيت لم أتخذ أنا أي موقف.. لم أعترض ولم أوافق.

ربما كان تحفظي الوحيد هو ضرورة مراعاة شعور ليزا، لكنني كنت أنظر إلى الموضوع من الخارج وكأنه لا يعنيني، وكأنني مراقب خارجي.. تركت نادية تتصرف كالعادة. وبالنسبة لي كنت أفكر في سيرين باعتبارها الحيوان الأليف الذي تعلقت به ليزا..

ثم حدث ما حدث مع سيرين، ورجعنا بها جريحة مصابة بطلق ناري، وحسبتها نادية قد ماتت، حين لم تشعر بنبضها.. ثمة احتمال في وجود اختلاف تشريحي بينهم وبيننا، ربما كان هو السبب في تعذر قياس النبض.

شعرت وقتها أن الأمور قد اختلفت بالنسبة لنادية.. كانت عيناها محمرتين وأنفاسها متسارعة برغم أننا عثرنا على ليزا.. كانت قلقة على سيرين المصابة.

حملت جسد سيرين الصغير اللين.. جسد أنثى ناضجة في حجم طفلة.. جسد خفيف الوزن كجسد طفلة.. لكنها ليست طفلة.. هذه امرأة.. امرأة كاملة الأنوثة، لكنها زرقاء، كبيرة العينين والأذنين.

أرحتها على الأريكة في رفق، وجلست بجانبها أحدق فيها مشدوها.. تمتمت نادية:

- أسرِع.. هي تحتاج إلى إسعاف سريع.

- إسعاف؟ هل هي حية؟

- أعتقد ذلك.. فتحت عينيها أكثر من مرة..

- لا بد أن نظام النبض عندهم مختلف إذن.

- هيّا.. كلّم طبيبا.

- الإسعاف؟

- لا.. لن يقبلوا غالبا.. كلم أي طبيب من معارفك..

- مَن؟

- الأسرع!

تجاهلت حدّتها والتقطت هاتفي ورحت أقلب في جهات الاتصال بحثا عن اسم مناسب وأنا أختلس النظر إلى نادية التي كانت تفحص جسد سيرين..

نادية غيرت موقفها من النقيض إلى النقيض. هل لأنها عثرت على ليزا؟ لو أن ذئبا أنقذ حياة طفلك فهل سيغير هذا كل شيء بالنسبة لك؟ هل ستتوقف عن معاملته كذئب بعد ذلك؟ هل تستأمنه على حياة طفلك؟

صحيح أن سيرين ليست ذئبا، لكننا لا نعرف ولم نتأكد.

لاحظت نادية شرودي فصاحت تستعجلني، وانتبهتُ أنا إلى أنني، وسط شرودي هذا، كنت أبحث في جهات الاتصال - ياللغباء! - بكلمات مثل «ذئب» و»وولف»!

مسحت كل ذلك ثم كتبت في خانة البحث «بيطري». ظهر لي اسمان مسجلان عندي، فقلت لنادية:

- هناك ياسر قطب ومروة السمري.

- مروة السمري أليست هذه طبيبة بيطرية؟

قلت في حذر:

- نعم..

- هي ليست حيوانًا يا فؤاد.. ليست حيوانا!

قالتها وكررتها بتأثر وكأنما تكررها لنفسها.

هذه هي نادية.. هي تشعر أنها هي السبب فيما حدث.. هي التي طردتها حتى حدث لها ما حدث.. هي التي قالت لنفسها ولابنتها وقتها إن هذا كائن غير مضمون، وإن أردنا أن نقتني حيوانا أليفا فلنختر واحدًا مأمونا.

قلت لها ببساطة:

- لم أقل ذلك، لكنني أظن أن طبيبا بيطريا سيكون أقدر على التعامل مع الحالة.

- لماذا؟

- لأن تخصصه يغطي كائنات مختلفة، بينما الطبيب البشري متخصص في كائن واحد تقليدي معروف هو نحن!

استمعت لي ولانت ملامحها، فقلت بخفوت وأنا أشير لها بالهاتف:

- ها.. أتصل؟

- بسرعة!

# كرات بيضاء مجهولة
# على شواطئ الإسكندرية

### جريدة الفنار اللبنانية

تسبب انتشار كرات بيضاء صلبة مجهولة الهوية بكثافة كبيرة على رمال شاطئ البحر المتوسط في الدخيلة بمحافظة الإسكندرية شمال مصر، بالتزامن مع انتشار أسماك صغيرة نافقة في حالة من الذعر والسخط العام بين المصطافين نتيجة الخسائر المالية الكبيرة التي تكبدوها بعد مجيئهم من محافظات مختلفة لقضاء عدة أيام على شواطئ المحافظة. ورفض المئات من المصطافين والأهالي النزول إلى البحر خوفا من هذه الكرات المجهولة التي تملأ الشواطئ، خاصة أنها شديدة الصلابة ومقاومة للكسر وأنها قد تسبب إصابات جسيمة نظرا لأن الأمواج تقذف بها بالمئات على الشاطئ. ونشر عدد من المصطافين والأهالي على شبكات التواصل الاجتماعي صورا وفيديوهات للكرات المجهولة، التي يقترب حجمها من حجم ثمار الكنتالوب، إلى أنها بيضاء صخرية الملمس شديدة الصلابة مقاومة للكسر، ورغم ذلك تطفو على سطح الماء. وقد تعامل المواطنون معها بحذر نظرا لجهلهم بماهيتها.

وترددت شائعات وتكهنات عن كنه هذه الكرات، فتوقع البعض أن تكون مجرد صخور من نوع ما، وإن كان ذلك لا يفسر انتظام حجمها بهذا الشكل. وانتشرت شائعة قوية بأن هذه الكرات هي نوع غريب من البيض لكائن بحري غير معروف بعد، وهي النظرية التي أثارت

الذعر بين المواطنين ودفعتهم لاتخاذ المزيد من الحذر، إذ إنه بالقياس لحجم البيض المزعوم فلا بد أن الكائن ذاته سيكون عملاقا.

وفي السياق ذاته حذر بعض المراقبين من التهور في التعامل مع هذه الأجسام المجهولة، مطالبين بإجراء فحوص علمية دقيقة عليها من قبل الجهات المسؤولة. وقال إعلامي شهير على حسابه على موقع تويتر: «ماذا لو أن هذه الكرات تحتوي على مواد سامة أو متفجرة؟». وقال عدد من الصيادين إنهم يخشون أن يتبين أنها بيض لأحد أنواع الوحوش البحرية أو الثعابين العملاقة أو أي كائن خطير آخر. بينما انتشرت شائعات محلية أن هذا بيض كائنات شيطانية سفلية.

وفي هذا الإطار أكد عضو مجلس نقابة الأطباء البيطريين الدكتور حسين فرج أن مشكلة انتشار الكرات البيضاء المجهولة على شواطئ الإسكندرية، خصوصا شاطئ الدخيلة، تقع ضمن نطاق مسؤولية هيئة الصرف الصحي، وأكد أن النقابة لا دخل لها في حل الأزمة، مطالبا بتشكيل لجان متخصصة من خبراء علوم الحيوان والمعاهد البحثية ومن وزارة الصحة وأساتذة علوم الحيوان بكلية العلوم للتحقيق في هذا الشأن.

# فؤاد

جاءت مروة السمري. معرفة قديمة هي منذ أيام الجامعة. فتاة أمينة وأهل للثقة..

لم تكن صداقتنا مستمرة بالضبط بعد الجامعة إلا أن مساراتنا تقاطعت عدة مرات، خاصة أنها انتقلت إلى المعادي هي الأخرى، والمعادي ليست بعيدة إلى هذا الحد من حلوان. اتصلت بها، وأنا آمل أن أجدها في مكان قريب لتأتي فورا على وجه السرعة.

كما يحتم الذوق سألتها أولا عن أحوالها وأين هي الآن، قالت لي إنها في مشروعها الجديد الذي بدأته منذ أسابيع وبدأ ينتعش بالفعل: فندق للحيوانات الأليفة. لم تكن بحاجة للشرح كنت قد سمعت من قبل عن تجارب شبيهة. أنت مسافر ولديك حيوان أو عدة حيوانات أليفة، ماذا تفعل؟ تطلب من أحد معارفك معروفا بإطعامها أو استضافتها.. أو تذهب لفندقك هذا وتدفع بالليلة. قلت لها:

- تعالي حالا يا مروة. هذه طوارئ فعلا.

- لكن.. الفندق!.. ممكن أرسل لك رامي، ذراعي اليمنى.

- لا.. أريد شخصا أعرفه شخصيا وأثق به.

- ماذا هناك بالضبط؟

- لا تقلقي، لكن تعالي بسرعة أرجوكِ.. سترين بنفسك.

وجاءت مروة ومعها ذراعها اليمنى.. أعني رامي.

لم يكن الأمر سهلا.. كانت الصعوبة الكبرى في فهم التركيب البيولوجي لهذا الكائن دون دراسة تشريحه من قبل.. هكذا كنت أظن.. لكنها بدأت العمل دون التوقف عند هذه النقطة، وعندما سألتها قالت ببساطة إن هذا اجتهاد منطقي قبل أن يكون طبيا، فمهما كان التشريح فإن الخطر هو الرصاصة.. هكذا استخرجَت شظايا الخرطوش وطهرت الأنسجة، ثم تركت رامي يخيط الجرح.

- والآن؟

- لا أعرف.. لقد أوقفنا الخطر وداوينا الجرح.. ولكن الباقي هنا في جسمها.

وكأنما سمعتنا سيرين، فقد فتحت جفنيها في وهن للحظة، ثم عادت تغلقهما. فقال رامي:

- على الأقل هي حية.

وقالت مروة:

- لا أعرف طبعا ما وضع جهازها المناعي، وهل فقدت الكثير من الدماء أم لا.. قد تحتاج إلى مضادات حيوية لكننا لا نستطيع أن نعطيها أي شيء ونحن لا نفهم كيف يعمل جهازها المناعي.

- وإذن؟

- لنعتمد على الجسم نفسه في ذلك ونمده نحن بالأغذية المناسبة، مع الكثير من السوائل.. ماذا تأكل؟

قلبتُ كفيَّ في حيرة.. ثم تذكرتُ ليزا فجأة.. كانت واقفة

تراقب من بعيد.. وحين اتجهت إليها العيون انكمشت خجلا، خاصة وقد فطنت إلى السؤال الموجه لها: «ماذا كنتِ تطعمينها؟»».

قالت بعد إلحاح:

- كنت أطعمها أي شيء من الثلاجة.

- أي شيء؟

- أي شيء نيء فقط.

- مثل ماذا؟

- خضر.. فواكه.. بيض..

نظرت لي مروة وأشارت بكفها نحو ليزا بمعنى كما ترى.

انصرفت مروة ورامي وتركا لنا هذه الجريحة لمداواتها.

كانت سيرين واهنة حقا لكنها حية.. لا نبض ولا ضربات قلب لكنها حية..

لم تقوَ على تناول أي شيء مما ذكرته ليزا.. جربنا الشوربة، لكنها تذوقتها ثم لفظتها في تقزز.

تذكرت ليزا أنها قبلت منها بعض العصائر الطبيعية فأعددنا لها كوبا، فكان أول ما دخل جوفها.

استمرت على هذا العصير حتى بدأت تسترد بعضا من قواها، ولو أنها ظلت بادية الوهن وظلت هكذا لفترة.. كنا نناقش هذا الأمر حين تدخلت ليزا على استحياء وقالت:

- كنت أريد أن أخبركم شيئا.. سيرين تحتاج إلى طعام بعينه.

- حقا؟ حتى نتعافى؟

- أظن ذلك. قبل ذلك كانت تأكل أي شيء ولا تطلب.. هذه أول مرة تطلب مني طعاما بعينه.

سألتها نادية:

- وهل تفهمين لغتها؟

قالت ببساطة:

- أفهم كثيرا من كلامها لكنني لا أحتاج لهذا..

تناولت بطاقة من بطاقات تعليم الحروف والكلمات للأطفال، وأشارت إلى صورة فراشة ثم أشارت إلى فمها وهي تضيف:

- ما معنى هذا؟

- يعني أريد أن آكل فراشة!

أومأت برأسها إيجابا، ثم قالت:

- ماكا ماكا فراشة!

نظرنا لها بتساؤل فأضافت:

- مثل الفراشة.. ليس الفراشة فقط أي نوع من..

- من الحشرات؟

- نعم.. أو الديدان.

## منى

قد تبدو هذه المهمة سهلة.. سهل أن تصيد بعوضة وأن تقتل حشرة لكن أن تحصل على كمية من الحشرات تملأ طبقا؟

وهذا طبق واحد، أي وجبة واحدة.. فما بالك ببقية الوجبات؟

لكننا حاولنا كل بطريقته. ليزا أخرجت شبكة صيد الفراشات وبعض المرطبانات وانطلقت في الحديقة تمارس هوايتها الأثيرة، هذه المرة من أجل هدف سام.

ماما تذكرت الصراصير المزعجة في المنور، التي لم تجدي معها أية مبيدات أو شركات ألمانية، وكذلك النمل الذي يعج به القبو، هذه هي الحشرات التي فكرت فيها. تسلحت بقفاز وحقيبة وعصا وشبشب وانطلقت في رحلة صيدها العجيبة.

بابا أخذ الفأس الصغيرة التي يسميها «المنقرة» مستعيدا أيام طفولته، حين كان يذهب مع جدي إلى أرضهم الزراعية في كفر العلو. انطلق إلى المساحة الأمامية الخضراء من الحديقة، المساحة الحالية المفروشة بالنجيل فقط. لم يكن يبحث عن شيء معين لكنه فكر أن الديدان والخنافس والصراصير وأية حشرات أخرى لن يجدها إلا في أرض زراعية بالتأكيد.. هكذا راح يقلب في الأرض واستخرج بعض الديدان بالفعل.. وبعد نحو الساعة كان قد جمع حفنة من الديدان وطارد بعض السحالي وانكفأ على وجهه في الطين وهو يحاول اللحاق بها..

أما أنا فقد خطرت لي فكرة. اتصلت بصديقتي القديمة نورهان التي دخلت كلية الطب. كنا قد تحدثنا معا عن خبراتها في السنة الأولى في الكلية وتجاربها في تشريح الضفادع وقبل ذلك في الحصول عليها. سألتها عن مورّد الضفادع الذي كانت تشتري منه، فقالت إن رقمه ما زال معها، فأخبرتها أن تتصل به وتسأله عن بعض الحشرات.. لا بد أنه يورد حشرات لطلبة أقسام الحشرات في كلية العلوم كذلك.

- حشرات؟ أي نوع من الحشرات؟

- لا أعرف.. أي حشرات كبيرة.. جراد.. خنافس.. صراصير..

- ماذا هنالك بالضبط يا منى؟

- فيما بعد سأخبرك.. المهم أن نحصل على الحشرات الآن..

عاودت نورهان الاتصال بي وقالت إن الرجل لديه بالفعل حشرات، لكن النذلة - نورهان لا الحشرات - لن تذهب إليه ولن تحمل هذه الأشياء، ولو كانت في صندوق مضاد للرصاص.

أعطتني رقمه وعنوانه. كان في المريوطية. طلبت منه في الهاتف أن يقابلني في الجيزة بالقرب من جامعة القاهرة، على أن أدفع له تكاليف المواصلات، فوافق وأحضر لي كيسين بهما تشكيلة من الحشرات. وأوصيته بالمزيد في اليوم التالي على أن يوصلها لي حتى البيت هذه المرة.

رجعت إلى البيت وأنا أشعر أنني أنقذت الموقف..

لكننا عندما اجتمعنا في المساء عند سيرين، كان بابا قد وجد حلا آخر. قال إنه يئس من استخراج الديدان بنفسه فأخذ السيارة وانطلق إلى محل أدوات الصيد ومنه اشترى الكمية التي لديه من الديدان (الطُعم)، وطلب المزيد غدا إن أمكن..

المهم أننا حصلنا على المطلوب، وصار لدينا ما يكفي سيرين لهذه الليلة على الأقل.

في هذه اللحظة وصل عمرو!

فتحتُ له الباب وأدخلته، فوجد هذا المشهد الذي لا بد أنه بدا له جنونيا. كانت ليزا تتناول جرادة، وتدسها في فم سيرين التي التهمتها ببساطة وراحت تمضغها في وهن.. صرخت ماما في ليزا أن تتوقف، وأصرت أن تغسل هذه الحشرات وتطهّرها.. انفجرتُ ضاحكة وأنا أرى منظر عمرو الذي وقف فاغر الفاه في بلاهة.. تبادلنا نظرة ساخرة أنا وبابا ونحن نكتم الضحك، ورحنا نراقب سيرين وهي تمضغ جرادة وتقرقشها.. عادت لها أمي بالحشرات والديدان، مغسولة وموزعة في نظام في أطباقنا البيضاء التي نأكل فيها، أمام عيني عمرو المذهولتين.

أخذته جانبا، وحاولت شرح الموقف له باختصار، لكن الأمر بدا أكبر من استيعابه.. كان ينظر لي وكأنني مجنونة.. أخبرته أن يصبر على أن أحكي له فيما بعد..

همّت ليزا بإطعام سيرين بيدها مرة أخرى لكن ماما سحبتها من يدها إلى المطبخ لتغسل يدها.. ذهبت معها وهي تسألها إن كان يمكنها أن تتذوق بعض هذه الحشرات

مع سيرين.. صرخت فيها ماما بحدّة، وحذرتها من مجرد التفكير في ذلك.. ليزا هذه ستصيب ماما بجلطة.. وكأنها كانت تنقصها!

وبعد قليل جاء صوت ماما تنادي بابا بانفعال، فهرع إليها ليرى ماذا هنالك.. رحت أنقل بصري بين عمرو وجسد سيرين الممدد على الأريكة، والباب الذي خرج منه بابا، ثم غلبني فضولي، وقلت لعمرو:

- ثوانٍ وسأعود..

وهرعت خلف بابا.

كانت ماما أمام تلفزيون الصالة، تشير إلى الأخبار التي كانت تعرض فيديو مسجلا لحادث هجوم مسخوط (أو مسخوطة) على بعض الطيور في حديقة الحيوان بالجيزة.. ثم ظهر بعدها فيديو سجلته كاميرات المراقبة، ظهرت فيه المسخوطة الفاعلة.. سيرين.

رحنا نشاهد بانتباه، ونحن لا نصدق.. وهتفت ماما وهي تشير إلى بابا:

- أرأيت؟ هذا.. هذا الشيء لا يمكن أن يبقى معنا أكثر من ذلك!

حاول بابا أن يهدئ من روعها، وتعلقت ليزا في ذراعها باكية.. تركتهم وعدت إلى غرفة الصالون، حيث سيرين وعمرو، عندما وجدت أمامي هذا المشهد..

كان عمرو واقفا بجوار جسدها الساكن، ويده ممدودة تحت ثوبها تعبث بجسدها.. كان يتحرش بها!

ياللقرف!

اقتربت منه فارتبك حين رآني وأبعد يده بحركة خاطفة..

تراجعت مبتعدة، فهرع خلفي وهو يهتف:

- منى.. منى.. انتظري.. سأشرح لكِ.

لم أنتظر، ولم أترك له فرصة للشرح. لم يكن الأمر يستدعي شرحا.

# عمرو

بيت عمي كان في حالة جنون تام. تخيل، كلهم خرجوا يبحثون عن حشرات لإطعام المسخوطة الجريحة التي كانت تهدد ابنتهم، بدلا من قتلها..

أبديت استنكاري لذلك، فقالت لي منى إنها ستشرح لي فيما بعد، وطلبت مني الصبر والانتظار هنا بجانب سيرين..

اقتربت من الجسد المسجى في حذر.. لم أقترب من أحدهم من قبل.. جسد أنثى كإناث البشر، برغم بشرتها الزرقاء وحجمها الصغير كحجم الأطفال.. عجبا!

اقتربت منها.. كانت ترتدي رداء من قطعتين، أشبه بقميص وبنطلون من قماش ناعم أملس، لا يخفي ملامح أنوثتها.. اقتربت منها.. هل جسدها كالبشر فعلا؟ مددت يدي ولمست بشرتها.. كانت ناعمة ملساء لينة.. أدخلت أصابعي تحت ثوبها أتحسس صدرها.. عندما دخلت (منى) في أسوأ لحظة ممكنة، ورأتني هكذا.

# فؤاد

أعتقد أن ذلك الفيديو يعطي انطباعا أسوأ مما هو في الحقيقة.. المشكلة أنك لو رأيت شخصا يأكل دجاجة أو طائرا ويقطعه بأسنانه ستشعر أنه همجي متوحش، فما بالك لو كان هذا الطائر نيئا غير مطبوخ.. وما بالك لو كان حيا؟ بالتأكيد سيبدو الأمر وكأن هذا كائن مفترس.. والأسوأ أن الفيديو كان في إضاءة ليلية منخفضة، والضوء المسلط على المسخوطة جعل عينيها تضيئان، مما أعطاها طابعا شيطانيا.. هذا انطباع ستجده على صورتك أنت نفسك لو التقطتها في مثل هذه الإضاءة.

هكذا فكرت وأنا أرى هذا المشهد، ربما لذلك لم أُصدم بما رأيت كما صُدمت نادية ومنى.. كنت هادئ الأعصاب أمام نادية التي انقلبت على سيرين مرة أخرى وقررت طردها برغم الخطر الذي يتهددها لو خرجت.

نظرت إلى عيني ليزا فوجدتها ترمقني في رجاء وتوسل.

تركت نادية تفرغ كل ما في جعبتها.. لم أعترض عليها، ولم أقاطعها، ثم سألتها بهدوء بعد أن انتهت:

- لن أسألك لماذا تريدين طردها، لكني كنت أود سؤالك عن سبب انحيازك لها من البداية.. لماذا فعلتِ كل ذلك لإسعافها وإنقاذها؟.. لماذا تشاجرتِ مع الجزار من أجلها؟

راحت تستفيض وتسرد أسبابا مختلفة للتعاطف معها.. وحين انتهت من كلامها ونظرت لي كنت قد أعددت كلماتي التالية بعناية:

- مشكلتنا معها إذن أنها تأكل الطعام نيئا!.. هل نقاطع اليابانيين إذن لأنهم يأكلون السوشي؟ لحظة.. أنت تأكلين السوشي أيضا!

فوجئَتْ بهذا المنطق وراحت ترمقني في حيرة وقد هدأت ثورتها. مدهش هذا الذي حدث. كيف استطعت امتصاص ثورتها بهذه البساطة؟ ولماذا لم أكن أفعل ذلك في خلافاتنا معا؟

***

أفقت من شرودي على وجه نادية التي كانت تنظر إلى شيء ما خلفي. استدرت فوجدت سيرين واقفة هناك تنقل النظر بيننا وبين شاشة التلفزيون في مشهد بليغ.. واضح أنها فهمت الموقف. كانت تنظر لنا في جمود، لكنني شعرت بنظرة لوم وعتاب في عينيها.. ربما حزن وخيبة أمل.. لست متأكدا.. أشارت سيرين إلى التلفزيون وأصدرت أصواتًا كالفرقعة، ثم ابتعدت.

اتسعت عينا ليزا في فهم ثم اقتربت منا وهي تعقد كفيها خلف ظهرها وتزم شفتيها في توعد وقالت لنا وكأننا تلميذين في فصلها:

- هذه التي رأيتموها في الفيديو ليست سيرين.

تبادلنا نظرة خجلى أنا ونادية..

- حقا؟ ليست هي؟

- طبعا ليست هي.. هذا واضح.

سألتها نادية:

- سيرين هي التي قالت هذا؟

- ليست بحاجة أن تقول هذا واضح.. قلت لكما!

كررت نادية سؤالها بإصرار:

- هي التي قالت هذا؟

- نعم قالت إنهما من عرقين مختلفين أصلا وهذا واضح، فسيرين سوداء بينما هذه التي في الفيديو بيضاء!

- حقا؟ ليس لديها أدنى فكرة أنهم كلهم زرق؟

طقطقت ليزا بلسانها محذرة وقالت:

- تؤ تؤ يا ماما.. هذه عنصرية.. لا تتكلمي عن ألوانهم!

ضحكتُ برغمي، فرمقتني نادية شذرا.. أمسكت بكتفي ليزا في اعتزاز وقلت وقد راودتني فكرة:

- أنت عبقرية يا ليزا.. المفتاح عندكِ أنت!

# عمرو

بيت عمي فؤاد..

هذا البيت الحبيب كان يمكن أن يكون بيت أبي.. لولا النصيب..

وكان يمكن أن أعود له ويصير بيتي - أو بيت زوجتي - لولا ما حدث..

عمي فؤاد كان هو الأصغر بين أخوته، أولاد جدي أمين أبو ضيف، فبعد عمتي يسرية وعمتي فوقية كان أبي مبروك، ثم عمتي سعاد، ثم عمي فؤاد أصغرهم. الوحيد الذي سلك طريق التعليم وأفلح فيه، بينما أبي أخذ صنعة تجارة الخردة عن جدي أمين، وعمل معه منذ طفولته..

جدي أمين كان رجلا أسطوريا، كان تاجرا ماهرا بدأ من الصفر مكونا ثروة كبيرة من تجارة الخردة، حتى قيل إنه اشترى فدادين من الأراضي الزراعية الخصبة في الصف وغمازة والمرازيق وحكر التبين، وامتلك عدة بيوت وفيلات في حلوان والمعادي، لكن يقال كذلك إنه كان ابن حظ يحب السهر ويعشق النساء، ويقال إنه ضيّع معظم ثروته على النساء، أكثرها في أواخر حياته، على زوجة شابة أصغر منه بعمر كامل أكلت عقله وتزوجته، واستولت منه على الكثير من ممتلكاته.. ولم يبق من ميراثه لولديه مبروك وفؤاد إلا تجارة الخردة وبيت حلوان الذي أخذه عمي فؤاد راضيا، تاركا تجارة الخردة ورأس مالها والمخزن ومقلب الخردة الكبير بالكامل لأبي، وأخوته البنات.. وقتها لم يكن أبي يصدق مدى سذاجة

وغباء عمي فؤاد الذي رضي بالبيت فقط وترك كل هذه التجارة، فوافق وتم التقسيم على أن يراضي أبي عماتي بحصصهن في التجارة. وحصل عمي فؤاد على هذا البيت الكبير، الفيلا الواسعة ذات الحديقة الكبيرة، التي كان يمكن أن تكون لنا، لولا النصيب..

ثم حدث ما حدث..

لماذا فعلتُ ذلك؟ لا أدري.. لم أتمالك نفسي.. لا عجب أن هذا الكائن سحر ليزا وسيطر على عقلها.. هكذا فعلت معي.. هذه شيطانة.. أفعى ملعونة..

بعد ما حدث لم أجرؤ على المغادرة قبل أن أتحدث مع (منى)، لكنها ابتعدت ولم تعطني فرصة، واختفت.. ظللت أنتظرها حتى تأخر الوقت، فاضطررت للنهوض، وخرجت متثاقلا.. وعند الباب سمعت صوتها تناديني.. استدرت لها في لهفة، لكنها قالت ببرود:

- لا أريد أن أراك مرة أخرى.

قالتها وابتعدت.

ولم أستطع العودة مرة أخرى.

طردتني منى من جنّتي الموعودة. طردتني بسبب تلك الشيطانة.

# فؤاد

أخذتُ ليزا وجلست معها ومع سيرين لأرى كيف نتواصل معها.

في ذلك الوقت كان ما فعلناه مع سيرين سبقا عالميا حقيقيا.. العالم كله لم يكن يدرك بالضبط من هم المساخيط أو من أين جاءوا، (وقتها لم يربط أحد بين ظهور المساخيط وبين الكرات البيضاء، واقتصرت النظريات على احتمالية كونهم طفرة جينية ما، أو حتى كائنات مُخلّقة معمليا بواسطة بشر).. وعليه فإن أغلب الناس افترضوا حتى ذلك الحين أن هذه كائنات غير عاقلة أو منخفضة الذكاء مثل بقية الحيوانات، وبالتالي فإن مسألة اللغة والتواصل مع المساخيط لم تكن مطروحة أصلا.

وحتى المحاولات العلمية البسيطة التي أجراها بعض الباحثين كانت محاولات لاستنباط لغة المساخيط بطرق كانت تستخدم عادة مع الحيوانات، مثل تصويرهم خفية وهم يتفاعلون وتسجيل أصواتهم ومحاولة تحليلها واستخلاص بعض الكلمات أو الأنماط الصوتية أو الإشارات الحركية.. وكلها محاولات لم تصل إلى شيء يُذكر.

انبهرتُ حقا عندما رأيت كيف نتواصل ليزا مع سيرين. والحق أن ما تفعله كان مبهرا فعلا، على الأقل بالنسبة لما وصل إليه العالم وقتها. ورغم ذلك كان بسيطا جدا.. كانت ليزا تستخدم التابلت وبالتحديد تطبيقات تعليم

المفردات للأطفال للتواصل مع سيرين.. وبهذه الطريقة تعلمت ليزا المفردات الأساسية بلغة المساخيط: الأشكال والألوان والأرقام، وكلمات أساسية مثل: أرض، سماء، شمس، بيت، طعام،.. إلخ..

عرفتُ أن أشياء مثل الفواكه والخضراوات يُشار إليها في لغة المساخيط بكلمة واحدة، معناها أقرب إلى «نبات» أو «ثمار الأرض».. ومن خلال الأسماء تعلمت سيرين منها كذلك كلمات الإشارة هذا هذه، بمجرد ترديدها عند الإشارة إلى أي شيء.. طريقة بسيطة لكنها عبقرية. هكذا يتعلم الطفل اللغة في بداية حياته.. بل هكذا علم الله آدم اللغة بداية من تعليمه الأسماء كلها.

بعد ذلك يأتي دور الأفعال.. لا أعرف كيف تعلمتها ليزا.. سألتها:

- كيف عرفتِ منها كلمات مثل يأكل، يشرب، يرسم، ... ؟

فقالت ببساطة:

- «من الصور».

وأشارت إلى صورة لولد يأكل. قلت معترضا:

- ومن أدراكِ أنها لن تفهم «هذا ولد» أو «هذا قميص» أو «الولد جائع» مثلا؟

ضحكت وأظهرت المزيد من الصور فيها امرأة تأكل و فتاة تأكل.. إلخ..

- عبقرية يا ليزا.. عبقرية!

حاولت أن أتعلم بعض الكلمات من ليزا، لكنها كانت تقول إنني لا أُحسن نطقها.. راحت تشير لحلقها وهي تقول:

- من هنا.. اسمع..

ثم تفتح فمها فلا أسمع شيئا!

أشارت إلى سيرين التي فعلت المثل كانت تفتح فمها وتنظر للأعلى في بلاهة وأنا أنتظر فلا أسمع أي شيء!

في البداية ظننت أنها تخدعني أو تسخر مني، ثم خطر لي خاطر فسجلت هذه الأصوات بتطبيق على الموبايل وفتحته ببرنامج تحرير الأصوات على الكمبيوتر فوجدت أمامي صوتا مسجلا.. لكنني ما زلت لا أسمعه!

فهمت أن لديهم بعض الأصوات بترددات لا نسمعها.. كما هو الحال عند البشر.. الفيلة تصدر أصواتا لا نسمعها نحن.. وحتى الأطفال، يمكنهم سماع ترددات لا يسمعها من أهم أكثر من 18 عاما.. لا بد أن هذا هو ما يحدث معي هنا.. بينما ليزا لأنها طفلة فإنها تسمع ما لا أسمعه، فضلا عن أن قدرتها كطفلة على تعلم اللغات أكبر بكثير، ولذلك استطاعت تعلمها من سيرين بسرعة.. هذه القدرة السحرية عند الأطفال على تعلم اللغات التي تشعرنا نحن الكبار بالغباء. الطفل لا يحتاج إلا إلى بعض الأشخاص المحيطين به يتكلمون هذه اللغة معه وأمامه لبضعة أعوام، فيلتقطها منهم ويتحدث بها مثلهم.

وليزا تعلمت بعضا من لغة المساخيط بهذه الطريقة..

وهكذا، استخدمتُ ليزا كمترجمة، وأمكنني أن أتواصل

مع سيرين بعض الشيء. ومع ذلك لم يكن هذا كافيا.. ليزا كانت قادرة على تعلم ونطق بعض الجمل والكلمات رغم الصعوبات الصوتية، لكنها طفلة في النهاية.. سألتها إن كانت سيرين قد استطاعت تعلم الكثير من اللغة العربية فقالت إنها فعلت، لكن سيرين عندما نطقت أمامي بعض الكلمات أدركتُ حجم المأساة.. راحت مثلا تقول شيئا ما، وتكرر صوتا بعينه مرات ومرات وأنا لا أفهم ماذا تقصد به، وبعد عناء ومحاولات تبين أن هذا الصوت تقصد به «أهلا وسهلا»!

سيستغرق الأمر دهرا هكذا، حتى مع استخدام وسائط مثل الكتابة والرسم والصور..

ثم خطرت لي فكرة.. وسيلة أخرى للتواصل.

فتحت هاتفي ورحت أبحث بين الأسماء المسجلة عن اسم بعينه، وأنا أفكر في أن الأفكار العبقرية حقا قد تكون هي أبسطها.. وقبل أنا أطلب الرقم وجدت رقما يتصل بي.. رقم قديم لم أتوقع أن يتصل بي قط.

# فيديو يكشف العلاقة بين المساخيط والكرات البيضاء

**خبر صحفي - وكالات**

مقطع فيديو انتشر عالميا قام فيه مدون فيديو ألماني شهير بمراقبة أحد المساخيط وهو يخرج من المدينة متخلصا من الرقابة، ويحفر حفرة ويخرج منها كرة بيضاء، في إحدى الغابات المجاورة.

وتداول مستخدمو مواقع التواصل الاجتماعي بكثرة، الفيديو الذي أعاد إلى الأذهان ظاهرة الكرات البيضاء المجهولة التي ظهرت على شواطئ عدد من المدن الساحلية منذ عدة أعوام.

ولقي الفيديو مشاركة واسعة من رواد مواقع التواصل الاجتماعي، حيث أشار العديد منهم إلى أنه دليل على وجود علاقة وثيقة بين الكائنات الزرقاء وهذه الكرات البيضاء الغامضة التي ظهرت على الشواطئ من قبل.

من جهته، توصّل فريق بحثي تابع لجامعة برلين قام بتحليل الكرات الصغيرة، إلى أن كل واحدة من هذه الكرات تحتوي على تجوتين، إحداهما «بيضة» لكائن غير معروف، والأخرى تحوي جهازًا إلكترونيًا كرويًا صغيرا، أقرب إلى الروبوت، يُرجح أنه مبرمج على برنامج محدد لرعاية البيض.

# وائل نصيح

أنا وائل نصيح.. أول الدفعة والطالب المثالي وأشهر طالب في كلية الإعلام وربما في جامعة القاهرة كلها.. وأنا وائل نصيح المدون المعروف..

والآن وائل نصيح الشاب الوسيم، نجم الجامعة.. تخرج، وفقد كل هذا!

بعد التخرج اختلف كل شيء. سقطت كل القصور التي بنيتها في أحلامي، والتي كانت في عقلي حقيقة واقعة أراها بعيني. كان مستقبلي واضحا مرسوما أمامي، سأُعيّن معيدا في الجامعة، وأصير نجما في هيئة التدريس ثم في الصحافة المصرية والإعلام العربي بعد ذلك.. الطريق مفتوح أمامي ولا شيء يمنعني من أن أظل الأول والأفضل كما كنت دائما. لكنني تخرجت. وبعد التخرج لم أعين برغم أنني كنت الأول على دفعتي كالعادة. هكذا ببساطة لم أعين.. قالوا شيئا عن الدرجات الوظيفية المتاحة وميزانية الكلية في هذا العام.. اعتبارات اقتصادية ومعادلات رقمية كلها تآمرت على وائل نصيح لتهدم قصوره وتنزله من عليائه من فوق منصة «الأول» العالية التي ينظر للآخرين من فوقها طوال الوقت..

الآن صرت مثل الآخرين.. معهم وبينهم. الآن اكتشفت أن الحياة ليست سهلة كما كنت أظن. اكتشفت أن الآخرين ليسوا كسالى يبررون فشلهم بصعوبة الحياة والظروف..

وقفت في طوابير الوظائف مثل الآخرين، لأجد أن

ترتيبي ولقب «الأول» هذا لا قيمة له هنا.. في سوق العمل هناك عملات أخرى يتداولونها.. هناك الخبرة السابقة والعلاقات والواسطة والفلوس..

وأنا بلا واسطة ولا خبرة ولا فلوس.. أسرة متوسطة أخرى أقصى ما لديها فعلته من أجلي: تعليمي. وهذا كل شيء يقدرون عليه. كنت أظن هذا يكفي، كنت أظن أنهم أعطوني كل شيء أحتاجه ثم تخرجت واكتشفت أنني أحتاج إلى المزيد.. هل لديك ملايين في البنك يا أبي؟ هل لدينا أقارب مهمون يا أبي؟ هل لديك شقة إضافية يا أبي؟ ماذا عن العلاقات و«الكوسة» يا أبي؟

لا أعرف، ربما كنت متشائما وقتها.. ربما فقط هناك زيادة في العرض ونقص في الطلب.. أنا مجرد رقم زائد عن الحاجة في عدد الخريجين تحت بند (العرض).. كلنا أمام الرقم المحدود لبند (الطلب) سواء.. كلنا أرقام رخيصة أمامه.. لا نتوقع مرتبا أو وظيفة مستقرة أو دخلا معقولا.. لدينا منك الكثير..

بعد أن أضعت الكثير من الوقت أتخبط فيه بين الإحباط واليأس والتذمر، رضخت في النهاية وقررت أن أكون واقعيا.. قبلت بالعمل محررا بالقطعة في صحيفة متواضعة..

لا تنتظر دخلا ولا مرتبا حقيقيا.. هذه وظيفة أشبه بالتدريب.. لكنها أتاحت لي الفرصة للدخول إلى هذا العالم الجديد والتعرف على قواعده.. يمكنني أن أصير «الأول» مرة أخرى.. الاجتهاد هنا مختلف لكنني قادر عليه.. هكذا رحت أجتهد في البحث عن أفكار

وموضوعات متميزة وفي بناء علاقات.. لم يكن الأمر سهلا.. كنت بحاجة إلى دفعة للأمام.. قفزة صحفية أتصدر بها المشهد.. انفراد من النوع الذي تتناقله الصحف من بعضها.. عندها سيرتبط اسمي به، وبقدر شهرة الموضوع ستتصاعد شهرتي ويعلو اسمي في هذا العالم الجديد..

والآن، وبعد كل هذه السنوات من العمل الصحفي أصبحت نائب رئيس تحرير الجريدة التي أعمل بها.. ما رأيكم؟

بالنسبة لطموحي أنا فهذه قمة الفشل. أنا وائل نصيح.. قدراتي تؤهلني لأن أكون الأول والأفضل والأشهر دائما.. لكنني أضعت كل هذه السنوات في العمل الإداري وفي الكتابات الصحفية الروتينية، فلم أحقق شيئا بعد.. ولو ظللت هكذا فسأستمر في إهدار قدراتي وسأدفن أنا وطموحاتي معي وسط هؤلاء المغمورين.. يجب أن أفعل شيئا.

# سقوط نيزك متوهج وسط البحر المتوسط

## خبر صحفي من الأرشيف

سقط أمس الأول الجمعة نيزك في وسط مياه البحر المتوسط. في مساء الجمعة الماضية شوهدت كرة نارية لامعة في السماء ثم اختفى نورها فوق منطقة البحر المتوسط، الأمر الذي يرجح سقوطها في مياه البحر. وتشير التقديرات إلى أن هذه الكرة النارية عبارة عن نيزك متوسط الحجم وليست شهابا، وقد ظهر النيزك في البداية بلون أزرق، ما يعني أن درجة حرارته مرتفعة وترك في السماء حزمة لامعة من الغبار في خط سيره في الفضاء، وشاءت العناية الإلهية أن يسقط هذا النيزك في منطقة غير آهلة بالسكان مثل البحر المتوسط، دون أن يتسبب بأي أضرار أو إصابات.

وعن الآثار المتوقعة لسقوط النيزك في البحر المتوسط أوضح الدكتور نوح إبراهيم أستاذ الجيولوجيا بكلية العلوم جامعة القاهرة أن النيازك هي قطع صخرية تسقط على الأرض نتيجة تفتت بعض الكويكبات أو المذنبات التي تسبح في الكون ولها أحجام مختلفة تتباين من حجم حبات الرمل إلى حجم الصخور الكبيرة..

## وائل نصيح

وجدت ضالتي. كنت أبحث في أرشيف الأخبار، حتى تكونت لديّ نظرية بخصوص هذا الكائنات.. لو أمكنني أن أثبت صحة نظريتي فلسوف يختلف كل شيء. هكذا رحت أجمع أخبار ظهور هذه الكائنات من خلال الوقائع المسجلة والأخبار المتتالية من مختلف المصادر حول العالم، وعثرت على أخبار تشير إلى رصد ظهور كرات مماثلة في مدن ساحلية أخرى، منها السويس والغردقة ومرسى مطروح وطابا ورأس الخيمة وصيدا وحيفا وطرطوس ووهران وطنجة و مرسيليا وجنوة وفالنسيا.

وضعت كل هذا على خريطة واحدة كبيرة، أظهرت لي أن البؤرة التي ترجع لها بداية كل هذه الحالات هي نقطة بعينها في البحر المتوسط. وقادني هذا إلى بحث آخر في أرشيف الأخبار حول أي أخبار تتعلق بهذه المنطقة في الفترة السابقة لظهور الكرات البيضاء، أي منذ عامين أو قبل ذلك.. كنت أبحث عن أي خبر غريب مثير للريبة.. هذه أشياء لن يساعدك جوجل فيها للأسف. لكنني وصلت في النهاية إلى خبر قديم مر علي الجميع، ولم يربط أحد بينه وبين كل هذا.. لو صح ما أفكر فيه فسوف أكون صاحب الفضل في كشف طريقة ظهور هذه الكائنات.

المشكلة أن الأمر كان يتطلب إمكانيات كبيرة، ربما ليست متاحة في مصر أصلا. قلبت في ذاكرتي، وتذكرت.. أعرف من يمكن أن يساعدني بالضبط.. صوفي دولاك!

هكذا قررت الاتصال بصوفي، الصديقة الفرنسية القديمة،

الباحثة التي كانت تدرس الجيوفيزياء، وجاءت مصر لتدرس اللغة العربية أيام الجامعة.

لم يكن لديّ وسيلة اتصال بها، لكنني كنت أعرف من لديه.

فؤاد أبو ضيف.

# فؤاد

وائل نصيح!

طبعا أعرفه وأتذكره.. ومن لا يعرف وائل نصيح؟

كل طالب في جامعة القاهرة في ذلك الوقت كان يعرف وائل نصيح.. طالب كلية الإعلام الأول على دفعته وعلى كل الدفعات، والأول على كليته وكل الكليات، صديق الأساتذة وطالبهم المفضل، والطالب المثالي في الجامعة، والشخصية الأبرز في كل الصحف والمجلات المطبوعة في الجامعة.. بل إن شهرته هذه لم تكن في الجامعة فقط وإنما كان يحظى ببعض الشهرة خارج مجتمع الجامعة أيضا، إذ كان من أوائل المدونين المشاهير في ذلك الوقت، (وفيما بعد ومع ظهور مواقع التواصل الاجتماعي صار طبعا أحد أشهر المؤثرين).

وفوق كل هذا فهو وسيم كأبطال الأفلام، فلماذا لا يكون حلم كل فتاة في الجامعة ومثار غيرة كل شاب في الجامعة؟

هل أعرف وائل نصيح؟

طبعا أعرفه.. السؤال هو كيف عرفني وائل نصيح؟

في تلك الأيام كنت في السنة الأخيرة في كلية الحقوق، وكنت أحاول إقناع نفسي بتقبل هذا التخصص، والتعمق فيه بحب، حتى أنني قررت دراسة اللغة الفرنسية، وبالفعل انتظمت في دورات المركز الثقافي الفرنسي، ورحت أتخطى مستوى بعد الآخر في حماس، حتى أنني

بعد ما يقرب من ستة أشهر فقط من الدورات المكثفة كنت قادرا على إجراء محادثات لا بأس بها بالفرنسية.. ثم سجلت اسمي في المعهد، في برنامج التبادل اللغوي.. وهو برنامج يوصل الطلاب متعلمي اللغة الفرنسية من المصريين مع نظرائهم من متعلمي اللغة العربية الفرنسيين. وهكذا قابلت صوفي.

كانت تدرس اللغة العربية في فترة تواجدها في مصر (دون أن تكون مضطرة لهذا!) في المركز الثقافي الفرنسي، برغم أن مجال دراستها الأساسي هو الفيزياء والجيولوجيا.. على ما أذكر (أخبرتني بهذا حين كنا نتدرب على الحديث بالفرنسية، فلم أفهم بدقة، ولم أهتم كثيرا، فلم أستوضح منها!).

في ذلك الوقت كانت علاقتي بنادية ما زالت في المرحلة الصامتة.. مجرد زميلين في الجامعة.. صحيح أنني نجحت في التقرب منها والتحدث معها، لكن هذا هو الإنجاز الوحيد الذي كنت قد قمت به قبل أن تترك هي كلية الحقوق كلها بعد سنة واحدة، وتحوّل أوراقها إلى كلية التربية النوعية.. وقتها حاولت أن أثنيها عن هذا القرار بسذاجة، وأنا أحاول أن أخفي دافعي الحقيقي وراء ما أقول، وقتها ضحكت نادية وقالت:

- صح، كان الموضوع ينقصك!

ثم أمام وجهي الذي احمرّ وتصبب عرقا، لطفت من لهجتها وقالت إنها نجحت بصعوبة في مواجهة أهلها وإقناعهم بالسعي وراء ميولها الفنية بدلا من كلية الحقوق التي لن تفيدها بشيء..

بعدها صارت تتردد علينا في الجامعة بين محاضراتها، خاصة وأن كلية التربية النوعية التي تدرس فيها كانت في الدقي، أي قريبة من الحرم الجامعي.

فعلى الأقل لم ينقطع الاتصال بيننا، لكنني صرت مجرد واحد آخر من «مجموعة زملاء الكلية القديمة»، الذين تأتي لتقابلهم.. ولو انتظرت أكثر فسيمر هذا العام وأتخرج وتنقطع الصلة، فلا أظن أنني سأجرؤ على أن أذهب لها هناك عند كليتها..

كنت أريد أن أقترب منها أكثر.. أريدها أن تعرف بمشاعري بشكل ما..

وقتها كان الأمر صعبا علي.. لا أدري من أين أتتني تلك الفكرة الحمقاء.. وفيمَ كنت أفكر وقتها؟

المهم أن هذا ما فعلته.. خططت ودبرت واصطحبت صوفي معي إلى الجامعة، في اليوم الذي كنت أعرف أن نادية ستأتي فيه.. هل أردت أن أستعرض قدرتي على التحدث بالفرنسية أمام نادية؟

هل كنت أحاول إثارة غيرتها؟

ربما.. لم تكن الخطة واضحة في ذهني.. المهم أنني فعلتها..

والغريب أن نادية أدركت ما يحدث. عندما رأتني مع صوفي، رمقتنا بنظرة دهشة، ثم أقبلت بابتسامة خبيثة وسلمت عليّ وطلبت مني أن أقدم لها «الآنسة».

ولم أتمكن حتى من استخدام مهاراتي الجديدة في اللغة

الفرنسية، فقد سبقتني صوفي وراحت تتحدث معهم بالعربية الفصحى المكسرة التي بدت لهم طريفة، بلكنتها الفرنسية المحببة.

لكنتها هذه وشعرها الذهبي اللامع وعيناها الزرقاوان، هِم من قلبوا الدنيا علينا.. وتجمع الطلاب حولنا، يسألون «مَن هذه؟» ويحاولون التعرف عليها.. وتصادف أن مر بجانبنا وائل نصيح.. فتوقف هو الآخر مثل الباقين، وبادر صوفي بالتحية بلغة فرنسية سليمة.

وائل نصيح يعرف كل شيء.. وائل نصيح يتذكر كل شيء درسه في المدرسة الثانوية، بما في ذلك دروس اللغة الفرنسية التي لا يتذكر أحدنا منها كلمة.. وائل نصيح ليس مثلنا.

لم يكن هذا ما أزعجني وقتها، وإنما تلك النظرة التي رمقته بها نادية وهو يقترب.. نظرة سعادة وكأن أحد أحلامها قد تحقق للتو.

انخرط في حوار مع صوفي بالفرنسية، انقلب بعدها إلى الإنجليزية مع تدخل نادية في الحوار، بينما بقيت أنا صامتا واجما وقد انقلبت الدنيا فوق رأسي.

لم أكن أعرف وقتها أن خطتي قد نجحت بطريقة لم أكن أتوقعها.

انصرفوا جميعا واحدا بعد الآخر، وبقيت أنا وصوفي ونادية.. بدأت الشمس تبتعد وتتخضب بالمزيد من درجات اللون الأحمر، مفسحة المجال لنسمات الهواء الباردة لتداعب وجوهنا.. فنهضت صوفي وأخذت نادية

جانبا وهمست لها بشيء ثم رمقتني بابتسامة غامضة وسلمت عليّ وانصرفت.

وجدت نفسي وحيدا مع نادية ربما لأول مرة.. ربما لأول مرة تلتقي عينانا بهذا العمق.

سألتها:

- ماذا قالت لك صوفي؟

قالت بالابتسامة نفسها:

- قالت لي شيئا أعرفه بالفعل.

- وما هو؟

- ألم تكن تنوي أن تنطق أبدا؟

- أنطق بماذا؟

- أنا أعرف!

- تعرفين ماذا؟

نقرت بسبابتها على جبهتي وقالت:

- أعرف ماذا يدور هنا..

نقرت على صدري وأضافت:

- وهنا.

- حقا؟

- طبعا.. صوفي نفسها عرفت، وهي التي لم ترني من قبل.. أنت مفضوح يا أستاذ!

- إحم.. فعلا؟ وما.. أعني.. ماذا..؟

قاطعتني وأنقذتني من صراعي مع كلماتي، وقالتها:

- وأنا أيضا.. أحبك!

كانت تلك أسعد لحظات حياتي على الإطلاق. اللحظة التي تحقق فيها الحلم وهبطت النجمة وصار المستحيل حقيقة.. ملكي.. بين يدي.

نسيت صوفي ونسيت وائل ونسيت كل شيء، وذبت معها في عالمي الجديد.. تغير كل شيء.. حياتي كلها صارت لها هي.. نادية.

والآن، وبعد كل هذه السنوات، لماذا يتصل بي وائل؟

أنا أتذكره طبعا، لكن كيف تذكرني هو؟

أجبت المكالمة في حذر.. تحدث بلباقته المعتادة.. رحت أسمعه في صمت، وأنا أفكر في أنني لم أعد أكرهه كما كنت أيام الجامعة.. لا.. ولا كنت أكرهه أيامها.. كنت أغار منه، وهذا طبيعي ومفهوم.

أيقظني من شرودي مفصحا عما يريد.. صوفي مرة أخرى.. يريد طريقة للاتصال بها!

محظوظ هو، لو كان قد طلب هذا أيام الجامعة لكنت قد رفضت بعد أن أُذلّ أنفاسه، لكنني الآن لم أعد أبالي.. أعطيته بريدها الإلكتروني، ولم أسأله حتى عن السبب.. لكنني عرفت بعدها.. كل الناس عرفت من الأخبار.

# بعثة علمية لاستكشاف آثار نيزك البحر المتوسط، بمشاركة صحفي مصري

**خبر صحفي - وكالات**

وصلت سفينة البحوث العلمية الفرنسية «موند بلو»، في الثاني من يوليو الجاري، إلى منطقة سقوط النيزك بالبحر المتوسط، تمهيدا لبدء التحقيق في النيزك الذي سقط في البحر المتوسط منذ ستة أعوام.

وقال وائل نصيح الصحفي المصري المرافق للبعثة إن تواجده مع البعثة يأتي في إطار تحقيق استقصائي واسع النطاق يجريه حاليا، يستهدف تفسير بعض الظواهر التي حدثت مؤخرا، والكشف عن مصدرها، مؤكدا أنه سينشر نتائج التحقيق في مصر فور التأكد من الحقائق.

وقالت الباحثة الفرنسية صوفي دولاك إنه وبالنظر لأهمية هذا النيزك فقد تم إرسال بعثة علمية مكونة من باحثين وطلبة من شبكة «فريبون» FRIPON، الفرنسية المهتمة باسترجاع الشهب، ورَصْد ما بين الكواكب، إلى مكان سقوط النيزك بأجهزة حديثة للكشف عن بقايا هذا النيزك التي قد تكون متواجدة في أعماق البحر المتوسط، مشيرا إلى وجود احتمالات تسعى البعثة لدراستها بوجود تأثيرات مباشرة لهذا النيزك بالتحديد أدت إلى ظواهر حدثت لاحقا في بلدان دول حوض البحر المتوسط وغيرها من البلدان، من شأنها التأثير على حياة البشر.

# السيدة التي صنعت تريند (المساخيط) في مصر

## خبر صحفي

«المساخيط» اسم تصدر التريند في مصر وبعض البلاد العربية الأخرى، حيث تداوله رواد مواقع التواصل في منشورات وكوميكس ساخرة (ميمز) تحت هاشتاج #المساخيط الذي تصدر التريند على منصتي فيسبوك وتويتر، ولكن ما هو الفيديو الأصلي، وما سر ذلك الاسم؟

البداية كانت حلقة للمذيع الشاب أحمد رأفت، الشهير بـ»مذيع الشارع»، والتي قام بتصويرها مع بعض المواطنين، وتعرض الحلقة الإجابات وردود الأفعال المضحكة لهم، بعد سؤالهم عن رأيهم في حقيقة الكائنات الزرقاء التي ظهرت مؤخرا، وتعددت التكهنات والإجابات الساخرة، فنهم من أشار إلى أن هذه الكائنات تشبه «السنافر» إشارة إلى لونها الأزرق، والبعض اعتبرها سلالة من القردة لكنها زرقاء، والبعض أشار إلى «ميمز» غريبة تطلق عليهم «الفضائيين» أو Aliens، استنادا إلى بعض النظريات التي ترددت مؤخرا في الغرب تتكهن بوصولهم من الفضاء الخارجي.

أما المقطع الذي حظي بالاهتمام الأكبر من المتابعين فكان لقاء مذيع الشارع مع سيدة ستينية، حيث سألها إن كانت قد رأت «الكائنات الفضائية»، وعرض عليها بعض الصور لهم. فعلقت السيدة بتلقائية:

- كائنات فضائية؟.. لا قرون ولا دماغ كبيرة ولا لونهم أخضر.. دول مساخيط!

وتحول هذا المقطع بالتحديد إلى «تريند» ومادة للميمز المصرية المعروفة بالـ» كوميكس»».

وتخطى «مذيع الشارع»، بحلقته الأخيرة ستة ملايين مشاهدة على موقع الفيديوهات العالمي «يوتيوب»».

# فؤاد

هكذا جلس مصطفى خليفة، أخصائي التربية الخاصة، بيني وبين سيرين، في غرفة المعيشة، يعلمنا لغة الإشارة بالطريقة الصعبة.

كان مصطفى من أصدقاء طفولتي، ثم فرقتنا السبل. كنا نلتقي أيام المدرسة الإعدادية بانتظام نلعب كرة القدم مع العيال في الشارع.. وكبرنا وتوقفنا عن لعب الكرة، وصرنا نلتقي نادرا، بالمصادفة أو في مناسبات مشتركة مثل أفراح الزملاء والمعارف.. وخلال هذه المرات عرفت أن مصطفى تخصص في التربية الخاصة وعرفت بعدها بفترة أنه سافر إلى الكويت عدة سنوات للعمل.. ثم قابلته مرة بالمصادفة بعد عودته، وتبادلنا أرقام الهواتف، لكننا لم نتحدث بعدها.. حتى تذكرته عندما وانتني هذه الفكرة..

سألته أولا عن إمكانية تدريس لغة الإشارة لشخص ليس لديه معرفة باللغة العربية أو الإنجليزية، فقال إن هذا ليس عائقا فهذا هو الطبيعي والمعتاد أصلا.. المشكلة تكون عادة في نسبة الذكاء.

اندهش عندما أخبرته أن الشخص الذي أريد منه تعليمه لغة الإشارة هو أحد المساخيط. قال إنه لم يقابل أحدهم من قبل لكنه سمع عنهم وكان بصراحة يظنهم أقرب إلى الحيوانات.. لم يكن يعرف أنهم أذكياء إلى درجة أنهم يمكنهم تعلم لغة.. لكنه لم يكن يمانع من التجربة خاصة أنني أصررت على دفع أجر هذه الجلسات.

كانت جلسات يومية مكثفة حضرتها مع مصطفى

أنا وسيرين وأحيانا ليزا، التي كان وجودها مفيدا حقا لمصطفى في التواصل مع سيرين.. كنا نتعلم لغة الإشارة المصرية، وقال مصطفى إن تعلم الأساسيات قد يستغرق نحو ستة أسابيع.

(منى) أيضا بدأت تهتم وتتعلم معنا كذلك. أسرة كاملة تتعلم لغة الإشارة، دون أن يكون من بيننا أحد ذوي الهمم. إلا نادية، لسبب ما رفضت أن تنضم إلينا، ولسبب ما ارتحت أنا لذلك.. كانت تكتفي بأن ترمقني بنظرات جافة محبَطة.. وكأنني خيبت أملها في شيء ما.. لم أفهم هذه النظرات ولم أفهم موقفها هذا.

وكأية لغة نتعلمها، كنا بحاجة إلى التدريب المستمر.. كلفنا مصطفى بمحادثات يومية لممارسة اللغة، لهذا كانت جلسات المحادثة المسائية بيني وبين سيرين.. كانت فائقة الذكاء وتعلمت أسرع مني بكثير.

وفي محادثاتنا هذه بدأ التواصل الحقيقي بيننا.

كان لديّ الكثير من الأسئلة عن المساخيط.. من هم؟ ومن أين جاءوا؟ وماذا يريدون منا؟

سألتني هي عن الكثير من الأمور العجيبة التي لم تفهمها في ثقافة البشر.. أمور مثل التفريق بين الذكور والإناث، وأشياء سمعتها من ليزا ولم تفهمها: ما المشكلة في تأخر البنت في الخارج؟ ما هي مهنة الراقصة؟ ولماذا هي ليست جيدة؟.. سألتني عن معنى الحسد، ومن هو الشيطان؟ وما معنى الأشباح والعفاريت؟ هذه أشياء ذكرتها لها ليزا ولم تفلح في شرحها.

ثم حكت لي هي عن كوكبها وعن المساخيط وعن ثقافتهم. حكاياتها كانت عجيبة.. وشيئا فشيئا بدأت أفهم من هؤلاء بالضبط وكيف جاءوا إلى هنا ولماذا.. أفهم ثقافتهم وطريقة تفكيرهم. وفي عقلي بدأ كل شيء يختلف.. بدأت أرى الأمور من منظور جديد تماما.. بدأت أرى الصورة كاملة، وبدأت أفكر لو أن هذه المعرفة وصلت لكل الناس.. لو أنهم جميعا عرفوا ما عرِفت.. لو أنهم رأوا الصورة كاملة كما رأيتها أنا.. لو عرفوا مَن هؤلاء حقا وكيف يفكرون، لاختلف كل شيء حتما..

حينها شعرت أن هذه مهمتي أنا بالذات. عليّ أن أنقل هذه الصورة بأمانة.. ستكون هذه رسالتي.

ومع استمرار جلساتي مع سيرين كنت أعرف أكثر وأنبهر أكثر.. وراح الأمر يزداد صعوبة.. كيف سأشرح كل هذا؟ ومن سيصدق كل هذا؟

# نادية

لا تصدقوا فؤاد عندما يصفني بقوة الشخصية.. هو يراني هكذا، وهو دائما يقول ما يراه دون مواربة، وهذا أكثر ما أحببته فيه.. صِدْقه.. إلى جانب عيوبه الأخرى.. نعم، عيوبه هذه جذبتني إليه أكثر.. كان تائها ولكنه يعرف أنه تائه، يبحث عن نَفسه ويبحث عن طريقه بصدق.. لم يكن مدعيا كالآخرين.. ليس نخورا مزهوا بنفسه برغم كل ما لديه.. لم أخبره بهذا قطّ، لكنني من البداية وجدت نفسي أنجذب إليه وإلى مساعدته.. أحببت أن أكون مرشدته.. نور حياته كما قال لي مرة، دون أن يفهم معنى ذلك عندي!

وبرغم أنني لم أفلح في ذلك بالضبط، إلا أنني وجدت شيئا من السعادة في اطمئنانه وسكونه إليّ.. وكأنّ ضياعه وحيرته كل هذا الوقت كان بحثا عني أنا بالذات.. وكأنني أنا هدفه.. كنزه الذي كان يبحث عنه..

بعد فترة شعرت أنه تغير ولم يعد يبالي.. ما زال مستمرا في مجال المحاماة دون أن يحبه، وما زال لا يدري ماذا يريد أن يفعل بنفسه، لكنه كفّ عن البحث.. وعندما حاولت أن أسأله كان يقول ضاحكا إنه يكفيه أن وجدني أنا!

أعرف أنه كان يمزح، لكن هذا يكفيني.. كان يكفيني.. حتى أصابني ما أصابني، وصرتُ شبه أنثى، وصار هو وحيدا، برغم وجودي إلى جانبه...

# الجزء الثاني

# على هذه الأرض

## فؤاد

أمور كثيرة تغيرت منذ دخلت سيرين حياتنا. بعد عام واحد فقط لم أعد محاميا.. صرت مذيعا معروفا، أقدم برنامجا شهيرا على الإنترنت بعنوان (منظور آخر). برنامجي هذا بدأته بحلقات فيديو قصيرة للتعريف بالمساخيط. حلقات طافت الإنترنت في ساعات وتحولت - وتحولتُ أنا معها - إلى تريند، حتى صرت مشهورا في أسابيع، وربما أيام.. وتطور الأمر عند تناول بعض وسائل الإعلام الأجنبية هذه الحلقات التي قدمت معلومات جديدة على المجتمعات الغربية أيضا، عن المساخيط الذين ظهروا عندهم كذلك.. فسعيت لاستغلال النجاح، وأضفت ترجمة إنجليزية للحلقات منذ بدايتها، ومع تزايد الإقبال عليها استعنت ببعض الأصدقاء لتوفير نسخ بتعليق صوتي إنجليزي كامل، لإتاحة هذه المعلومات والحلقات للمشاهد الغربي.

كانت الحلقات مبنية على حزمة من المبادئ الحقوقية التي تتخذ منحى الدفاع عن المساخيط وعن حقوقهم من منطلق حقوق الإنسان.. وبدأت الحلقات، إلى جانب المقالات التي كنت أنشرها على الإنترنت وعلى صفحاتي على السوشيال ميديا، تبني لي جمهورا واسعا وتلقى أصداء واسعة، وبدأ التعاطف مع المساخيط يظهر، وبدأت

جمعيات حقوقية تهتم بالمساخيط وتنادي بالاعتراف بهم، بوصفهم كائنات عاقلة تعيش بيننا على هذه الأرض.

وفي هذه الفترة، بدأت أتلقى عروضا من شبكات بث ومنصات مشاهدة بالطلب لشراء حقوق عرض حلقاتي وإنتاج برنامج خاص بي.. ورُحت أظهر كمتحدث وخبير في برامج عديدة وفي صحف ومجلات عالمية وفي حلقات وأفلام وثائقية عن المساخيط.

أعتقد أن السبب الحقيقي في نجاحي كان شغفي بالموضوع وحبي لما أفعله.. الأمر الذي لم أشعر به من قبل مع المحاماة ولا مع أي مجال آخر جربته أو فكرت فيه.. كانت تلك لعنتي، أنني لا أجد نفسي في عمل بعينه.. كنت تائها كما كانت نادية تقول لي.. وأخيرا وجدتها حين وجدت سيرين!

## منى

لم يفكر عمرو في العودة إلى بيتنا بعدما حدث.

لماذا لم أخبر أحدا بما فعله؟

لا أعرف.. وقتها شعرت أنه نال جزاءه العادل.. كما أن بابا لو عرف فلسوف يواجهه، وعندها سيحظى بفرصة للدفاع عن نفسه، وقد يكذب.. وأنا أعرف أنه مستعد لقول أي شيء لكي يسامحوه، وقد يفعلوها ويسامحوه فعلا.. قد يُهوّنوا من حجم ما فعله.. وهو قد يتهمني بالكذب، وقد يجد من يصدقه..

فلماذا أعطيه هذه الفرصة؟

أريده أن يظل هكذا متهما مدانا أمام نفسه وأمامي دائما.. ستظل عينه مكسورة أمامي، وسيظل بعيدا، مضطرا لتجنب دخول بيتنا.. وأنا أعرف كم يؤلمه هذا.. هذا هو عقابه الذي يستحقه.

## فؤاد

أخطر من العدو الصديق الأحمق.. وأخطر من الاثنين ابن فريقك وشريك قضيتك ورفيقك في الظلم الذي يُصر على التطرف والعنف فيشوه صورتكم كلكم ويضر بقضيتكم.. هذا موقف وجدت كل الأقليات نفسها فيه.. وبدأ يواجه المساخيط.. حالات عنف غامضة بدأت تحدث من بعض المساخيط المجهولين، وتم تصنيفها على أنها «عمليات إرهابية».. هل كانت تلك عمليات تخريبية مقصودة؟ أم مجرد حالات فردية؟

المشكلة أن هذا خطر على وجودهم نفسه..

حاولت أن أشرح ذلك لسيرين، بلغة الإشارة، وهي ترمقني بعينيها الواسعتين الذكيتين.. كنت أفكر في أن هذه القضية تحتاج إلى بعض العمل الداخلي في صفوف المساخيط أنفسهم، فقبل أن يطالبوا الآخرين من البشر بالحقوق والمساواة، فعليهم أولا أن يثبتوا حسن نيتهم ويُطمئنوا البشر، فحالات العنف هذه ستُضعف موقفهم وتعطي مبررات قوية للمناهضين لهم.

ردت سيرين (بلغة الإشارة، التي صارت أكثر طلاقة في استخدامها) أن هذا غير قابل للتطبيق.

- لماذا؟

- لأن المساخيط عرقان أصلا، وهما غير متفقَيْن على أمور كهذه..

كانت قد شرحت لي مسألة العرقين هذه من قبل..

المساخيط، أو الدوجونجواديون - نسبة إلى كوكب (دوجونجواد) الذي جاءوا منه - عرقان مختلفان في الثقافة وفي الأيديولوجية. الأغلبية منهم يسمون (يوخدوجون)، أي أهل شمال العالم، هم أصحاب بشرة داكنة (زرقاء داكنة طبعا، وعندهم يطلق عليهم «السود»)، وهؤلاء يؤمنون بعقيدة وفلسفة «الهارمونية»، التي تهدف إلى المحافظة على الكوكب وعلى التوازن البيئي عن طريق تجنب الإنتاج الضخم للغذاء وإلغاء فكرة مزارع الحيوانات والطيور تماما وترك كل الكائنات تعيش بطريقتها في الطبيعة والتحكم في الذات وتغيير الطبيعة النفسية للمسخوط بحيث يتخلى عن أحاسيس التقزز والاعتماد على الحشرات والنباتات بالكامل كمصادر للغذاء. هذه الطريقة في التفكير الجماعي والاهتمام بالصورة الكبيرة وصلوا إليها بعد سنين طويلة على كوكبهم.

لكن نسبة منهم وهي الأقلية من البيض أو أصحاب البشرة الفاتحة، ويسمون (موخدوجون)، أي أهل جنوب العالم، لديهم ثقافة مختلفة وعقيدة مختلفة.. بشكل عام هم أقل تقدما ويميلون إلى الثقافة القروية والبدائية والبداوة والتقاليد المحافظة، وهؤلاء يأكلون اللحم ويعتبرون الهارمونيين كائنات رقيعة مرفهة. وهناك على كوكبهم كانوا يعيشون في قارة مختلفة، وكانت لهم خصوصيتهم واستقلاليتهم الثقافية، مع حالة من الاعتزاز والفخار بالنفس وبالتاريخ.

وعلى عكس البشر، كان أصحاب البشرة الفاتحة هم الذين يعانون أكثر من عنصرية العرق الآخر، فهو العرق

الذي ظل متمسكا بعاداته الغذائية القديمة وظل على إصراره على أكل اللحوم واصطياد الحيوانات وأكلها كما هي، وتطرفوا في ذلك فعادوا يأكلونها بلا طهي. وكان بعض أفراد هذا العرق هم الذين الذين كانوا يهاجمون الطيور والمزارع على كوكبنا في بدايات ظهورهم..

وبرغم رفض العرق الآخر لهذا الاتجاه فإنهم يتقبلون أصحابه ببساطة، أو على الأقل لا يصفونه بالوحشية، فهم أنفسهم كانوا يأكلون الحشرات، وهي كائنات حية كذلك.. أفهم كل هذا، لكنهم هنا في وضع مختلف، وعليهم مراعاة ذلك.. لمصلحتهم. قلت لسيرين:

- أفهم كل هذا.. لكن من مصلحتكم أن تتفقوا..

- لكن هذه هي مبادئنا.. بل يمكنك اعتبارها نوعا من العقيدة عندنا.. أن يتعايش العرقان ولا يجبر أحدهما الآخر على نهجه..

- حقا؟ وماذا عن البشر؟ لماذا لا يريد - هؤلاء الـ(موخدوجون) - التعايش معنا نحن؟

- بل يريدون.. كلنا نريد.. لكن البشر لا يريدون.. أظن أنهم...

- يتحدّون البشر؟ يستفزونهم أكثر؟

- لا.. هذا رد فعل.. دفاع عن النفس..

- لكن هذا يضرْ بقضيتكم، ويجب أن يتوقف.

- قلت لك هذا «رد فعل»، لو تغير سلوك البشر نحونا سيتغير هذا تلقائيا..

- لماذا تدافعين عنهم؟

- لا أدافع عنهم.. لكن مَن يستطيع مطالبتهم بتلقي الضربات وقبولها في صمت؟

- لكن هذه دائرة مفرغة سنظل ندور فيها.. يجب أن يتوقف أحد الطرفين.

- بالضبط.

- والمساخيط هم الأَوْلى بالتوقف.

- لماذا؟

- لأن البشر هم الطرف الأقوى.

- بالضبط!.. أنتم الأقوى.. ألا ترى المفارقة هنا؟

- افهميني، عندنا مثَل شعبي مصري يقول «المحتاج يدوّر».. أنتم المتضررون من الوضع، فعليكم تقديم بعض التنازلات..

- هل تعني أننا، لو كنا الطرف الأقوى هنا، كان الأمر سيختلف؟

ترددتُ، ثم قلت دون أن أنتبه للفخ الذي قادتني إليه:

- أعتقد ذلك.. لكن كيف يمكن ذلك؟

- أرأيت؟ إذن أنت تتفق مع الـ(موخدوجون)!

ضحكتُ ورحت أتأملها في عجب.. ذكية حقا.. جسدها الصغير يعطيني إحساسا مستمرا بأنها طفلة، يتناقض مع تضاريسه الناضجة كأنثى مكتملة.. مزيج مربك يشعرني بأنني منحرف.. هززت رأسي لأتخلص من هذه الأفكار،

وقلت:

- أنا؟!

- نعم.. هم يعتقدون أن حصولنا على القوة سيغير المعادلة، ويفرض العدل.. بالقوة.

قلت في ريبة:

- لكن.. كيف تحصلون على القوة؟

قالت ببساطة:

- لا أعرف.. أسلحة وقتال ومقاومة.. إلى آخر هذا الهراء..

- لكن هذا خطير!

- ليس بالضبط.

- لماذا؟

- هذه أغلبها أحلام حمقاء.. أوهام إن شئت الدقة.. ليس لديهم أي أدوات لذلك..

- أتظنين ذلك؟

قالت في ثقة:

- طبعا.. أنا متأكدة من ذلك..

نظرت لها في شك.. أعرف أنها شديدة الذكاء.. ولكن ماذا لو كانت حمقاء؟ أو مخدوعة؟

حاولت أن أتجاهل كل هذا، لكن كلامها هذا كان خطيرا فعلا، فحتى لو كانوا مجرد حفنة من الحمقى

المتآمرين، أليس من واجبي أن أعلن هذه المعلومات، أو على الاقل أبلغ بها السلطات والأجهزة الأمنية؟

ولو التزمت الصمت.. ألا تعد هذه خيانة؟

ولو فعلت، ماذا سيفعلون بهذه المسكينة؟ هل سيأخذونها بعيدا عني.. أعني عنّا؟

## منى

لمحت عمرو اليوم في الجامعة.

هل كان يراقبني من بعيد؟

لا أعرف..

لا بد أنني أتوهم.. لا يجب أن أبالغ في افتراض أشياء لا دليل عليها.

ما حدث قد حدث، وعليّ أن أنسى الأمر برمّته، كما لا بد وأنه هو قد نسيه..

# فؤاد

كنت عائدا من مكتبي، الذي صار أستوديو تصوير مؤخرا، وإن ظل يحمل لافتة المحامي حتى الآن.. من ميدان محطة مترو حلوان، إلى شارع شريف خلف الحديقة اليابانية.. ثلث ساعة أقطعها مشيا حتى البيت..

كنت أمشي شاردا أتأمل الجرافيتي والشخابيط العشوائية على الجدران، أفكر في فكرة مناسبة للحلقة القادمة، حين شعرت بشيء غريب..

نظرت خلفي.. كأن شيئا ما تحرك هناك.. أم أنها خدعة بصرية ما؟

هززت رأسي وواصلت طريقي..

ثم تكرر الأمر.. أشعر بشيء غريب فألتفتُ خلفي فجأة لكنني لا أرى شيئا.

واصلت طريقي، وتعمدت أن أبطئ من سرعتي.. ثم استدرت فجأة وركضت بسرعة في الاتجاه العكسي.. كان هناك من يتحرك فعلا، لكنه اختفى في شارع جانبي.. حاولت اللحاق به، فانحرف في منطقة مظلمة.. انحرفتُ خلفه وعدوتُ نحوه في تصميم.. وحين وصلت هناك وجدت نفسي تحت شجرة ولا أحد هناك..

نظرت للأعلى، وناديت: «من هنا؟»..

لا أحد طبعا. لا بد أنني سأجن قريبا.

***

في المساء جلست في البلكونة أراقب النجوم وأفكر في حلقة الغد في توتر.

لماذا لم أعد مرتاحا لما أفعله؟ لأول مرة تنتابني الشكوك.. منذ ذلك الحوار مع سيرين.. هل يمكن أن تكون هي نفسها...؟

قاطعت أفكاري تلك الحركة في الحديقة.. نهضت بهدوء، وأحضرت حقيبة جلدية، ثم عدت أجلس على مقعدي في البلكونة. أخرجت التابلت من الحقيبة، ورحت أقلب فيه في شرود، ومددت يدي ببطء في الحقيبة، وقبضت على الجسم الأسطواني بداخلها.. وحين شعرت بالحركة مرة أخرى أخرجته فجأة وصوبته نحو تلك البقعة وضغطت الزر، فأضاءت.. كان هذا كشافا يدويا صوبته نحو مصدر الحركة، فدوت الصرخة، وكأن الكشاف قد آذى عينيه.. ابتعد هاربا بسرعة، لكنني لمحته.. كانت ثانية واحدة لكنني لمحته...

هرعت إلى غرفة مكتبة وفتحت الخزانة، وتناولت منها مسدسي المرخص الذي لم أستخدمه من قبل. هذا الشيء يجب أن يلازمني هذه الفترة.

# عمرو

أراها في الجامعة كثيرا.. تضحك مع زميلاتها، وتذهب إلى المحاضرات، وتتردد على مكتب دكتور عزيز.. تعيش حياتها ولا تعبأ بشخص خرج من حياتها اسمه عمرو.

مشيت خلفها مرة حتى مكتب الدكتور عزيز، ووقفت على مسافة قريبة أحاول أن أسمع ماذا يقولون.. لم تكن (منى) تقول شيئا، كانت تقف فقط لتسمع ما يقولون.. كانت مثل الأخريات، منبهرة بالدكتور عزيز.

كلهن هكذا.. تافهات.

# فؤاد

لم أذكر شيئا لأحد.. حتى سيرين.

شعور غامض بداخلي أكد لي أن لها علاقة بهذا المسخوط الذي يراقبني..

وجدت نفسي أتهرب من جلساتنا معا، برغم اشتياقي لها.. وحتى حلقات البرنامج الجديدة، كان ذهني مشتتا مشغولا فلم أستطع إكمال أحدها.. هذا ترف تقدر عليه لو كان برنامجك على اليوتيوب.

واكتمل الأمر بالأرق اللعين.. الأفكار تروح وتجيء، وأنا لا أعرف من أين تبدأ الهواجس والشكوك وأين تنتهي الحقائق.. هل أنا أهذي؟ أم أنني بالغت في الثقة منذ البداية؟

نهضت فجأة وقد حسمت أمري.. لا بد أن أتيقن.. لن أترك نفسي لهذه الهواجس للأبد.

لم يكن الأمر صعبا.. هذه الأشياء تباع على الفيسبوك الآن.

عبر الماسنجر أتممت الصفقة وحددت مكان التوصيل على مكتبي، ودفعتُ أكثر لتصلني الشحنة في اليوم التالي.

تسلمتها وعدت إلى البيت فورا، وفي الطرقة التي تضم باب غرفة سيرين، اخترت نقطة مناسبة وألصقت بها المكعب الصغير، خلف مصباح زينة جانبي، بحيث تواجه العدسة باب الغرفة.. ثم هرعت إلى غرفتي وفتحت حاسبي اللوحي وجلست أراقب الفيديو الذي تبثه الكاميرا..

لا شيء.. دقائق وساعات تمر وباب الغرفة ساكن كما هو، ولا شيء يحدث.. شعرت بالبلاهة..

لم أكن مضطرا للجلوس هكذا بالطبع، فهذا الشيء يسجل ما يحدث ويخزنه، ويمكنني مراجعة التسجيلات كل فترة..

كان الوقت بعد منتصف الليل، بعد نصف ساعة من المراقبة، بلا نتيجة.. أغلقت تطبيق كاميرا المراقبة، وفتحت اليوتيوب ورحت أتشاغل بمشاهدة الفيديوهات التي قررت خوارزميات اليوتيوب أنها ستعجبني، حتى نسيت الأمر برمته..

وحين فتحت التطبيق مرة أخرى كان باب غرفة سيرين مفتوحا.

***

هببت من مكاني بسرعة ثم توقفت فجأة.. ماذا تفعل؟

نظرت من النافذة المطلة على الحديقة الأمامية.. لم تكن هناك..

خرجت من غرفتي وصعدت للطابق العلوي، واتجهت إلى غرفة سيرين.. كان الباب مفتوحا كما رأيته في الكاميرا.. دلفت إلى الغرفة وأضأت النور.. لم تكن سيرين هناك، رحت أتلفت في الغرفة.. السرير فارغ. نظرت تحت السرير، ثم رحت أتأمل وأقلب في محتويات الغرفة بفضول.. ترى ماذا لديها هنا؟

شعرت بحركة خلفي، فنظرت خلفي.. كانت هناك عند

الباب.. سيرين.

كانت تنظر لي باتهام، نظرة لا تحتاج إلى ترجمة.

***

تملصت من الموقف بصعوبة قلت شيئا عن أنني مررت أمام الباب الذي كان مفتوحا ولم أجدها.. ثم تركتها تنظر لي في شكّ، وانصرفت بسرعة قبل أن تحقق معي.

في المرة التالية قمت بتثبيت المزيد من الكاميرات.. في بداية الممر وعند السلم.. وهذه المرة عندما راجعت التسجيلات اتضحت الأمور.

لم تكن سيرين تخرج من الباب وإنما كانت تصعد إلى السطح.

توقيت اللقطة في الفيديو كان يشير إلى الثانية بعد منتصف الليل.

وفي الليلة التالية انتظرت في غرفتي، وعند الثانية بعد منتصف الليل كنت في غرفتي أراقب الكاميرات، وعندما خرجَت وصعدَت إلى السطح صعدتُ خلفها في حذر، ووقفت هناك أراقبها من بعيد وهي تطير نحو أشجار قريبة.. ماذا تفعل هناك؟ هل أنتظر؟

لا.. لن أستطيع الانتظار.. نزلت مهرولا وخرجت من باب الفيلا وتبعتها نحو تلك البقعة.. كان شارع جانبيا مليئا بالأشجار على أطراف الحديقة اليابانية.. وهناك عندما فاجأتها واقتحمت عليها المكان والكشاف في يدي، ضبطتها متلبسة مع ذلك الكائن الذي كانت تلقاه في ظلام

الليل. وحين رأيته عرفته.. إنه هو.. نفس الكائن الذي كان يتعقبني من قبل.

إذن فقد كنت محقا.. يا لي من أحمق!

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أسحب مسدسي وأطلق النار.

رد فعل ذلك الكائن كان غريبا.. فتح فمه وزأر بفزع، ثم تراجع هاربا، فركضت خلفه محاولا التصويب من جديد..

هتفت سيرين بجزع، لكن الكائن جرى فجريت خلفه خشية فقده، وصحت:

- انتظر! توقف!

لكنه لم يتوقف.. فأطلقت النار وأصبت الهدف هذه المرة.

# منى

عمرو رشّح نفسه في انتخابات اتحاد الطلاب.. وعلى مقعد الرئيس!

لم أعرف هذا إلا يوم التصويت.. وفي نهاية اليوم عرفت ما هو أعجب.. لقد فاز!

لم أعد أفهم شيئا! عمرو؟ عمرو رئيسا لاتحاد الطلاب؟

لكن كيف؟

لقد كان يرتبك ويحمرّ وجهه عندما يحاول التحدث معي أنا!

كل يوم أتأكد من أنني كنت محقة بشأنه من البداية.. لم يكن مهتما بي أنا.. كان مهتما بالصعود.. والآن، ها هو يبحث عن وسائل أخرى للصعود.. فلماذا سيتوقف؟

# فؤاد

أرحت جسد المسخوط على أقرب أريكة في الصالون، كما حدث من قبل مع سيرين، وسط عيون نادية ومنى وليزا المترقبة. وكانت نادية أول من تكلم. سألتني:

- من فعل به هذا؟ جزار آخر؟

خفضت رأسي وتمتمت بأسف:

- لا، هذا مجرد حادث..

رمقتني سيرين بنظرة نارية، بينما سألتني نادية بإلحاح:

- أي حادث؟ ماذا حدث؟

قلت بعصبية وأنا أقلب في جهات الاتصال بهاتفي:

- أنا الذي أصبته يا نادية!

هتفَتْ بذهول:

- أنت؟ أنت يا فؤاد؟

وانفجرت ليزا في البكاء بينما سألتني منى:

- كيف يا بابا؟ ولماذا تفعل هذا؟

صحت بعصبية:

- قلت لكم حادث!.. والآن اتركوني أتصل بالطبيب.. أم نتركه ليموت؟

***

جاءت مروة السمري من جديد، يتقدمها ذراعها الأيمن (رامي).

كتمتُ بصعوبة تعليقي الساخر عن الفرصة النادرة المتاحة لها - مروة - في أن تمشي بينما يتقدمها ذراعها، بل ويقوم ببعض الأعمال بدلا منها.. لكن مروة لم تكتم تعليقاتها الساخرة حول تحول بيتنا إلى مأوى للمساخيط الجرحى والمصابين.

كان الجرح سطحيا هذه المرة، هذا يعطيك فكرة عن مدى براعتي في التصويب، برغم أنني أصبته من مسافة قريبة.

انتهت الزيارة الثقيلة وتركْنا المسخوط لينام.

التفوا حولي في الخارج أنا وسيرين ينتظرون تفسيرا لما حدث. قلت بحرج:

- ظننته واحدا من أولئك الـ.. الإرهابيين، أعني (الموخدوجون) الذين أخبرتنا سيرين عنهم، خاصة أنه كان يتعقبني في الشارع في الفترة الماضية.. وعندما رأيته مع سيرين وحاول الهرب لم أفكر و...

- ومن هو إذن؟

رمقت سيرين بنظرة جانبية، وقلت:

- قالت سيرين إنه حبيبها..

قلتها وأنا أنظر لها مرة أخرى، وكأنني أتأكد منها، فأشارت بأصابعها تقول شيئا بلغة الإشارة.. ما هذه المخبولة؟

- ماذا تقول يا بابا؟ ترجم لنا!

- انتظروا.. لا بد أن هناك خطأ ما.. حبيبها و..

أخوها؟.. نعم.. أخوها..

- حبيبها؟

- نعم.. حبيبها.. أي خطيبها؟

- نعم خطيبها.

- وأخوها؟

- نعم..

- ولكن كيف؟

صاحت مني بدهشة بينما ضحكت ليزا وقالت نادية:

- سيرين تمزح طبعا..

أعدت سؤال سيرين بلغة الإشارة فأكدت لي الكلام. قلت:

- بل هي الحقيقة.. تقول إن الموضوع معقد، لكنه ممكن عندهم بشكل ما.

***

حين رجعت إلى جلسات التواصل مع سيرين نظرت لي في اتهام وسألتني:

- ماذا كنت تعني عندما قلت إنك ظننت (جادروبيت) واحدا من الإرهابيين؟ هل كنت تشك فيّ؟

لم أستطع الإجابة. نظرت في عينيها طويلا وهززت رأسي في إشارة بلا معنى...

***

أتأمل نادية الراقدة على الكنبة في الصالة وقد راحت في النوم أمام التلفزيون.. لكم ذبلَتْ.. فقدت حيويتها وصارت هكذا راقدة معظم اليوم، تُغالب ضعفها وآلامها.. تبا للمرض اللعين!

وجدت نفسي أتلفت بحثا عن سيرين..

لا أدري ماذا حدث لي بالضبط.. فيم أفكر؟ كأنها حركت بداخلي مشاعر جديدة.. مشاعر لا أريدها.. مشاعر تزيد من عذابي، وتضاعفه أضعافا..

استأنفنا جلسات التواصل من جديد، أنا وسيرين..

كنت أحاول طوال الوقت أن أراها كطفلة، لكنها ظلت تتراءى لي كأنثى.. رِقّتها هذه ليست من هذا العالم.. جمالها من عالم آخر حرفيًا.. أهي رقيقة حقا، أم أنه انطباع يأتي من جسدها الصغير وملامحها الدقيقة؟

ضحكتها الصافية الساحرة الطفولية الملائكية تتسرب إلى روحي مباشرة.. روحي المعذبة بذنب نادية.

وحتى حين حاولت أن أراها مثل ابنتي فشلت.. دوري معها الذي حاولت أن أجعله أبويًّا خانني، وتشكّل وتحول إلى دور رجل يقع في غرام الأنثى التي تركت له زمامها..

احتياجها إليّ واعتمادها عليّ وانبهارها بي.. كل هذا حرك رجولتي.. كيف أقاومها؟

وكأنني افتقدت هذا الدور مع نادية فعوضته سيرين من دون أن تدري هي بأنوثتها المتفتحة..

حضر أخوها معنا مرة، فرحبتُ بذلك.. على الأقل سيبعد عني هواجسي وأفكاري اللعينة.. جلس يراقب في صمت..

قالت لي سيرين إن اسمه (جادروبيت)، فقلت مداعبا:

- نسميه (جاد) اختصارا إذن؟

ترجمت له سيرين، لكنه لم يبدِ اهتماما.

كنّا أنا وسيرين قد صرنا نتقن التفاهم بلغة الإشارة إلى حد ما، وبدأنا نحاول التواصل بالكتابة، فرحت أعلمها قراءة وكتابة الحروف العربية، بينما بدأت هي تكتب وتشرح لي طريقة كتابة لغتها..

كتَبَتْ أمامي بعض حروف لغتهم، فبدت لي كطلاسم مبهمة.. كانت تتألف من خطوط ونقاط ودوائر.. طلبت منها أن تكتب جملة، فراحت تكتب الحروف وتصلها ببعضها، فيما بدا أنه كلمات بهذه اللغة، ثم راحت ترص بجانبها كلمات أخرى.. لكنها بخلاف أية لغة أخرى عرفتها أو سمعت عنها من قبل، تبدأ الكتابة بكلمة من مركز الدائرة ثم تجاورها الكلمات في خط حلزوني يتسع حتى تنتهي الجملة.. ثم تُكتب إلى يسارها جملة أخرى.. واتضح بعدها أن الجمل التالية ليست إلى اليسار، وإنما تدور بدورها حول الجملة الأولى، في تكوين حلزوني لا نهائي.. راقبت (منى) ذلك بفضول، إذ جذبها ذلك الجزء الخاص بالكتابة وعلقت بمرح:

- لا بد أن كراساتهم دائرية وليست مربعة.

ترجمت تعليقها لسيرين، فأومأت برأسها موافقة، وتناولت

ورقة بيضاء، ثم رسمت في وسطها خطا حلزونيا يتسع من مركز الصفحة إلى الخارج، ثم رفعتها أمام صدرها، وتناولت ورقة مسطرة تقليدية وضعتها في يدي، وأشارت إلى الاثنتين، وكأنها تقول لنا: هذه لغتنا وتلك لغتكم.

# نادي الصيد السرّي

## نقلا عن موقع (المفاتيح)

نادي صيد المساخيط هو نادٍ سري، أسسه أربعة من الرجال الأثرياء. بدأ الأربعة بتنظيم رحلات لصيد المساخيط على سبيل الترفيه وقتل الوقت وربما الرياضة، لكنهم بمرور الوقت حولوا الأمر إلى قضية، فصوروها وسوقوا لها على أنها ذات هدف نبيل، وبدأوا يدعون الآخرين للانضمام لهم، وبالفعل انتشرت الدعوة واتّسع النادي.

وفي مجموعتهم المغلقة على الفيسبوك، واسمها B.A.H.C، (اختصارا لـ Blue Aliens Hunt Club) كتبوا في الوصف:

«ظهور المساخيط فجأة على كوكب الأرض سيؤثر سلبا على التوازن البيئي بالكامل باعتبارهم جنسًا دخيلًا من خارج النظام البيئي المتكامل لكوكب الأرض، وتواجدهم وتكاثرهم بهذا المعدل الخرافي سيشكل تهديدا حقيقيا على موارد الكوكب، وسيؤدي إلى اختلال النظام البيئي بالكامل، وقد يؤدي إلى انقراض بعض الكائنات وإلى ظهور أخطار غير محسوبة أو متوقعة.

والحل الوحيد هو التعامل معهم كأي فيروس أو آفة أو وباء يواجهنا، بإبادتهم بشكل منظم ومستمر».

وكان بعض الذين جذبهم الفضول لدخول المجموعة لمعرفة المزيد عن النادي قد تحفّظوا على هذه الأفكار، وتركوا النادي من البداية وهاجموه بشدة، وسعوا إلى

فضحه وإيقاف أنشطته، لكن القانون لم يكن يدينهم بشيء.

اختارت المجموعة المؤسِّسة للنادي هذه الفيلا المملوكة للسيد حسين عجيز (أحد الأعضاء الأربعة المؤسسين) مقرا لها.. هنا كانوا يجتمعون ويتشاركون الصور والفيديوهات التي يلتقطونها لبعضهم أثناء الصيد. وكذلك يتبادلون الخبرات والأفكار والتدريبات والحيل في الصيد والأدوات كذلك.

وعلى مجموعة الفيسبوك التي دخلها محرر الموقع، وجدنا عشرات المنشورات التي يناقش فيها أعضاء النادي أمورا مثل: أفضل الأدوات لصيد المساخيط.. أفكار لصناعة فخاخ للمساخيط.. أنواع وجرعات المخدرات التي يمكن إطلاقها عليهم للإمساك بهم أحياء.. أنواع المناورات الأرضية والجوية مع المساخيط..

وبعضهم طرحوا أسئلة مثل: كيف يمكن صيد المساخيط أحياء؟.. من أي مسافة يمكن إطلاق حقنة المخدر؟ هل من الآمن أن تلتقط المسخوط بعد سقوطه مخدرا؟ كيف تبعد رفاقه عنه وترهبهم حتى تلتقط الجثة المخدرة؟

أما عن مقر النادي، (فيلا حسين عجيز)، فقد رأينا من الصور والفيديوهات التي شاركها الأعضاء على مجموعة الفيسبوك بعض تفاصيلها.. ففي قبو تلك الفيلا كانوا يحتفظون بالمساخيط الأسرى في أقفاص، ربما تمهيدا لبيعهم أو ذبحهم فيما بعد.

وفي مكان الاجتماعات لاحظنا وجود رأس مسخوط

محنط ومعلّق على الحائط، كما يفعل بعض الصيادين برؤوس الأسود والدببة والذئاب.. وفي القاعة نفسها كان هناك جسد كامل لمسخوط محنّط ومثبّت كالتمثال، وهو واقف في وضع قتالي وكأنه يتأهب للانقضاض.

ببعض البحث عرفنا كذلك أن النادي من المصادر المعروفة التي تقوم بتوريد المساخيط أحياء، للراغبين في الشراء، لأغراض الخدمة في البيوت، والمساعدة في الأعمال الشاقة، لكننا توصلنا إلى حالات متكررة لاستقدام إناث المساخيط لأداء أعمال الخدمة المنزلية، كغطاء لاستغلالهم جنسيا.. والبعض وظفهم صراحةً في أعمال الدعارة المنظمة.

## منى

هذا النسق اللغوي هو ما أثار اهتمامي.. فتنني وخلب لبي.

تناولت أوراقا فارغة ورحت أحاول تقليد كتابة سيرين.

ضحكت سيرين بشدة.. كانت أول مرة أراها تضحك وكأنها تطرقع شيئا في فمها، وضاقت عيناها الواسعتان واكتسب وجهها الأزرق صبغة وردية خفيفة فمال إلى البنفسجي! كانت تضحك وهي تشير لبعض الكلمات التي كتبتُها.. لم أفهم بالضبط ما المضحك في الأمر.. حاولَتْ سيرين أن تشرح لي بالإشارة، ثم أشارت إلى بابا، لكنه لم يفهم منها بدوره ما المضحك في الأمر.. المهم أنها صحّحت لي بعض الكلمات..

أخذتها منها بعد التصحيح، مع الأوراق التي كتبتْها هي بنفسها، وذهبتُ بها إلى غرفتي، وسهرتُ أتدارسها وأتاملها..

أنا لست حمقاء ولا غبية، أنا فقط حسنة النية ربما كنت قليلة الخبرة.. وأحيانا لا أكون حذرة بما يكفي..

لهذا لم أجد غضاضة في أن آخذ هذه الأوراق معي إلى الكلية، وأتجه بها إلى دكتور عزيز وصفي.

الدكتور عزيز هو دكتور بارع ذو كاريزما آسرة، بهرتني شخصيته منذ أول محاضرة.

كنت أنتهز أية فرصة لأتوجه له بعد كل محاضرة لأسأله وأتحدث معه أو أحيانا أقف هناك أمامه، وسط

تزاحم الطلاب والطالبات حول مكتبه.. أسمع أسئلتهم وأجوبته وحديثه اللطيف المرح حول الكتب والمحاضرات والمذاكرة والامتحان، حتى ينتهوا جميعا وينصرفوا واحدا بعد الآخر، فينظر لي أخيرا في تساؤل، لأكتشف أنني هنا بلا سبب محدد، فأضحك بحرج وأقول إنني كنت أتأكد من أنه لن يقول شيئا مهما قد يفوتني!

لهذا، عندما تحدث الدكتور عزيز بشكل عابر في إحدى محاضراته عن المساخيط، واهتمامه بفكرة التواصل اللغوي معهم، شعرت أن لديّ شيئا يثير اهتمامه. ولم أقاوم. توجهت لمكتبه فوجدته يتحدث مع أستاذ آخر.. انتظرته حتى فرغ، ثم تقدمت منه وأخرجت الأوراق وأطلعته عليها.. لم يبدُ عليه الاهتمام، فأخرجت المزيد من الأوراق، وقلت له بحماس إن هذه هي لغة المساخيط المكتوبة.. وهنا لمعت عيناه في ظفر..

ملأني الزهو وقتها بهذا الاهتمام، خاصة أنه هو الذي راح بعدها يطلب التحدث معي بعدها في مكتبه، وكأننا صرنا صديقين.. وفي إحدى المرات، كنت أغادر مكتبه مبتسمة، حين تبددت ابتسامتي أمام ابتسامة عمرو. رمقني بابتسامة خبيثة، وتجاوزني وواصل طريقه إلى الداخل، إلى مكتب دكتور عزيز.

***

ما أثار ريبتي أكثر أن دكتور عزيز أبدى اهتماما متزايدا بسيرين يتجاوز الاهتمام العلمي بالأوراق التي قدمتُها، وراح يلح ويضغط علي في أن «نسلمه» سيرين.. لم أفهم ماذا يقصد بالضبط بكلمة «نسلمه» هذه.. وكنت غبية بما

يكفي، فلم أسأله وقتها.

في ظروف أخرى لو كان الحوار بين طرفين متكافئين ربما كنت لأعترض أو أستنكر، ولربما هاجمتُ هذا الذي يحدثني لاستخدامه هذا التعبير «نسلمه سيرين»، وكأنها حيوان أو مجرم في حوزتنا. لكن الحوار والتعامل بين طرفين غير متكافئين يختلف تماما.. بين مدير وموظف، أو بين أستاذ وطالب، ثمة سلطة ورهبة حاضرة بقوة ولا يمكن تجاهلها.. سلطة تمنح لصاحبها الكثير.. رهبة تسلب الطرف الأدنى حتى قدرته على الاعتراض أو المناقشة، فضلا عن الرفض..

لهذا لم أبدِ أي اعتراض.. اكتفيت بهمهمات غامضة، وتملصت في سرعة وابتعدت.. تبخر الزهو والإعجاب وحل محله شك ممزوج بالغيظ..

رحت أراجع الحوار وأحاسب نفسي وأنا لا أفهم سر لهفة دكتور عزيز المفاجئة..

ثم إنه لم يتركني. راح يطاردني ويحاصرني بمكالماته وبسؤال زملائي عني، حتى لم أجد بُدًّا من أن أهرب منه تماما.. تغيبت عن محاضراته، وتجنبت المرور من أمام مكتبه، وتجاهلت رسائله واتصالاته، وأنا ألعن (فريدة) زميلتي التي أعطته رقمي ببساطة.. أغلقت هاتفي تماما وانتقلت إلى رقم جديد أعطيتُه لبعض صديقاتي فقط..

لكنني في قرارة نفسي لم أستطع إدانة دكتور عزيز، وفكرت أنه ربما فقط أساء اختيار اللفظ.. ولعله معذور فهو لا يعرف سيرين وعلاقتنا بها..

ثم إنني رحت ألوم نفسي على تصرفي الأحمق من البداية. ولماذا ذهبت إليه أصلا؟ هل كان طلبا لمساعدته؟ أم رغبة في إثارة اهتمامه وجذب انتباهه؟ ولماذا؟ ماذا أريد منه؟

ماذا تريدين منه يا (منى)؟

وما علاقة عمرو بالموضوع؟

خطأ! كان هذا خطئي أنا بلا شك، وعليّ أنا أن أعالجه..

نعم، سأختفي من أمامه تماما، وعندما أعود للظهور بعد فترة سيكون قد نسي الأمر برمته.. ولو سألني عن المسخوطة سأقول إنها رحلت أو أننا فقدناها..

المشكلة الوحيدة هي عمرو! عمرو قد يخبره!

ثم ماذا عن محاضراتي؟

كثرة الغياب عن المحاضرات قد يؤدي إلى رسوبي.. لا بد أن أستمر في حضور المحاضرات، في المواد الأخرى على الأقل.. لكن ماذا لو عرف أنني أحضر المحاضرات الأخرى وأتغيب عن محاضراته هو عمدا؟

ربما لن يعرف.. لكن.. قد يخبره عمرو!

هواجس وتساؤلات أغرقتني وأنا أدخل البيت عائدة من الجامعة.. لا بد أنها ستقضي بصحبتي سهرات كاملة، تتقلب وتتصارع في رأسي وتمنع اقتراب النوم حتى دائرة قطرها عشرة أمتار من سريري.. لا بد أنني سأحفظ تفاصيل السقف شبرا شبرا..

لكنني حين دلفت إلى غرفة المعيشة وجدتُه هناك جالسا

مع أبي..

هتفتُ في ذهول:

- أنت؟

نهض بابا في حرج وقدمني للموجودين.

كان هناك رجلان آخران بالإضافة إلى دكتور عزيز، أحدهما رجل ضخم، والآخر يبدو أجنبيا.

قال دكتور عزيز بلهجة بدت رسمية:

- الآنسة منى طالبة عندي في الكلية.. واضح أنها استغربت من وجودي هنا.

أومأتُ برأسي موافقة في حرج، وأنا أعجز عن النطق، فأضاف الدكتور عزيز مفسرا لي:

- هي زيارة ودية للوالد يا منى.. خبراته مهمة جدا لفريقنا.

لهج أبي بعبارات المجاملة والتواضع المتوقعة هنا، وانسحبت أنا.. لكنني كنت أعرف البقعة المناسبة للاستماع في الطابق العلوي، من فوق الدرابزين، خلف صندوق ألعاب خشبي يخص ليزا.. من هناك لن يراني أحد وسيمكنني سماعهم.. لم يقل أحدهم شيئا عني أو عن سيرين.. كانوا فيما يبدو يحاولون استنطاق بابا.

سألهم بلباقة عن صفتهم فقال أحدهم إنهم فريق بحثي من الجامعة مكلف رسميًا بالبحث في كل ما يخص المساخيط..

أدار أبي عينيه فيهم في شك..

- رسميًا؟ كيف؟ من كلفكم بالضبط؟

- التكليف ليس رسميا بالضبط، لكن.. هل سمعت عن الوكالة الدولية لأمن الكوكب؟

- أظن أنه كيان دولي لم يُعلن تشكيله رسميا بعد.. لكن ما علاقتنا نحن هنا بهذا؟

ابتسم عزيز بحكمة وانتفخ وقال بلهجة المحاضر الخبير:

- هذا تنظيم عالمي يا سيد فؤاد والاتفاقية الدولية بتشكيله سوف تعلن قريبا.. هذه مسألة وقت لا أكثر.

قاطعه بابا بإصرار:

- وما شأننا نحن به هنا؟

- كل دول العالم الأعضاء في الأمم المتحدة ستوقع على الاتفاقية، وتعترف بالوكالة وتسمح لها بالتواجد والتحرك على أراضيها.. الموضوع خطير ولا يحتمل التهاون، لا مفر من الاتحاد والتعاون لمواجهة هذا النوع الجديد من المشاكل والتهديدات الأمنية.. المشاكل القادمة من خارج الكوكب.. أنت تفهمني طبعا.

- عظيم.. وأنتم، ما دوركم هنا؟

غمز دكتور عزيز وقال بابتسامة ذات معنى:

- نحن جزء من الفريق البحثي الدولي التابع للوكالة، والمسؤول عن هذه المسألة يا أستاذ فؤاد.

وأضاف فيما يشبه التهديد:

- ونحن طبعا نعمل بدعم مباشر من الوكالة..

- طيب.. وما المطلوب مني؟

- التعاون بكل شيء تقدر عليه..

- مثلا..؟

- واضح من حلقاتك أنك تعرف الكثير وأن عندك مصادر سرية..

ضحك بابا..

- لا سرية ولا غيره.. أنا عندي مصادر فعلا، لكن أغلب معلوماتي قلتها في الحلقات، و...

- أغلبها.. ها!

- كنت سأكمل كلامي.. ما لم أقله بعد هو ما أحضّره في الحلقات القادمة..

- أستاذ فؤاد! نحن لدينا معلومات تؤكد أنك على اتصال ببعض أفراد المساخيط، و...

ضحك بابا مرة أخرى..

- وهذا ليس سرا.. ولستُ الوحيد الذي على اتصال بهم..

- مساخيط ممن تورطوا في أعمال تخريب وعنف...

نهض بابا وقال في حدة:

- هل هذا اتهام مباشر؟

قال الدكتور عزيز بسرعة:

- لا.. مطلقا، لكن تعاونك سيفيدنا حقا..

- لحظة.. أأنتم فريق علمي أم أمني؟

- علمي وبحثي كما قلت لك.

- عظيم وأنا أعلن كل ما عندي في حلقاتي.. يمكنكم متابعتي على القناة!

تبادلوا النظرات ثم قال دكتور عزيز:

- اسمع يا أستاذ فؤاد نحن جئنا بشكل ودي، وصدقني هذا أفضل لك.. لا تجعل الأمر يصل إلى الجهات الأمنية.

هنا هب أبي غاضبا:

- حضرتك تهددني في بيتي؟

نهضوا في هدوء وتبادلوا النظرات. رجال مثل هؤلاء يعرفون متى تنتهي المفاوضات، ولا يضعون أنفسهم في مواقف مهينة. لماذا تنتظر جملا كلاسيكية سخيفة مثل «المقابلة انتهت» إذا كنت تعرف أنها قادمة لا محالة؟

***

لكنهم لم يضيعوا وقتا.

في مساء اليوم نفسه اقتحم فريق عجيب بيتنا. فريق يتقدمه رجال ملثمون بأقنعة غاز وأسلحة مشهرة وعدد من أفراد فريق طبي ما، يرتدون المعاطف البيضاء ومسلحون ببنادق تخدير فيما يبدو، ولا ينقصهم إلا مفتش من اسكوتلنديارد يتقدمهم بعدسة مكبرة. اقتحموا المكان وفتشوه وقبضوا على سيرين من غرفتها وكأنهم كانوا يعرفون مكانها بالضبط.

حاولت التصدي لهم في هيستريا فدفعوني جانبا بقوة.

حاول بابا التفاهم معهم فشهر قائدهم ورقة رسمية ما في وجهه.

هناك جهة ما في مكان ما أعطتهم تصريحا ما، والآن بهذه الورقة صار لديهم الحق لفعل ذلك!

تابعتهم في عجز وهم يحملون سيرين حملا إلى الخارج وانهرت باكية.. أنا السبب.. أنا التي فعلت بها ذلك..

ظل الباب مفتوحا بعد انصرافهم ونحن متجمدون جميعا نتبادل النظرات الذاهلة.. وأمام أعيننا دخل (جادروبيت) من الباب.

لا أحد يعرف كيف عرف..

هل رآهم وهم ينصرفون بها؟

دخل يدير عينيه الكبيرتين في المكان بسرعة وكأنما يبحث عن سيرين أو ليتأكد من أنهم أخذوها هي فعلا، وعندما لم يجدها سقط جالسا على أقرب كرسي مصدوما، ثم أدار عينيه إلى بابا بنظرة اتهام واضحة.

# مساخيط الريف المصري

## نقلا عن موقع (المفاتيح)

قرية البلايزة، إحدى القرى بمحافظة أسيوط في صعيد مصر، كانت مسرحا لحادث مؤسف وقع مؤخرا، راح ضحيته عدد كبير من المساخيط. انتقل فريق موقع (المفاتيح) إلى القرية لمعرفة القصة بالكامل من مصدرها الأصلي.

قبل سفرنا إلى القرية، وبالبحث والسؤال عنها، حصلنا على معلومات تؤكد انتشار تجارة المساخيط هناك، تلبيةً للطلب المتزايد بين أهالي القرية لاتخاذ عبيد من المساخيط، خاصة من أثرياء القرية. الظاهرة نفسها لوحظت في العديد من مدن ومحافظات مصر المختلفة، لكنها كانت أكثر انتشارا في عدد من القرى ومنها هذه القرية، حتى أنها تحولت إلى مظهر من مظاهر الثراء.

وبرغم عدم وجود لغة تواصل معهم وقتها إلا أن الأهالي في القرية نجحوا في تطوير أسلوب بسيط للتفاهم بالإشارة، شرحه لنا أحد تجار المساخيط، فقال: تقوم أنت بملء الدلو بالماء من الحنفية ثم نقله إلى المكان المطلوب ثم تشير إلى المسخوط أن يفعل المثل فيفعل.. هذا لا يحتاج إلى لغة. بعد ذلك نستخدم مسميات صوتية قصيرة، يسهل حفظها مثل (جردل)، فتقولها وأنت تشير إلى الدلو، هذا لا يحتمل إساءة الفهم أو النسيان، هكذا يتعلم الصوت ويتعلم ما يشير إليه والعمل المطلوب.

المشاكل بدأت من تمرد بعض المساخيط الخدم..

الخادمات للدقة. والتمرد جاء علنا أمام الجميع، ولذلك فقد قرر العمدة عقاب المتمردين من المساخيط بشكل رادع، بالذبح بعد الضرب علنا، وذلك لمنع تكرار الأمر وضمان طاعة العبيد لسادتهم.

أما الأمر الذي لم يُعلن هنا ولكنه يُتداول سرا في القرية، فهو أن التمرد كان يحدث نتيجة للاغتصاب والتعذيب الجنسي سرا الذي كانت كثيرات من إناث المساخيط يتعرضن له من قبل سادتهم في الخفاء.

ولا يقتصر استخدام العبيد من المساخيط في هذه القرية على ذلك، وإنما يتعداه إلى توظيفهم قسرا في أعمال الحقل الشاقة مجانا، مثل أعمال الحرث والبذر والحصاد، تحت إشراف رئيس عمال يقودهم بالعصا.

والحقيقة أن هذا النشاط أضرّ بالأيدي العاملة من الفلاحين الأُجَراء، حتى أن التمرد التالي جاء من هؤلاء الأجراء.. فأصحاب الأراضي لجأوا إلى شراء عدد من المساخيط العبيد، واستخدموهم في أعمال الزراعة بعد تدريبهم، لتوفير أجور الفلاحين الأنفار.

لاحظنا أن الفلاحين من أصحاب الأراضي كانوا يتواصلون مع المساخيط العاملين في الحقل بالطريقة نفسها التي اعتادوا التفاهم بها مع حيواناتهم، أي بالعصا والسوط، فيبدو أن هذه هي لغة «الأوامر» التي يعرفونها ويستخدمونها لتسخير الحيوانات.. تعلموها في الماضي من المستعمر واستخدموها مع الحيوانات، والآن يعيدون استخدامها مع العبيد الجدد.

ونتيجة لما حدث، فقد قرر الفلاحون الأجراء التدخل والانتقام لمصالحهم، لكنهم فعلوها أيضا بالطريقة القديمة التي يعرفونها. واختاروا وقت الظهيرة، حين يتوقف العمل للاستراحة وتناول الطعام، ويوضع الطعام للمساخيط. وفي ذلك اليوم ظهر ذلك التسمم الجماعي للمساخيط وماتوا بعدها. إنها عادة تسميم البهائم المعتادة، التي تظهر عند وقوع نزاعات في القرى.. وكانت هذه هي المذبحة التي مات فيها عدد كبير من المساخيط بالسم.

هؤلاء المساخيط الضحايا كان يمكن علاجهم من التسمم، لكن الفلاحين الملاك لم يحاولوا، لم يبحثوا عن طبيب بيطري، ربما تقززوا من منظر القيء الأحمر، وربما اعتبروا الأجساد الهامدة دليلا واضحا على الموت فدفنوهم وبعضهم ما زالوا أحياء كما أكد بعض الشهود.

# فؤاد

هل تهددوننا؟ ما أسلحتكم؟ ماذا تريدون منا؟ ماذا نريد نحن؟ نريد بعضا من أسلحتكم.. أعطونا بعضها لنهدد نحن بها الآخرين.

كان هذا هو فحوى الاستجواب الذي خضعت له سيرين كما عرفت فيما بعد.

لحسن الحظ كان هناك بعض الجهات العلمية في هذا الاستجواب، وإلا لطغى عليه الطابع الأمني، وربما تحول إلى تعذيب خالص، خاصة في غياب أي قانون يحميها. هذه الجهات العلمية هي التي اهتمت بالجوانب الأخرى مثل اللغة والتاريخ والثقافة..

كيف عرفنا بالاستجواب؟

هم نشروا كل شيء.. انتقوا بعض ما استخرجوه من سيرين ونشروه إعلاميا في سياق التفاخر بتحقيق تقدم وسبق عالمي نحو معرفة وفهم هؤلاء «الضيوف». خطوة في صالح تلك الجهة الجديدة التي كانت في طور التكوين، وبدأ اسمها يتردد، من قبل حتى الإعلان عن تشكيلها رسميا: الوكالة الدولية لأمن الكوكب.

صحيح أن بعض هذه المعلومات كنت قد نشرتها بنفسي من قبل على قناتي، مثل قدوم المساخيط إلى كوكبنا لاجئين، هربا من كارثة تعرض لها كوكبهم.. أما طريقة تكاثرهم (عن طريق البيض، لا الولادة)، وطعامهم، وكيفية وصولهم إلى كوكبنا، والسفر لمسافات هائلة في الفضاء بهذا البيض الذي كان تجميده أسهل من تجميد

أجساد حية، والروبوتات الصغيرة النطاطة، التي ترعى البيض وتنقل لهم بعد الفقس ذاكرة جمعية مختزنة لديها، ليعرفوا تاريخهم.. كل هذه أمور نُشرت من قبل.. ارتبط اسم الصحفي والإعلامي وائل نصيح بكشف بعضها، وأعدتُ أنا عرض بعضها في حلقاتي، لكن هنا تأتي هذه المعلومات بشكل رسمي من هذه الوكالة الدولية، وتُعلن من التلفزيونات الرسمية وتُبث وتترجم عبر وكالات الأنباء مصحوبة بفيديوهات حصرية ومصورة بعناية مع سيرين، تظهر في لقطات بدون صوت، وهي تتحدث مع خبراء الفريق العلمي المختص، بلغة الاشارة أو بالكلام أو بالكتابة، ثم تعلن بعض التفاصيل التي قد لا تكون ذات قيمة كبيرة لكنها رنانة وستحقق الانتشار المطلوب، مثل اسم الكوكب (دوجونجواد)، وعدد قاراته وعدد سكانه..

وهكذا تُنتقى المعلومات بعناية وتُطلق على دفعات لتُبقي الأمر مشتعلا. يُوظف الأمر إعلاميا بإتقان لتلميع الوكالة الوليدة.. يخرج رئيسها ويتكلم كل فترة ويبوح بالمزيد من المعلومات التي يتلقفها الجميع.. وهكذا يقتنع الجميع بأهمية هذا الكيان وبدوره المهم..

ووسط خطاباتك هذه التي يشاهدها الجميع يمكنك بث الرسائل التي تريدها.. يمكنك تلميع الأنظمة التي تدعمك وإدانة الآخرين وإظهارهم بمظهر المتخاذل ولو بشكل غير مباشر..

إنها «البروباجندا» بقواعدها المعروفة..

العالم كله ينظر إليك ويشاهد قنواتك، فكيف لا تستفيد من هذا؟

صدّر صورتك كما تريد لها أن تكون، أرسل الرسائل المعلنة والخفية، سوّق لنفسك ولأصدقائك وحلفائك، روّج لأفكارك ولأجندتك الخاصة، بل واحصل على تمويل من حقوق الإعلان المدفوعة في خلفيات المؤتمرات، للمشروبات الغازية والأحذية الرياضية والسيارات...

د. عزيز وصفي استفاد من كل هذا، بظهوره في لقطات متكررة وسط الفريق البحثي الدولي.. صعدت أسهمه واكتسب أهمية إعلامية كبيرة، برغم أنه لم يسهم في تحقيق أي انجاز أو تقدم علمي.. لكن من قال إنه يهتم؟ لقد حصل على اللقطة التي كان يسعى إليها.

لكن الأمر تعدى كل ذلك.. العالم كله صار يتكلم عن سيرين، لتصير أشهر مسخوطة في العالم.

ولأن الفيديوهات المنشورة شوهدت ملايين المرات، فإن بعض المدققين على الإنترنت رصدوا علامات سوء معاملة لسيرين: علامات إرهاق وسواد تحت العينين تدل على قلة النوم وربما الحرمان منه، وعلامات زرقاء في الوجه قد تكون آثار ضرب أو تعذيب، وآثار مثل الكدمات على المعصم وكأنها آثار لقيود حديدية.

هل تتعرض سيرين لمعاملة سيئة؟.. ثم، الأهم: أين هي الآن؟ ولماذا هي رهن الاعتقال؟

هذه أسئلة طُرحت على الإنترنت، أثارت موجات من الانتقادات والتحفظ حول طريقة تعامل الوكالة الدولية مع سيرين. ونتيجة للضغوط الشعبية في دول عديدة، تحركت وفود وفرق بحثية وانضمت إلى سلسلة الحوارات

المستمرة مع سيرين. والحق يُقال إن هذه الوفود أضافت الكثير وأفادت الكثير من الحوار مع سيرين. سيرين هذه صارت بمثابة حجر رشيد الذي أوصلنا لأول مرة بلغة المساخيط، ومدَّ جسر التواصل بيننا، فالأمر بالنسبة لهم لم يكن يتعلق بسيرين نفسها وإنما بشفرة اللغة.

لم ينسب أحد لي - أو لليزا - الفضل الذي نستحقه في ذلك، لكن ذلك لم يكن ما أفكر فيه. والحق أنهم قاموا بالكثير بعدنا.. أخذوا طرف الخيط، وجمعوا خبراء ومتخصصين في علوم اللغات والتواصل، وهكذا راحت الفرق تعمل على استخلاص مفردات وقواعد وأساسيات لغة المساخيط وكل الترجمات المتاحة وتغذية أنظمة ذكاء اصطناعي بها، وتطوير تطبيق ذكي قادر على الترجمة منها وإليها، ثم استخدام سيرين نفسها لتحسين أداء التطبيق.

هكذا جمعوا عشرات.. مئات.. آلاف التسجيلات، لمساخيط آخرين ومرروها عبر التطبيق لترجمتها، ثم عرضوا النتائج على سيرين لتأكيد صحتها أو رصد الأخطاء لتحسين أداء التطبيق.

(هذا التطبيق نفسه نُشر للعامة فيما بعد، وصار أداة تواصل بين عموم البشر وعموم المساخيط).

وفي هذه المرحلة صارت الصورة التي تُصدّرها (الوكالة) مختلفة، لكنها ظلت في السياق المطلوب.. صارت الوكالة هي التي ترعى وتحتضن أحدث تجارب يجريها أعلى وأرقى فريق علمي بحثي في العالم، يضم علماء حاصلين على نوبل، وباحثين وخبراء من شركات عملاقة مثل جوجل وأمازون ومايكروسوفت..

ولهذا صارت المُخرجَات الإعلامية في المرحلة التالية مختلفة (ذكرتني كذلك بمنجزات الحملة الفرنسية على مصر)، إذ ركز العلماء وقتها على التحاور مع سيرين فيما يخص الحضارة بشكل عام: الثقافة والفنون والتاريخ والأديان.. العادات والتقاليد وطرق التعليم والاقتصاد، ونظم الحكم عندهم، وتاريخهم الحضاري والسياسي..

لا نتوقع طبعا أن يكون فرد واحد ملمًّا بكل هذا، حتى ولو سيرين.. لكنها كانت تعرف الكثير.

في هذه الأثناء نشر فريق البحث العالمي متعدد الجنسيات فيديو يتضمن حكاية شعبية فولكلورية روتها لهم سيرين كعينة نتذكرها من تراثهم الشعبي. حكاية كانت قد ذكرتها لي من قبل، لكنهم نشروها بالتفصيل..

وانتشرت هذه القصة عالميا مثل.. مثل التريند!

نُشرت القصة وطُبعت عشرات المرات، لكنني احتفظت بالنسخة التي نُشرت قبل التريند في ملحق خاص صدر مع جريدة أخبار الأدب المصرية، إذ كانت نسخة دقيقة دون تصرف أو تحريف.

# ساندي

# قصة فولكلورية

# من شعب دوجونجواد

روتها: سيريناتيس (سيرين)

في بلاد بعيدة بعيدة عاشت سيدة مع بناتها الثلاث. في الحقيقة كانت اثنتان منهما فقط هما ابنتاها (باليا) و(خاليا)، أما الثالثة فكانت ابنة زوجها الراحل من زوجته الأولى، وأما اسمها فيمكن ترجمته إلى «ساندي» (وهو اسم قريب من الاسم الأصلي في لغة دوجونجواد، وسببه أن لون بشرتها كان مثل لون الرمال).

كانت (ساندي) أكبرهن، وكان لون بشرتها مختلفا عن بشرة الأم والأختين، ولذلك كانت بالنسبة لمعظم الناس تُعتبر دميمة، برغم أن ملامحها - في رأي أبيها، قبل أن يموت - هي الأجمل بين كل البنات في العالم.

ولأن الأب كان يعرف جيدا أن فرصتها ضعيفة في الزواج فقد أوصى لها بملكية بيته بعد زواج البنتين (باليا) و(خاليا)، وكتب عقدا رسميا بذلك، لكن الزوجة اللئيمة بحثت عن العقد ومزقته فور وفاته.

الأختان (باليا) و(خاليا) - على العكس من ساندي - كانتا بيضاوين كالثلج، فاتنتين، ولكن من الخارج فقط.. وكانت الأم والفتاتان يكرهن ساندي ويعاملنها أسوأ معاملة.

عاشت ساندي مع الأم وابنتيها كالخادمة، يكلفنها بكل أعمال البيت، ويتركن لها بقايا الطعام، أما النوم فإنها تنام في المطبخ أو في القبو الرطب على الرمال، التي تشبه بشرتها، مع الفئران التي لا تختلف عنها.

وفي يوم انتهت ساندي مبكرا من أشغال البيت، وأخذت بقايا الطعام التي هي غداءها، وانضمت لهن على المائدة لتأكل معهن، فنهرتها الأختان، واستنكرتا أنها تساوي نفسها بهنّ، وخرجت ساندي وجلست وحدها أمام البيت تبكي تحت الشجرة الكبيرة.

وهنا ظهرت لها جنية طيبة، جاءتها ترفرف، وسألتها عما يبكيها، واستمعت لقصتها وطيّبت خاطرها، ثم أعطتها ثمرة كبيرة تبدو مثل التفاحة تماما لكنها ضخمة ولونها الأحمر شديد الصفاء، وقالت لها الجنية أن تأكل نصف التفاحة فقط كل مرة.

- كل مرة؟

- نعم، وعندما تعودين في موعد الوجبة التالية ستجدين التفاحة عادت كاملة كما كانت، لتأكلي نصفها من جديد.

فرحت ساندي وأخذت التفاحة وأكلت منها، فكانت لذيذة جدا.. أكلت أقل من نصفها وشبعت، ثم عادت للبيت سعيدة مشرقة كما كانت من قبل.

وهكذا صارت ساندي كل يوم في مواعيد الطعام تخرج من البيت وتجلس تحت الشجرة وتُخرج التفاحة من كيسها وتأكل نصفها ثم تعود شبعانة مسرورة، ثم لا تمسّ بقايا الطعام التي يتركنها لها.

تعجبت زوجة أبيها وابنتاها (باليا) و(خاليا) من (ساندي) التي صارت لا تأكل تقريبا.

وخرجت (باليا) في اليوم التالي تراقبها، فرأتها وهي تأكل التفاحة، فأخبرت أمها بالسر. وفتشتها الأم وأخذت منها التفاحة الكبيرة، ووبّختها على سرقة التفاحة التي تخص العائلة كلها، ولا بد من تقسيمها.

وقطعت الأم التفاحة وأكلتها مع (باليا) و(خاليا)، ثم ألقين القلب والبذر إلى ساندي، وهن يضحكن.. أخذت ساندي القلب والبذر وخرجت في حزن.

ظهرت لها الجنية مرة ثانية، وسألتها عما يبكيها وسمعت قصتها وطيبت خاطرها، ثم أخبرتها بأن تزرع تلك البذور في الأرض، وترويها من ماء النهر. ففعلت ساندي والجنية أمامها تراقبها حتى انتهت، ثم أشارت الجنية بعصاها، فنبتت من الأرض شجرة، وفوق الشجرة نبتت تفاحة واحدة.

طلبت منها الجنية أن تهز بجذع الشجرة. هزتها ساندي فسقطت التفاحة. أشارت لها الجنية بأن تأكلها فأكلتها، فنبتت ثمرة أخرى على الشجرة.. كانت برتقالة هذه المرة.

ضحكت ساندي فَرِحةً، وهزت الشجرة فسقطت البرتقالة. أكلتها ساندي فأنبتت الشجرة عنقودا من العنب!

وهكذا ظلت تهز الشجرة وتأكل ما يسقط منها حتى شبعت.

ورجعت ساندي إلى البيت شبعانة فرحانة.

ولم تأكل ساندي بقايا الطعام الذي تركنه لها، وصارت تخرج في مواعيد الطعام وهن يأكلن، وتخرج هي لتأكل من الشجرة.

ثم إن (خاليا) خرجت خلفها في أحد الأيام لتراقبها، فرأتها وعرفت سرها، وأخبرت أمها.. فغضبت الأم ونهرتها، وقالت إن هذه الشجرة ملك للعائلة، ويجب تقسيمها فيما بينهم.

وخرجن ينظرن للشجرة التي كانت (خاليا) قد رأت (ساندي) وهي تقطف منها الثمار. كان على غصنها تفاحة واحدة. هزت الأم الشجرة فلم تسقط التفاحة.. هزت (باليا) الشجرة فلم تسقط التفاحة.. هزت (خاليا) الشجرة فلم تسقط التفاحة. غضبت الأم فأرسلت تستدعي الحطاب ليقطع الشجرة.

عرضت عليها ساندي أن تهز هي الشجرة، لكنها رفضت في كبرياء، وأصرت على أن يقطعها الحطاب.

وبالفعل جاء الحطاب وقطع الشجرة، وأخذت الأم التفاحة من الشجرة، التي لم تنبت شيئا بعدها وهي مقطوعة.

أخذت الأم والفتاتان التفاحة يرمينها لبعضهن وهن يضحكن، وتركن ساندي ودخلن إلى البيت.

جلست ساندي على جذع الشجرة المقطوعة تبكي.

جاءت الجنية وسألتها عما يُبكيها وسمعت قصتها وطيّبت خاطرها، ثم طلبت منها أن تأخذ من أوراق وغصون الشجرة المقطوعة وتقف في الهواء وتمد يدها إلى الأمام

وتغني.

غنت ساندي بصوت عذب، فوجدت أمامها عنزة قد جاءت من مكان ما، واقتربت منها لتأكل من يديها.

راحت العنزة تأكل الأوراق الخضراء من فرع الشجرة حتى شبعت، ثم بدأ لبنها يسيل.. أسرعت ساندي وأحضرت إناءً لتتلقى فيه اللبن من العنزة، ثم راحت تشرب من لبنها حتى شبعت، ثم عادت إلى البيت شبعانة فرحانة.

وظلت ساندي تعمل وتنام، ووقت الطعام تذهب إلى الشجرة المقطوعة فتُطعم العنزة وتحلب لبنها وتشربه، ولا تمّس بقايا الطعام الذي يرمينه لها.

شكّت الأم فيها لأنها لا تأكل تقريبا، نخرجت خلفها تراقبها، فرأتها وهي تحلب العنزة وتشرب لبنها وعرفت سرّها، فغضبت بشدة وأخذت منها العنزة وقالت إن هذه العنزة تأكل من أرضنا فهي ملك لعائلتنا، ولذلك يجب تقسيم لبنها علينا. لكن الأم عندما حاولت أن تحلب العنزة لم ينزل منها اللبن.

حاولت (باليا) و(خاليا) فلم تفلحا كذلك.

عرضت ساندي عليها أن تحلبها لهن، لكنها رفضت في كبرياء، وذبحت العنزة وطبختها وأكلتها مع ابنتيها، ثم إنهن ألقين بالعظام إلى ساندي، لتستخرج ما بها من بقايا اللحم ثم ترميها للكلاب.

أخذت ساندي عظام العنزة، وخرجت بها تبكي في ضوء القمر.

جاءت الجنية الطيبة فسألتها عما يُبكيها، وسمعت قصتها وطيّبت خاطرها، ثم أخبرتها بأن تسمع كلام زوجة أبيها، وتطعم عظام العنزة للكلاب.. وفعلت ساندي، رمت عظمة إلى كلب قريب، فاقترب كلب آخر رمت له عظمة، فاقترب كلب ثالث، فرمت لهم بكل العظام.. وأكلت الكلاب العظام.

انتظرت ساندي أن يحدث شيء لكن الجنية أشارت لها بأن تعود للبيت وتترك الباب مفتوحا.

عادت ساندي وخلفها الكلاب الثلاثة.

ذهبت ساندي إلى القبو لتنام. وبعدها دخلت الكلاب من باب البيت وقد صارت أكبر وأكبر، وعيونها صارت مشتعلة بالنار كأنها براكين، أنيابها طالت كأنها ذئاب، صوتها كأنه الرعد. البعض يقول إنه كان كلب واحد بثلاثة رؤوس، والبعض أكد أنهم كانوا على الأرجح ثلاثة كلاب.

دخل كل كلب غرفة مختلفة. الكلب الأول دخل غرفة (باليا)، والكلب الثاني دخل غرفة (خاليا)، والكلب الثالث دخل غرفة الأم. هجمت الكلاب عليهن، وطاردتهن حتى خرجن من البيت وهن يصرخن من الرعب، ثم وقفن هن الثلاثة خارج البيت، فهدأت الكلاب، ووقفت لهن بالمرصاد أمام الباب، تمنعهن من الدخول.

ذهبت الأم لتحضر خفيرا مسلحا ليقتل هذه الكلاب، لكن الخفير الذي جاء لم يرَ شيئا. كل المسلحين ورجال

البوليس ورجال العصابات لم يروا هذه الكلاب. لكن بمجرد أن تقترب واحدة من الثلاثة، الأم وابنتيها، من البيت تشتعل عيون الكلاب من جديد وتزمجر وتعود للهجوم عليهن.

حاولت الأم أن تطلق النار على الكلاب بنفسها فلم يصبها أذى. وهكذا ظلت الأم وابنتاها (باليا) و(خاليا) في الشارع ثلاثة أيام. وعندما لم يجدن حلا قررت الأم أن تبيع البيت، ثم ترحل مع ابنتيها إلى بلد أبيها.

ذهبت الأم إلى السمسار، الذي ذهب معها لمعاينة البيت، فوجد الكلاب المخيفة تهاجمه، فهرب خائفا.

بحثت الأم عن سمسار آخر، فحدث معه الشيء نفسه.

وظلت هذه الكلاب هناك أمام البيت، لا يراها إلا الأم وابنتاها وكل من يفكر في شراء البيت.

ولم تجد الأم حلا إلا الرحيل مع ابنتيها وترك البيت إلى ساندي.

أما ساندي فلم تحتج إلى الجنية بعد ذلك.

كانت تعرف كيف تزرع الأرض وكيف تعمل، وكيف تبيع وتشتري، وقلبها المليء بالحب ظل يشع نورا ويجلب لها الخير والمحبة كما جلب لها الجنية من قبل.

***

## فؤاد

قصة (ساندي) هذه تُرجمت إلى كل اللغات تقريبا، وأعيدت صياغتها ومعالجتها ورسمها مرات ومرات، وتناولتها أقلام عديدة بالبحث والتحليل.. والبعض اعتبرها رسالة استغاثة من سيرين، لكنها كانت مجرد نظرية انتشرت لبعض الوقت ثم اختفت..

تحولت القصة، في معالجات مختلفة، إلى روايات مصورة ثم أفلام كرتون قصيرة.. إلى أن أعلنت شركة ديزني عن تحويلها إلى فيلم رسوم متحركة بإنتاج سينمائي ضخم.

لا بد أن سيرين ستبتهج عندما ترى كل هذا..

لكن أين هي الآن؟ لا أحد يدري..

برغم أنها كانت المحرّك الذي بدأ كل هذا، فإن سيرين ظلت حتى هذه اللحظة مجهولة المكان.

# منى

هذه الفترة قضاها بابا في صمت تام.

قبل ذلك كان عنده ما يقوله عن المساخيط، خاصة عندما كانت سيرين معنا هنا وكان يعرف منها الكثير، أما الآن فإنه صار بالكاد يتابع ويستوعب ما يحدث وما يقال..

(جاد) أو (جادروبيت) كان هنا صامتا كعادته، لكنه كان يتابع ويرمقنا بنظرات اتهام صامتة. نظراته كانت مؤلمة مزعجة، خاصة لبابا، الذي كان يشعر أصلا أنه مسؤول بشكل ما عن اعتقال سيرين.

لكنني تمنيت أن يتوقف (جاد) عن النظر لنا بهذه الطريقة.. تمنيت لو نطق وصرخ فيّ أنا واتهمني صراحة..

أريد أن أرد.. أن أدافع عن نفسي.. لكن (جاد) لم يتكلم..

لم أستطع الصمت أكثر من ذلك. قلت لبابا:

- بابا! وماذا بعد؟

- ماذا؟

- سيرين! خلاص؟ انتهى أمرها؟

وكأنه كان ينتظر كلمة حتى ينفجر..

- وماذا بيدي؟ ماذا أفعل؟

- أي شيء يا بابا، أي شيء.. نحاول.. سيرين صارت واحدة منا، وتركها هكذا هو تخلٍّ عنها..

- أنا لم أتخلَّ عنها، وما كنت لأتركهم يأخذونها لو كان الأمر بيدي.. بل.. لو كنت أعرف أن هذا سيحدث لها ما كنت تكلمت عن المساخيط أصلا ولا صورت حلقة واحدة..

واختنق صوته وهو يقول:

- آسف يا منى.. ما حدث لم يكن بيدي.. سيرين واحدة منا فعلا.. وما كنت لأتركها.. والله لو كنت أقدر...

وانفجرتُ باكية رغما عني..

- ماذا بك يا منى؟ قولي لي..

- أنا السبب.. أنا السبب يا بابا.. ليس أنت!

حدق فيّ مشدوها، فواصلت:

- هل تعرف كيف عرفوا بوجود مسخوطة مثلها في بيتنا؟

- لا.. لكني قلت أكيد خمنوا.. بعد حلقاتي عنهم و...

- لا.. عرفوا منّي أنا..

- ولو.. كثيرون لديهم مساخيط في بيوتهم، وهذا لم يكن...

- أنا عرضت كتابات ورسومات سيرين على دكتور عزيز..

- أنتِ يا منى؟

- لم أكن أتصور أن كل هذا سيحدث.

تصاعد بكائي في عنف.

احتضنني فدفنت وجهي في صدره. ربت عليّ وقال:

- اهدئي يا منى، احكي لي ما حدث بالضبط، ولا تقلقي سأتصرف.

رفعت عينيّ الدامعتين له وقلت:

- سأحكي لك.. لكنني أنا التي سأتصرف.

- كيف؟

- أنا أعرف ما يجب فعله. أنا أفسدت الأمر وعليّ إصلاحه.

***

هذه المرة لم تكن هناك رهبة.

لأول مرة أقف أمام الدكتور عزيز دون انبهار. لأول مرة أراه شخصا عاديا، مجرد رجل طامع مستغل أناني، يستغل منصبه وعلاقاته وسلطته لمصلحته الخاصة.

لم تكن هناك رهبة، كنت أشعر فقط بالغيظ والغضب.. وربما ببعض الاحتقار كذلك.

قاومت رغبتي العارمة في أن أصفه لنفسه وأكشف له حقيقته، إن لم يكن يعرفها بالفعل، على الأقل ليعرف كيف أراه أنا.

سألته عن سيرين ببرود، فرد بعفوية بتعليق مرح وهو يقلب في أوراق أمامه، فكررت سؤالي بالحرف وبتصميم. رفع عينيه إليّ ونظر لي بتساؤل وقد انتبه إلى لهجتي ونظرة

الاتهام على ملامحي، فاعتدل جالسا يواجهني. قال ببرود:

- تريدين الاطمئنان عليها؟ اطمئني، هي بخير.

- بل استعادتها. نريد عودتها لبيتها.

- آه! هذا صعب.. لكن لو تريدون ثمنها فـ..

- ثمنها؟ أهكذا تراها؟

قلتها باستنكار كأنني أبصق.

- لست أنا فقط.. العالم كله يراها، ويراهم كلهم هكذا.. ثم من أنتِ لتحاسبينني؟

- أنت خدعتني يا دكتور!

ضحك. ثم قال وهو يرمقني بنظرة قاسية:

- أنتِ التي جئتِ لي.. لم أسألكِ عن شيء، ولم أطلب منك شيئا.. هل تتذكرين؟ ماذا توقعتِ مني؟ أن أهتمَّ بكِ؟

احتقن وجهي ولم أستطع النطق.. ثم قلت بصوت متحشرج وقد تذكرت شيئا:

- أنت.. أنت تعمدت أن تقول هذا أمامي في المحاضرة..

قال مبتسما بثقة، وكأنما يعترف ويفخر بما صنع:

- قلت ماذا؟

- كان نخا.. أليس كذلك؟ من أخبرك؟ دعني أخمن.. عمرو؟

انقلبت ملامحه، وقال بلهجة رسمية:

- كفى! المسخوطة ليست عندي يا آنسة.

- وأين هي؟

قال في تحدٍّ:

- في الوكالة الدولية لأمن الكوكب، فرع الشرق الأوسط، قسم الأبحاث العلمية، بعثة أبحاث المساخيط في البحر المتوسط.

قالها بنبرة شماتة وهو يضغط على حروف كلماته وكأنما ليرهبني. ثم أضاف:

- تفضلي اذهبي لزيارتها وطالبي بها.. أو بثمنها.

تركته وانصرفت. هو يخبرني بهذه المعلومات متبجحا، لكن هذا بالضبط ما كنت أسعى إليه.

ولم أنتظر حتى أرجع للبيت. اتصلت ببابا وأخبرته بكل هذا.. بمكان سيرين.

تمتم مفكرا:

- البحر المتوسط؟ هكذا إذن!

قلت بلهفة:

- هل لديك وسيلة للوصول لها؟

قال بحزم:

- سأجري بعض الاتصالات.

## ليزا

أنا لم أعد طفلة ولا أحتاج إلى جليسة أطفال.

لكنني أفتقد سيرين.

متى ستعود سيرين؟

أسألهم جميعا ولا أحد يجيبني.

هذا أسوأ شيء يفعله الكبار.. يخفون الكثير من الأشياء ويرفضون الإجابة على الكثير من الأسئلة.. أو يجيبون بالصمت. والصمت ليس إجابة!

# (سيداجا)، أو مسخوطة الطريق الصحراوي

## نقلا عن موقع (المفاتيح)

(سيريناتيس)، أو المسخوطة سيرين، أو سيرين الزرقاء قالت عنها: سيداجا كانت أختي وصديقتي. نشأت معها منذ فتحت عيناي على الدنيا.. رفيقة حنون مرحة، كانت تلعب معي وتساعدني وتتشاجر معي وتحبني، ولم نكن نفترق أبدا. وعندما ضللت طريقي، قبل لقائي بليزا وأسرتها، كان أكثر ما يقلقني هو سيداجا، ماذا ستفعل حينما لا تجدني؟ فالحمقاء تعتبر نفسها مسؤولة عني، برغم أنها في مثل سني تقريبا، إلا أنها تعاملني كأنها أمي.. لكننا وقتها كنا تائهتين في هذا العالم، خاصة قبل كسر حاجز اللغة. وحين خرجتُ من الاحتجاز، بحثت عن سيداجا وعرفت أنها هي «مسخوطة الطريق الصحراوي».

البداية كانت عند المعلم سعد عابدين، صاحب مزرعة أغنام صغيرة ومقهى في استراحة على الطريق الصحراوي جنوب الفيوم.

كان المعلم سعد متزوجا ولديه أولاد، لكن زوجته كبرت في السن وصارت مريضة زاهدة في العلاقة الزوجية، وبرغم أنه مقتدر ماديا، فإنه لم يستطع أن يتزوج عليها لأنها شريكة في تجارته، ولن يعجبها أبدا أن يتزوج عليها. فكر الرجل أن «يلعب بذيله»، وكاد أن يفعلها، ثم تراجع خوفا من الإثم العظيم لهذا الفعل. وراح يبحث عن طريقة للزواج السري من بنت «منكسرة» مضمونة، يمكنه

أن يثق في أنها لن تفضح سره بعد قليل.

وعندما ظهر المساخيط، ورأى الحاج سعد صورا وفيديوهات لإناثهم على هواتف بعض أصدقائه، أعجبنه وقرر أن يجرب. بحث وتقصى حتى وصل إلى وسيط لتجارة وتوريد المساخيط، فأوصاه باصطياد مسخوطة أنثى له، على أن يكون الأمر سرا.

أخذها المعلم سعد وخصص لها «عشّة» نائية في مزرعته، وربطها من قدمها بسلسلة في ركن مخصص أصلا للمواشي، ثم راح يتردد عليها ليلا يقضي منها وطره ثم يرحل، تاركا لها بعض الماء والخبز الجاف والحشيش الأخضر. وحين شعر أنها تحتاج إلى تنظيف أحضر خرطوم الماء وسكب عليها مسحوق غسيل وغسلها به بماء بارد.

هل كان يعاملها كامرأة أم كبقرة؟

لو كان يفكر فيها كبقرة فلماذا كان يضاجعها؟ ولو كان يراها امرأة فلماذا كان يربطها في الزريبة، ويطعمها العلف والبرسيم، ويغسلها بخرطوم الماء ومسحوق الغسيل؟

المهم أن المعلم سعد سافر يوما إلى أداء العمرة. وفي هذا الوقت وضعت سيداجا بيضها في الزريبة.. ٣ بيضات. وكانت قد بدأت تخطط للهرب، فراحت تحتفظ بأي شيء في المكان تصل إليه يدها وتخفيه، حتى حصلت على حبل وعصا وأدوات مختلفة استخدمتها بعد ذلك في جرّ صندوق خشبي كان في آخر الغرفة، وفيه وجدت وتدا حديديا حطمت به القفل وهربت تاركة البيض في الزريبة.

كانت في حالة يُرثى لها، جريحة شبه عارية. وحين شوهدت في الخارج طوردت ورُجمت بالحجارة.. قيل إن الذين فعلوا ذلك بها كانوا يعبثون.. وقيل إنهم كانوا خائفين منها.. المهم أنها ماتت، وعُثر على جثتها ملقاة على الطريق الصحراوي.

***

الجزء التالي من القصة عرفناه من أهالي المنطقة التي يسكن فيها الحاج سعد.

أثناء سفر المعلم سعد عثرت زوجته على عدد من المساخيط الصغار في الزريبة، ولم تفهم في البداية ما هذه الكائنات، لكنها كانت امرأة قروية أصيلة ولم تكن المرة الأولى التي ترى فيها كائنات هجينة هكذا.. رأت من قبل في السوق بعض حيوانات «خنازير غينيا» تُباع على أنها سلالة من الأرانب، وكان الناس يطلقون عليها «أرانب فئران»، وبرغم ذلك كانوا يأكلونها.. ومرّت عليها كذلك سلالات غريبة من الخراف ذات ذيول صغيرة كذيول الماعز.. لهذا فإن الحاجة هنية لم تتوقف كثيرا عند غرابة شكل هذه الكائنات، واعتبرتها نوعا جديدا أو سلالة جديدة من الحيوانات، خاصة وأن زوجها الحاج سعد يحتفظ بها في الزريبة.. ولو أنها تعجبت من أنه لم يخبرها بأمرها لتعتني بها خلال سفره.

وعندما سألت الحاجة هنية معارفها عن هذه الكائنات أخبرها بعضهم أنه سمع عن هذه الحيوانات الجديدة التي بدأت تنتشر ولها صيادون متخصصون، وتباع لحومها بأسعار عالية نظرا لندرتها. وكان هذا كافيا لها.. هذا نوع

جديد من اللحم، لكنه كغيره يُطبخ ويُحمر ويُشوى.

هكذا ذبحت المساخيط الصغار، خاصة وقد فشلت معظم محاولات إطعامهم، وخشيت أن يموتوا.. وهكذا ضمت لحوم هذه المساخيط للوليمة التي أقامتها استقبالا للمعلم سعد، الذي عاد من العمرة بلقب «الحاج سعد»، وجلس يأكل اللحم المشوي ووجهه مشرق بالإيمان كما قالت الحاجة هنية.

أكل الحاج سعد بشهية من اللحم والفتة، مع ضيوفه من الأهل والأحباب الذين جاءوا يستقبلونه ويحتفلون بعودته، وامتدح الحاج سعد اللحم وأثنى على طبيخ الحاجة هنية، فقالت إنها ذبحت «البتوع» الذين كانوا في الزريبة القبلية.. انحشرت اللقمة في حلق الحاج، وسألها:

- البتوع؟

- المساخيط.. أنت وضعتهم هناك.. صح؟ لماذا لم تخبرني؟

- كانوا.. كم واحدا؟

- ثلاثة.

- ثلاثة؟

- ثلاثة صغار..

- صغار؟

- نعم.. أعتقد أنهم رضع.. لم أستطع إطعامهم و...

وفهم الحاج سعد.

- أوووع!

وتقيأ الحاج سعد أمام الضيوف، وظل بعدها يعاني وعكة صحية مجهولة، ألزمته الفراش لأكثر من أسبوع، واكتئاب لازمه حتى الآن.

## منى

لم أتمالك نفسي عند رؤية سيرين، وانفجرت في البكاء. كانت في حالة يرثى لها فعلا. كانت معتقلة حقا.. وأنا السبب.. وهي تحتضنني كأنني صديقتها.. ماذا لو عرفت؟

ليزا انطلقت نحوها بتلقائية وبراءة واحتضنتها.. ثم جاء بابا بعدنا فصافحها فقط ولم يحتضنها..

ماما لم تكن لتقدر على هذا المشوار، لكنها أوصتنا بإبلاغ سلامها إلى سيرين.

لشد ما تغيرت سيرين.. لشد ما تأثرت بما حدث.. كانت بائسة مكتئبة. لم تبتسم.. نطقَتْ فلم أسمع فرقعة صوتها المميزة. لكنها كانت تتحدث الإنجليزية جيدا.. كان هذا أفضل طبعا من عربيتها البائسة ومن لغة الإشارة التي لا يفهمها جيدا إلا بابا.. لكن كيف؟

سألها بابا بالإنجليزية كيف تعلمتها بهذه السرعة؟ فقالت إنهم أخضعوها لبرامج تدريب مكثفة، طورها خصيصا لها نخبة من الخبراء والمتخصصين في اللغات، واستفادوا فيها من عربيتها الركيكة، ولغة الإشارة.. والكتابة.. لم أعلق. قال بابا:

- واضح أنهم اهتموا بالأمر حقا..

قالت في مرارة:

- طبعا.. فأر تجاربهم الثمين!

رحت أتطلع إلى ملامحها وهي تتحدث.. وجهها بدأ يتغضن وكأنها قد كبرت سنين خلال هذه الأسابيع.

ليزا نفسها لاحظت، ومدت أصابعها تحسس تلك التجاعيد والهالات الداكنة، وسألتها ببراءة:

- ماذا يحدث لوجهك؟

نظرت إلى سيرين، فوجدتها تتبادل نظرة باسمة مع بابا.. كأنهما يتذكران شيئا.. قالت سيرين وهو تنظر له:

- هذا وجه شبه آخر.. التجاعيد..

لم أفهم.. نظرت لبابا متسائلة، فقال مفسرًا:

- كانت مناقشة قديمة بيننا.. عن أوجه الشبه والاختلاف بين البشر والمساخيط.

كانت كأي زيارة تخيلها لمسجون. وكان هناك حارس يرمقنا في خواء.

سألناها عن أحوالها، فقالت بوهن:

- أنا في زنزانة فماذا نتوقعون؟

حاولنا تلطيف الجو ببعض الدعابات.. حاولنا إعطاءها فكرة عما يحدث بالخارج.. بدت لي متماسكة برغم كل شيء.. حتى انتهى وقت الزيارة ونهضنا لنودعها.. عندها فقدت تماسكها وانفجرت في البكاء.

احتضنتها ليزا بشدة، وتشبثت بها وهي تبكي هي الأخرى.. أشار الحارس لبابا بحزم أن يأخذ ليزا ويخرج.. أشار له بابا مستعطفا وقال له بالإنجليزية في رجاء:

- دقيقة.. دقيقة واحدة فقط!

لكنه واجهه بوجه جامد ورفض قاطع.

قاوم بابا غيظه، وأخذ ليزا الباكية بين ذراعيه بصعوبة، وخرجنا..

في الخارج توقف بابا وطلب مقابلة المدير المسؤول هنا. أشار لنا الحارس بالانتظار في استراحة بالخارج، واقتاد بابا إلى مكان ما.

سألتُه حين عاد عمّا فعل.. هزّ رأسه وتمتم:

- لا أتذكر بالضبط ما قلت.. هل كانت جملا مفيدة أصلا أم لا، لكنني أتذكر أن المدير كان يرمقني بتفهم وتعاطف، ووعدني بحسن معاملتها.. لكن هذا كل ما لديه.. الموضوع أكبر منه بكثير.

- لكن.. أنت عندك علاقات واتصالات الآن.. ألا تعرف أحدا يمكنه أن.. يفعل شيئا؟

- حاولت.. المشكلة أن الوضع غريب.. هذه ليست دولة.. وسيرين لا يحميها أي قانون.. والوساطة لا تسري في كل مكان..

عندما رجعنا البيت دخلت غرفة سيرين وجلست أتأمل أغراضها بخيبة أمل..

هكذا انتهت قصتها إذن. كانت مجرد مسخوطة.. واحدة من جنس زار كوكبنا، عاشت في فترة زمنية لا يحميهم فيها قانون أو نظام، فاعتُقلت واستُخدمت كفأر تجارب حتى ذبلت..

ويوما ما ستموت في الظلام، هذا إن لم تُقتل أصلا بفعل تجربة معملية ما، وعندها لن يعرف بها أحد، لن يبكيها

أحد، لن يشعر أحد بما مرت به، ستضيع قصتها وفنها وأفكارها ومواهبها، سيطويها النسيان كأي فأر أبيض.

رحت أقلب في أعمالها.. رسومها.. أدواتها. كانت تستخدم هذه الأشياء لتعلم ليزا..

هنا خطرت لي الفكرة.. ليزا.. هي ليزا!

وجدت نفسي أهرول إلى غرفة ليزا.. ليزا كانت تحب التصوير.. ليزا لديها تابلت.

بعدها دخلت إلى أبي في غرفة مكتبه وأنا أحمل تابلت ليزا مفتوحا على مجلد ممتلئ بالفيديوهات والصور، تناوله منّي متسائلا، وراح يستعرض محتوياته.. وجلست بجانبه أشاهد معه بتأثر.. وبأمل.

هذه المواد قد تُغيّر كل شيء.

# فؤاد

قررت أن أعود أخيرا إلى بث حلقات جديدة من برنامجي (منظور آخر) على اليوتيوب.

ترددت أولا فيما يخص صور وفيديوهات ليزا، فتحدثت مع نادية، وعرضت عليها فكرة (منى).

رمقتني في شك لبعض الوقت، وكأنها تتحقق من نواياي، ثم إنها وافقت.. بل إنها بدأت تساعدني في أن نقوم بالتصوير حالا دون انتظار لمصور أو مونتير أو عامل إضاءة.. سنقوم بتصوير الحلقة في الأستوديو المنزلي القديم..

جلست أكتب سيناريو الحلقة، وبدأت أستعيد كل ما حدث مع سيرين من البداية، منذ ظهورها في الإعلام، وحواراتها مع الفريق البحثي الأول، ثم مع الفرق البحثية العالمية، ونتائج هذه المحادثات.

الدور الكبير الذي لعبته سيرين بتعاونها في مد جسر التواصل بين البشر والمساخيط.. النافذة التي فتحتها لنا على ثقافتهم وفنونهم، والأهم لغتهم، وهو ما سيسمح بالمزيد والمزيد من التعارف بيننا.. قد أستشهد هنا بالآية الكريمة من القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا».

في تاريخنا عشنا نحن البشر شعوبا وقبائل متباينة متناحرة، على مدى قرون، لا نتوقف صراعاتنا وحروبنا، وتطورنا أيضا، إلى أن وصلنا أخيرا إلى مرحلة غير مسبوقة في تاريخنا من التقارب والتفاهم.. بدأنا نحاول أن نتعلم

من اختلافاتنا وتعددنا ألا نتوقف عند هذه الاختلافات وأن نبحث عن مواطن الاتفاق والتشابه..

بدأنا نفهم أن الشعوب الأخرى ليست مختلفة إلى هذا الحد مهما بدا الأمر كذلك..

في الماضي كان الناس عندنا يتصورون أن الحياة في الغرب تهتك وانحلال على الملأ.

في الماضي كانوا يسألون العائد من أوروبا: «هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا؟».. «هل صحيح أنهم لا يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام؟».

كانوا يُدهشون حين يقال لهم إن الأوروبيين، إذا استثنينا فوارق ضئيلة، مثلنا تمامًا، يتزوجون ويربون أولادهم حسب التقاليد والأصول، ولهم أخلاق حسنة، وهم عمومًا قوم طيبون.

من جانب آخر كانوا عندنا يقولون «في أوروبا والدول المتقدمة يفعلون كذا..»، وكأنهم هناك يعيشون في يوتوبيا تخلصت من كل المشاكل. ثم جمعتنا العولمة وقرّبنا الإنترنت، ورأينا أن الجهل عند الغرب وباء منتشر كما هو عندنا. عندهم أيضا من ينكر كروية الأرض ويؤمن أنها مسطحة بقوة وبتعصب.

«وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا».

هذا هو الدرس الذي تعلمناه، والآن جاء دور درس جديد لنتعلمه.. شعب آخر شاء الله أن يأتينا لاجئا من كوكب آخر، فجاءت ثقافته أكثر اختلافا، لكنه شعب عاقل وأمة مثلنا تستحق احترامنا.

***

عندما ذكرت هذا الكلام في الفيديو لمحت وجه نادية يتقلص في امتعاض.. قطعت التسجيل وسألتها عما هنالك، فقالت ساخرة:

- خطابي أكثر من اللازم هنا.. كأنك تتقمص دور الواعظ!

تجاهلتها وأنا أفتح مقطع الفيديو التالي.. (في هذا الجزء نعرض مقطع فيديو لسيرين وبعض حواراتها مع الفريق البحثي الأول، ولقطة مقربة على آثار كدمات القيود في يديها).

واصلت كلامي:

- وكأنها مجرمة.. سيرين كائن عاقل له احترامه.. هي ليست حيوانا أو حشرة.. وهي لم ترتكب أية جريمة تستوجب احتجازها.. إن تقييد حريتها بهذه الطريقة هو انتهاك ضد الإنسانية وضد حقوق الإنسان.

***

بعدها عرضنا صورا وفيديوهات، بعضها من تابلت ليزا وبعضها سجلناه نحن بكاميرات هواتفنا.. فيديوهات تُظهر فيها سيرين وهي ترعى ليزا.. تحملها عندما تسقط نائمة وسط اللعب، ثم تريحها على فراشها برفق وتغطيها.. فيديو الموقف الدامي الذي أصيبت فيه وهي تبحث عن ليزا التائهة في السوق، وهو فيديو عثرنا عليه على مجموعة خاصة على فيسبوك خاصة بمنطقة حلوان.

***

انتهينا من تصوير هذه الحلقة، أنا ونادية، واتفقنا على أن تقوم هي بترجمتها إلى الإنجليزية ثم أقوم أنا بالمونتاج قبل رفعها.

رحت أراقبها وهي تعمل على الكمبيوتر باهتمام وتركيز. لا أتذكر متى كانت آخر مرة رأيتها فيها تندمج في عمل ما هكذا. ما زال جسدها نحيلا واهنا.. قد تسقط من الإرهاق والتعب الآن.. جسدها المريض لا يتحمل العمل والسهر لوقت طويل، لكنها كانت نادية القديمة.. عيناها تشعان حيوية كالأيام الخوالي.. اقتربت منها ووضعت ذراعي حولها.. التفتت لي بوجهها.. لم يتقارب وجهانا هكذا منذ زمن.. ما زالت هي نادية الحبيبة.. عظام وجنتيها بارزتان، وعيناها جاحظتان من النحول، والسواد تحت جفنيها، لكن روحها ما زالت هناك كما هي.. تحبني وتشعر بي وتقرؤني في صمت.. هاتان شفتاها، كعهدي بهما برغم الذبول.

كيف عميتُ عن كل هذا؟ غرقتُ في همومي الذاتية ومتاعبي الذكورية ونسيتها تماما، وهي هنا بجانبي.. ما زالت هي نادية حبيبتي.. معي ولا أراها. أحمق. حملتها إلى الفراش لتستريح، ولأرجع لها.

# القانون لا يحمي فئران التجارب

## نقلا عن موقع (المفاتيح)

الدكتور زياد نصري طبيب شهير صعد بسرعة في مجال الجراحة ونقل الأعضاء. الرجل ماهر وطموح، لكن البعض وصفه بأنه استعراضي بعض الشيء ومحب للظهور الإعلامي، وهو ما أفاده مهنيا بشكل كبير، لكن كفاءته لا غبار عليها، ونزاهته لم تخدش.. وأنت لا تستطيع اتهام أحد بالطموح، والنرجسية ليست ضد القانون..

الدكتور زياد حصل على شهادات من جامعات أوروبية، وعمل عدة سنوات في المملكة المتحدة قبل أن يعود لمصر ويفتح مستشفى بالشراكة مع صديق طفولته رجل الأعمال (يحيى خاطر)، الذي ساهم بالنصيب المادي الأكبر، بينما تولى الدكتور زياد رئاسة وإدارة المستشفى.

وعندما ظهر المساخيط لم يجد د. زياد صعوبة في العثور على من يورد له عددا من المساخيط، خاصة مع ازدهار نشاط اصطيادهم، وظهور جماعات للصيد متخصصة في صيدهم، ورحلات جماعية منظمة لصيد المساخيط.

وفي مستشفاه الخاص وجد الدكتور زياد الإمكانات والمساحة لإجراء تجاربه على المساخيط.

كان الرجل يبدأ بفحص أجساد العينات بكل أدوات الفحص والتحاليل والأشعة المتاحة، ثم إنه بعد حصوله على المزيد من المساخيط، بدأ يجرب نقل الأعضاء من بعضهم للبعض الآخر.

أول عملية أجراها كانت عملية تبادلية، نقل عضو من كائن لآخر والعكس، وعندما فشلت العملية ومات الاثنان قام بتشريح الجثتين، وهو ما أعفاه مؤقتا من البحث عن جثة، ومن عبء قتل كائن دون داع، بما في ذلك من إهدار للموارد. بعدها أجرى عمليات تجريبية لزراعة أعضاء تعويضية أخذها من أجساد مساخيط، وزرعها في أجساد كلاب وقرود وخنازير، ويبدو أنه كان يستهدف استخدام أجساد المساخيط كمصدر رخيص للأعضاء المطلوبة في الزراعات التعويضية للبشر.

اهتم د. زياد في تجاربه كذلك بالتركيب التشريحي للجهاز التناسلي وخاصة فيما يخص جزئية البيض والرضاعة.. وأجرى زياد نصري تجارب موسعة حول هذا الأمر، ولم ينشر نتائج تجاربه وأبحاثه في دوريات طبية وإنما صار يظهر في الإعلام ويعلنها بثقة باعتباره خبيرا.. وأحدثت أبحاثه هذه ضجة إعلامية وجدلا أخلاقيا كبيرا، ليس بسبب النتائج التي أعلنها في وسائل الإعلام المحلية وانتقل بعضها عالميا، وإنما بسبب الأسئلة التي طُرحت حول هذه النتائج..

زياد نصري هو الذي أكد إمكانية نقل الأعضاء من المساخيط إلى البشر.. فكيف تأكد من ذلك؟ هل جرب هذا بنفسه؟

وزياد نصري هو الذي أكد إمكانية التزاوج بين البشر والمساخيط «بيولوجيا»، ثم نفى إمكانية التزاوج بين المساخيط وبعض الحيوانات الأخرى..فكيف تأكد من كل ذلك؟

لقد تخلّى دكتور زياد عن حذره أكثر من اللازم وتقمص دور الخبير وأغرته الشهرة التي يعشقها، حتى أنه راح يجيب بثقة عن أسئلة المشاهدين الفضوليين في البرامج والفضائيات، فيما يخص التزاوج بين المساخيط والبشر.. وكانت هذه هي النقطة التي قلبت عليه الدنيا، بعد أن أثارت تصريحاته جدلا واسعا حول فكرة الاتصال الجنسي بين البشر والمساخيط.. تصريحاته سلطت عليه المزيد من الأضواء، وجذبت إليه الأنظار، لكنها جاءت بأثر عكسي، فنبش البعض وراءه، وظهرت بعض التقارير الصحفية تؤكد أنه أجرى تجارب جنسية فعلا في مستشفاه الخاص.. وتقدم أحد المحامين ببلاغ ضده، وتم تفتيش المستشفى وظهرت جثث وبقايا التشريح وتحول الأمر إلى فضيحة.. وانكشفت تفاصيل القصة من بدايتها، حين بادرت سكرتيرته الخاصة بالإدلاء بشهادتها الكاملة رسميا أمام سلطات التحقيق وأمام وسائل الإعلام.

وبرغم كل الضجة والغضب الشعبي، فقد تم إخلاء سبيل الدكتور زياد، فالقانون لا يحمي المساخيط، فهذه كائنات لا يحميها قانون، وحتى منظمات حقوق الحيوان لا تغطيها، ولا يمنع إجراء مثل هذه التجارب التي أجراها. لكنه آثر الابتعاد عن عيون الناس ونظراتهم بعدما حدث، وغادر مصر إلى إنجلترا، حيث يقيم منذ ذلك الحين.

# فؤاد

لم أتوقع كل هذا.

انتشر فيديو سيرين انتشارا كبيرا، ليس في مصر والعالم العربي فقط، وإنما كانت له أصداء عالمية كذلك.. ربما بسبب شهرة سيرين، مع حرصنا على ترجمته للإنجليزية منذ البداية.. وفوجئت به على الإنترنت مترجما إلى لغات أخرى.. وصار حديث وسائل التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام لأيام بعدها.

كان هذا تقدما رائعا.. المشكلة أن هناك جهات وأفراد بدأوا يستفيدون من الوضع الحالي للمساخيط، وبالتالي فإن هؤلاء كانوا يقاومون تغيير هذا الوضع.

لكن القضية كانت قد انتشرت ووجدت من يتعاطف معها بفضل فيديو سيرين.

هذا التعاطف بدأ ينمو وينتشر حول العالم، وبدأ المتعاطفون يتجمعون ويُشكّلون جمعيات واتحادات تدافع عن المساخيط وتطالب بحمايتهم. وفي بلاد تتمتع بحريات أكبر كانت هذه الحركات تنمو بسرعة غير متوقعة، وبدأت تنشر حملات توعية، وتحصل على تمويل وتبرعات من المتعاطفين، وتنشئ منابرها الخاصة ويظهر لها صوت، راح يقوى ويعلو شيئا فشيئا.

كان الفيديو هو الحصاة التي سقطت من فوق الجبل لتتدحرج وتكبر وتصير كرة ثلج عملاقة..

وتزامن ذلك مع الانتخابات الأمريكية، واستغل أحد

المرشحين هذه الحالة من التعاطف مع المساخيط عند نسبة كبيرة من الناخبين، فأعلن في برنامجه الانتخابي دعمه للمساخيط ولحقوقهم وقضيتهم العادلة.. واستفاد كثيرا من هذه النقطة لكسب الكثير من التأييد الشعبي.. وفاز هذا المرشح، وبمجرد إعلان فوزه تواترت الأنباء عن مكالمة هاتفية دارت بينه وبين رئيس (الوكالة)، وعلى إثرها خرجت سيرين أخيرا.

أما أنا، فقبل حتى خروج سيرين، وصلني عرض مغرٍ جدا من قناة فضائية كبيرة، لتقديم حلقات من برنامجي على شاشتها، وفي حالة نجاحي في تقديم البرنامج بمستوى يناسب التلفزيون.. سيستمر معهم في القناة. أمر كهذا لا يحتاج إلى تفكير أصلا، أبلغتهم بموافقتي على الفور.

## منى

عادت سيرين إلى بيتنا، واستقبلناها جميعا بفرحة واحتفال وكأنها حفلة عفوية.. ليزا كانت تتقافز وتصيح بسعادة وملأت البيت صخبا وبهجة.

احتضنتُها بحرارة وسعادة. ماما سالت دموعها وانخرطت في بكاء حار واحتضنت سيرين بقوة.. هي نفسها لم تكن تتصور أنها تكن لها كل هذه المشاعر. أمسكت وجه سيرين بين كفيها وكأنما تتحقق من أنها هنا الآن بين يديها فعلا.. انتقلت مشاعرها لسيرين التي تمتمت بالعربية:

- «وكشتيني» يا نادية!

حدقت ماما في عينيها بتأثر وتمتمت:

- وأنت وحشتيني يا سيرين.. حمدا لله على سلامتك.

بابا صافحها بحرارة، وشعرت للحظة أنه كان سيحتضنها، ثم تراجع وهو يلقي نظرة جانبية على ماما!

## فؤاد

عند منتصف الليل خرجَتْ سيرين من شرفة غرفتها وارتفعت في الهواء منتفخة ثم تهادت وهبطت على الأرض في الحديقة.

جلست على الأرض وراحت تتأمل ما حولها في ذلك الظلام.. استلقت على ظهرها وسرحت ببصرها في النجوم.. من هناك جاءت.. لا بد أنها تفكر في وطنها.. وطنها الذي لن تراه أبدا..

تنحنحتُ، فانتبهت إلى وجودي، واعتدلت..

قلت بالإنجليزية:

- قلت لهم أن يتركوكِ ترتاحين في غرفتك.

أجابتني بإنجليزية سليمة، دون أن تلتفت لي:

- ارتحت كثيرا في سجني.. ارتحت حتى تعبت من الراحة.

أومأت برأسي متفهما، ثم رحت أفرك أصابعي في توتر.. بعد تردد قلت:

- حكيتُ لكِ عن برنامجي على يوتيوب من قبل.. أعتقد أنه ساعد على نشر التعاطف مع المساخيط..

هزت رأسها بتفهم لكن دون حماس، فتابعتُ:

- في الحقيقة يمكننا اعتبار هذه الحملة بداية سلسلة الأحداث التي أدت للإفراج عنك في النهاية..

- شكرا.

- لا أقول هذا لتشكريني.. أنا أدافع عن قضيتكم لأنني اقتنعت بها وأريدك أن تشتركي معي.. في الحملة.. ثم إنني سأنتقل بالبرنامج إلى التلفزيون، والأمور ستصير أفضل بكثير..

رمقتني بلا حماس فتابعت بانفعال:

- ظهورك يمكنه أن يصنع الكثير.

- أنا؟

- طبعا، أنت صرتِ مشهورة جدا.. لو أحسنّا استغلال ذلك، يمكننا أن نحقق مكاسب كبيرة.

- مكاسب؟

- أقصد مكاسب للحملة.. لقضية المساخيط.

كانت يائسة تماما. نظرت لي في سخرية مريرة وقالت:

- أي قضية وأي مكاسب؟ نحن نُذبح ونُؤكل ونُستعبد ونُسجن دون جريمة.. ونحن الذين جئنا هنا بحثا عن حياة جديدة! هذه الحياة!.. أليس الموت أهون منها؟ كان الأفضل لنا أن نستسلم لقدرنا ونفنى عن آخرنا.

- ماذا تقولين يا سيرين؟ من أين جئت بكل هذا اليأس؟ أين الحماس والأمل الذي كان يملؤك؟

- انطفأ في السجن!

تأملتها لحظات.. لكم أتمنى لو استطعت قراءة أفكارها.

خطرت لي فكرة. فأخرجت هاتفي وقلت:

- فاكرة تطبيق الترجمة من لغتكم إلى الإنجليزية؟ أخبرتكِ

عنه من قبل.

هزَّت رأسها أن نعم، فتابعتُ وأنا أضع شاشة هاتفي في مواجهتها:

- التطبيق تطوَّر بشدة.. انظري.

ولمستُ زرًّا على الشاشة، فتح واجهة التقاط الصوت والترجمة، وقربتُ الهاتف من فمي وتحدثت بالإنجليزية وقلت:

- مرحبا بك يا سيرين في عالمنا الذي صار أفضل.. بفضلك!

انتهيت من الحديث فظهرت أيقونة متحركة على الشاشة، علامةً على معالجة البيانات، ثم خرج الصوت من الهاتف بلغتها، آليًّا مليئا بالفرقعة والطقطقة، وارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه سيرين لأول مرة، ونظرت لي في تساؤل فأضفت مبتسما بالإنجليزية:

- جربي بنفسك.

ليخرج الصوت ناطقا عبارتي إلى لغتها.

ترددَتْ ثم اقتربت من الهاتف وتمتمَتْ ببعض الكلمات بلغتها فظهرت أيقونة المعالجة ثم خرج الصوت الآلي يقول بالإنجليزية:

- الوطن بعيد جدا.

ما زالت حزينة. توقعت أن تبتهج لهذا التطبيق أو على الاقل تندهش.

- توقعت أن تسعدي بهذا التطبيق.

- أنا سعيدة به.. لكنه ليس مفاجأة لي.

نظرتُ لها في تساؤل فأضافت:

- وكيف تظن أنهم كانوا يتحدثون معي.. هناك؟

- صحيح.. يا لي من أحمق! كيف فاتني هذا؟

واصلت:

- بدأنا بلغة الإشارة ثم انتقلنا إلى هذا التطبيق. لكن واضح أنه تطور جدا.

- بفضلكِ أنتِ.

- جيد.. هذا جيد. لكنه لا شيء.

قلت في انفعال محاولا إثارة حماسها:

- لكن هذا ليس كل شيء هذه كانت البداية.. انظري..

وفتحتُ الكمبيوتر المحمول لأريها المزيد من الصور والفيديوهات.

هذه المرة اتسعت عيناها بدهشة، وتسارعت أنفاسها في حماس.. ما رأته بهرها فعلا.

# الأبحاث (العلمية) في الوكالة الدولية

## نقلا عن موقع (المفاتيح)

وسط البحر المتوسط، وبالقرب من جزيرة مالطة، تطفو سفينة عملاقة، تمثل قاعدة بحرية ثابتة، هي المقر الحالي لوحدة الأبحاث البحرية التابعة للوكالة الدولية لأمن الكوكب. سيريناتيس أو (سيرين الزرقاء)، لم تكن هي الوحيدة التي خضعت للاحتجاز والاستجواب داخل مقرات هذه الوكالة المنتشرة في أرجاء الأرض.

مساخيط آخرون نجوا، وروى بعضهم تفاصيل محاولات استخراج المعلومات منهم بطرق مختلفة عن تلك التي استُخدمت مع سيرين. وقال صحفي وباحث في الشئون القانونية لموقع المفاتيح: المشكلة أن هذه الأجهزة كانت تكذب، هم لم يكونوا متأكدين أصلا أن المساخيط يفهمونهم خلال الاستجوابات، فكانوا يعذبونهم على سبيل الاحتياط، فلربما ينهار أحدهم مرة ويعترف، ربما من أثر التعذيب أو خوفا على زميله أو أنثاه.. لا سبيل للتأكد إلا بالتجربة.

وقالت صحفية وباحثة إنجليزية لوكالة رويترز: إنهم في الوكالة تعاونوا مع طبيب مصري له خبرة في هذه الأمور اسمه زياد نصري، فأجروا تجارب على المساخيط لقياس قدرتهم على تحمل الألم والتعذيب الجسدي والمعنوي بجرعات متزايدة.

بعض هذه التجارب كانت تجارب عبثية مثل التي تُجرى على الفئران. واحدة من تلك التجارب كان يتضمن

مثلا تعذيب أحد أفراد المساخيط، مع محاولة قياس مؤشرات الإحساس بالألم عند أمه أو زوجته مثلا، وهي تراه يخضع لهذا التعذيب. بعض التجارب الأخرى كانت تختبر الجوانب السلوكية، مثل وضع المسخوط في موقف اختيار بين إنقاذ أحد المساخيط المقربين من الموت والتضحية بحياته هو أو العكس. مواقف صممت بدقة لقياس غرائزهم وقيمهم.. وفي هذه التجارب سقط قتلى كثيرون من المساخيط.

وقبل فك شفرة لغة المساخيط كانت هناك تجارب مميتة تهدف لاختبار قدرتهم على فهم لغاتنا، منها مثلا وضع المسخوط في غرفة مغلقة بها لوح عملاق من الصلب يملأ جدارا كاملا، تبرز منه مسامير حادة.. ويتحرك جدار المسامير نحو المسخوط، مع ساعة ميقاتية على الجدار تعد تنازليا مع اقتراب اللوح الذي سيقتله في غضون دقيقتين.. وفي الجانب المقابل هناك جدار كامل من الخزانات الصغيرة المغلقة.. ثم تذاع على مسامع المسخوط الحبيس تعليمات صوتية بلغات أرضية مختلفة فيها طريقة الخروج من المأزق.

وكانت النتيجة التي سجلتها تلك التجارب أن 100٪ من المساخيط الذين مروا بها اخترقتهم المسامير، وهو الذي أكّد عمليا جهلهم بلغاتنا في ذلك الوقت.

***

# فؤاد

الفيديو الأول بدا مألوفا لها، ابتسامة حنين ارتسمت على شفتيها بمجرد أن بدأته..

كان يظهر فيه مجموعة من المساخيط يلعبون «لعبة الدائرة» أو « كرة الدائرة» كما سماها الناس.

نظرت لي بتساؤل، فأشرت لها بأن تواصل المشاهدة.

كانت تعرف اللعبة جيدا، لكن كان غريبا عليها أن ترى ملعبا مجهزا هكذا هنا على كوكب الأرض.. في عالم المنفى.

ملعب مستطيل كبير، مساحته تقارب مساحة ملعب كرة القدم، مفروش مثله بالنجيل الأخضر، لكن المرمى هنا هو حفرة وسط الملعب تماما تحيط بها دائرة يحرسها لاعبان، واحد من كل فريق.

وأما الفريقان فكانا يرتديان الأحمر والأزرق.. يحاول كل فريق أن يصل بالكرة إلى طرف الملعب الآخر، حيث يوجد دلو طلاء بلونه، يحرسه الفريق الآخر فيغمس الكرة في الدلو، ثم يعود بها لإلقائها في الحفرة في وسط الملعب، وهكذا يسجل نقطة. أما لو نجح الفريق المنافس في قطع الكرة قبل وصولها للمرمى (الحفرة)، فإنه يعود بها إلى الطرف الآخر من الملعب، حيث الدلو الآخر ليغمرها بلون طلائه، قبل أن يستهدف بها المرمى من جديد.

حركة اللاعبين في الملعب فريدة كذلك، من ناحية لأنهم يرتفعون في الهواء بخفة، بهذه الطريقة المميزة التي يطير بها

المساخيط.. ومن ناحية أخرى لأن اللاعب الذي يحمل الكرة يتجمد في مكانه ولا يتحرك مطلقا إلا بعد أن يمررها لأحد زملائه، الذين يجرون جميعا حوله محاولين اتخاذ أفضل الأماكن لاستقبال الكرة منه دون أن يقطعها المنافسون، المسموح لهم بالحركة والجري أيضا.

قلت لسيرين بحماس إنني أرى هذه إحدى نقاط قوة اللعبة التي تجعلها لعبة جماعية بامتياز، فرمقتني بنظرة فرح غريبة، وكأنها سعيدة لإعجابي باللعبة.

كان الفيديو عبارة عن ملخص لمباراة ما.. وكنت أتابع معها الفيديو بحماس، برغم أنني رأيته من قبل.

كان اللاعبون يستخدمون في المباراة كرة سلة عادية من كراتنا المعروفة، لكنهم بعد الهدف الأول غيروا الكرة واستخدموا كرة قدم.

أشرت لهذه اللقطة ضاحكا باستمتاع.. هذه النقطة شديدة الطرافة وتضحكني كل مرة.. وازداد ضحكي بعد الهدف الثاني وتغيير الكرة من جديد إلى كرة يد.. وهكذا يتم تغيير الكرة بعد كل هدف.

استخدموا كرة بيضاوية من كرات القدم الأمريكية، وكرة تنس صغيرة، وكرة جولف، ثم بدأ الأمر يزداد طرافة حتى أنني قهقهت ضاحكا بصوت مرتفع حتى دمعت عيناي، وضحكت سيرين لضحكي أكثر من الموقف ذاته.. فالكرة التالية لم تكن إلا بطيخة!

ثمرة بطيخ حقيقية، ثقيلة طبعا، فكان رميها والتقاطها صعبا بطبيعة الحال..

لم أقاوم رغبتي في وصف اللعب، برغم أنها غالبا تعرف أكثر مني، فقلت لها:

- عندما تسقط البطيخة منهم وتنكسر يخسر الفريق الكرة - أو البطيخة - وتستمر المباراة ببطيخة أخرى مع الفريق الآخر!

- واضح أن اللعبة أعجبتك!

- جدا.. والكرات الأخرى...

قاطعتني متسائلة:

- ماذا لديكم هنا؟ يحتاجون الآن إلى كرة ثقيلة الوزن وأصغر حجما..

- صخرة.

- ثم كرة صغيرة هشة.

- بيضة دجاج!

- ثم كرة صغيرة خفيفة الوزن جدا.

- كرة تنس الطاولة.

ضحكت، وقالت:

- واضح أنهم وجدوا حلولا من البيئة المحلية!

- نعم، هذا يضيف صعوبات وقيودا إضافية..

أومأت برأسها إيجابا ولم تعلق. قلت:

- لا تبدين سعيدة بهذا.

قالت وقد عاودها الوجوم:

- أين تقام هذه المباراة؟ هل هذا نوع آخر من السيرك؟ استخدامنا بطريقة أخرى للترفيه عن البشر؟

- لا.. انتظري..

سحبتُ مؤشر الفيديو إلى نهايته فظهرَتْ لقطات مقربة للمشجعين من المساخيط والبشر.. كان المشجعون يحيّون اللاعبين الفائزين بحماس وإعجاب، بينما اللاعبون يردون التحية بسعادة..

- هل..؟

- نعم، المباراة يحضرها جمهور من البشر والمساخيط.. وهؤلاء اللاعبون نجوم ومشاهير الآن..

انتقلت إلى فيديو آخر، وقلت لها محذرا قبل تشغيله:

- سأريكِ شيئا آخر.. لكن لا تسخري من فضلِك!

في الفيديو كانت مباراة «كرة الدائرة» بين فريقين من البشر.. ضحكَتْ سيرين بشدة كما توقعت، إذ بدا لها الأمر هزليا، خاصة وهم يقفزون عاليا عند تمرير الكرة، فقالت وهي تدمع ضحكا:

- لكنهم لا يطيرون.. لا يطيرون!

أغلقتُ الفيديو وأشرت لها بسبابتي:

- هذا ليس كل شيء.. اللعبة حققت شعبية كبيرة، حتى أن شركة ألعاب فيديو شهيرة أصدرت نسخة إلكترونية منها على منصات الألعاب..

عرضتُ عليها مقطع الفيديو الإعلاني للعبة الإلكترونية، وفيه يظهر مقاطع من اللعبة ولاعبون من الشباب يلعبونها

بأذرع التحكم.. لاعبون من البشر ومن المساخيط.

راحت نتأمل كل هذا في تأثر وهي تتمتم:

- جميل.. جميل فعلا..

- هناك المزيد.. الموسيقى مثلا.

شغّلتُ فيديو جديدا، يظهر فيه أحد المساخيط على مسرح أمام ميكروفون ويفتح فمه ويشرع في إصدار أصوات حلقية متصاعدة. قلت:

- بصراحة في البداية لم أستوعب الفكرة وراء هذا النوع من الفن أصلا، لكنني عندما استمعتُ بتأنٍّ لعدد من الفنانين انبهرتُ فعلا.. بصوته وحده يؤدي لحنا صوتيا، وكأنه نغم ينبع من روحه مباشرة.. ألحان تدخل القلب مباشرة.. قدرة عجيبة على الانتقال بالمشاعر من البهجة والتفاؤل أو التوجس والقلق.. هناك لحن حزين جعلني أبكي وأنا أسمعه.. تصوري!

كانت سيرين تسمعني وتراقب حماسي ذلك بابتسامة راضية وإيماءات متفهمة..

هي تعرف كل هذا، وأنا أعرف أنها تعرف، لكنه هذا الشعور الذي لا يُقاوَم، عندما ترى الأشياء التي يحبّها حبيبك.. عندما تجرب أخيرا ما يحبّه، وتحبّه معه.. عندها تصيبك عدوى الحماس لمشاركته الشغف، وتجد نفسك تروي له ما يعرف.. لكنه لن يملّ منك، ولن يراك أبلها، بل سيوافقك بنظرة «أرأيت؟ ألم أقل لك؟»..

واصلت الكلام:

- واكتشفتُ أن الأمر أعمق من ذلك.. هذه الألحان بمقدورها صياغة ما يشبه القصص الكاملة.. سمعت لحنا يروي قصة عالمٍ كان هادئا وسعيدا وآمنا، ثم فجأة جاء الرعب والدمار.. وبعد فترة من الضياع والألم جاء السكون المخيف، ثم الغربة والقلق والحزن والرثاء على ما كان.

أومأت سيرين برأسها، وابتسمت ابتسامة حزينة وتمتمت:

- نعم.. «ذات يوم كان العالم لي..».

- ما هذا؟

- قصيدة.. وأغنية أيضا..

أبديت اهتمامي بالقصيدة، فحاولت أن تترجمها لي.. كتبتُها في مفكرتي، وترجمْتُها للعربية، وأعدت صياغتها عدة مرات فيما بعد:

كانت الشمس لنا، وكان القمر ابننا

كانت تغني أمجادنا

وكان ينسج أحلامنا

على هذه الأرض، قبل أن تضيع..

وقبل أن يضيع

وقبل أن نضيع

كان هذا العالم، ذات يوم، لي

قلت لها:

- «على هذه الأرض»! عندنا قصيدة عربية بهذا الاسم!

- حقا؟

- نعم.. لشاعر اسمه محمود درويش.. يقول فيها:

عَلَى هَذِهِ الأَرْض مَا يَسْتَحِقُّ الحَيَاةْ: تَرَدُّدُ إبريلَ، رَائِحَةُ الخُبْزِ فِي

الفَجْرِ، آراءُ امْرأَةٍ فِي الرِّجالِ، كِتَابَاتُ أسخيليوس، أوَّلُ الحُبِّ، عشبٌ

عَلَى حجرٍ، أُمَّهاتٌ تَقِفْنَ عَلَى خَيْطِ ناي، وخوفُ الغُزَاةِ مِنَ الذِّكْرياتْ.

حاولت أن أشرح لها الكلمات.. أعجبتها المعاني، لكن اللغة كانت صعبة عليها..

قلت لها وأنا أفتح فيديو آخر على الكمبيوتر:

- أتعرفين؟.. اكتشفت أن لدينا بالفعل فنًا شبيهًا بهذا في بعض الثقافات.. اسمه الغناء الحلقي..

أصدرت سيرين صفيرا خافتا (فهمت من خبرتي معها أنه كالتنهيد عندنا)، وابتعدت وهي تقول:

- فاتني الكثير في سجني.. فهمت.

- ليس هذا قصدي.. انتظري سأريكِ عروض الرقص الإيقاعي والفنون التشكيلية و...

- وماذا؟.. هل توقفوا عن ذبحنا وأكل لحومنا؟ هل أغلقوا مطاعم لحم المساخيط؟ هل ألغوا استعبادنا؟ هل توقفوا عن بيعنا وشرائنا؟

قلت بإشفاق:

- لا.. لكن هذا ممكن.

- حقا؟ كيف؟

قلت بخفوت:

- قلت لكِ.. البرنامج.

بدا عليها التردد والتفكير.. ثم قالت بعربيتها الركيكة هذه المرة:

- هذا سيرين لا يستطيع.. سيرين متأكد.

قلت مبتسما:

- ثقي بي ودعينا نجرب، وسترين النتيجة!

# وائل

تطلعت في المرآة قبل بدء التصوير. هذا أنا.. وائل نصيح الجديد. لكم تغيّرت! تجاعيد الوجه البسيطة والشعيرات البيضاء لا تزعجني، فهذه فقط علامات السن التي تضفي على الرجل وقارا ووسامة في هذه المرحلة.. هناك أيضا البذلة الأنيقة التي صارت جزءا من شخصيتي الآن. لكن شخصيتي نفسها تغيرت.. صارت شخصيتي قيادية آمرة، مع مسحة من القسوة ظهرت على ملامحي وتركت أثرها في ارتفاع طفيف للحاجبين وكسرتين عند جانبي فمي..

والآن أنا هنا، في أستوديو التصوير، في بؤرة الإضاءة والانتباه، وعلى مقعد المذيع.. صرت أقضي جلّ وقتي هنا على هذا المقعد، الذي غيّر شخصيتي وحياتي، وأثّر - ويؤثر يوميا - على عقول الناس.

تبدأ الحلقة وأنطلق في مقدمتي الحماسية:

«المساخيط أو الفضائيون أو اللاجئون الزرق، أو (الدوجونجواديون) كما يسمون أنفسهم.

منذ سنوات قليلة لم يكن لهم وجود أصلا في عالمنا، واليوم وصلت أعدادهم في العالم إلى عشرات الآلاف.. وربما مئات الآلاف.. ومنذ يومين فاز المرشح الديمقراطي الداعم لهم بالانتخابات الرئاسية في أمريكا. ثم خرجت دولة مثل (كندا) لتعلن إعطاءهم حقوقا مثل حقوق الإنسان، ومعاملتهم مثل اللاجئين..

توقعوا طبعا حلقة احتفالية من زعيم المساخيط، المسخوط الكبير، فؤاد أبو ضيف، على اليوتيوب.. بل

- الآن - في برنامجه الجديد على الفضائيات.. مبروك يا إعلامي المساخيط!

لو تابعنا خطابات رئيس الحكومة لفهمنا الوضع الداخلي في كندا، ولوجدنا أن كل هذا ليس لوجه الله.. هذه القرارات هي كارت يلعب به الحزب الليبرالي ليثبت أنه نصير الحرية والحقوق والديمقراطية، سعيا وراء مكاسب سياسية.. ثم إن هذه كندا، يعني تمنح الجنسية للمساخيط أو حتى للقرود، فلن نتأثر الدولة.. لن يؤثر ذلك على اقتصادها.. كندا أصلا دولة غنية، وتعداد سكانها لا يُقارن ببلادنا، وعدد المساخيط فيها محدود.. كندا دولة لن تخسر شيئا. أما نحن فسوف نخسر الكثير..

وقبل فقرة الطبلة التي سنراها من أتباع المساخيط دعونا نتساءل: من هم المساخيط؟ من أين جاءوا؟ ماذا يريدون فعلا؟ هل نصدق روايتهم المعلنة بأنهم مجرد لاجئين مسالمين؟

لا طبعا.. الحقيقة أنهم غزاة يدبرون مؤامرة خفية.. ومن الواضح أن السيد فؤاد أبو ضيف جزء من هذه المؤامرة.. أو على الأقل هو مستفيد أو مغسول الدماغ.. أما تفاصيل المؤامرة فإننا نكشفها لكم في حلقاتنا القادمة تابعونا».

***

توقف التسجيل وعدت أتطلع لنفسي في المرآة.. هل هذا رأيي حقا؟ لا أعرف.. توقفت منذ زمن عن سؤال نفسي، واعتدت أن أعبر عن الرأي الرسمي للقناة، حتى

لم أعد أعرف ما رأيي أنا.. ربما لم يعد لي رأي.. تحولت إلى ناقل.. مشاهد محايد.. موظف لا رأي له، وإن كان الناس يرون مقاتلا شرسا على الشاشة، يقاتل من أجل الحقيقة يظنونه أنا.. كنت أبحث عن الحقيقة في الماضي سعيا وراء النجاح الصحفي والشهرة، والآن أنا أمتلك النجاح والشهرة، ولم أعد أبالي بالحقيقة.. هذا ما فعله بي طموحي.. أم أنه ما فعلته بنفسي في نفسي؟

المهم أنني حققت ما أريد.. المهم أنني صرت «الأول» من جديد، وأي ثمن مقابل ذلك يهون..

# فؤاد

تم كل شيء بسرعة. مقابلات مع إدارة القناة، توقيع العقد، اختيار الاسم (سميته «منظور جديد»)، بدلا من «منظور آخر» كما كان على اليوتيوب).

فريق الإعداد كونته من الشباب الرائع الذي قدّم موقع «المفاتيح». كنت أتابع موضوعاتهم بانتظام، وبهرني جهدهم المتميز وموضوعاتهم الصحفية التي قدموها بمستوى احترافي بروح الهواية، وعرفت أنهم خريجون جدد، يديرون الموقع بجهودهم الشخصية.. اتصلت بهم وعرضت عليهم العمل معي فوافقوا على الفور. شباب رائع حقا، يشرفني أن أعمل معهم.. والأهم أن مقالاتهم التي نشروها من قبل على الموقع مناسبة جدا للبرنامج الجديد.. فما علينا إلا استخدام هذه المواد وإعادة تقديمها مصورة على الشاشة.

وجاء موعد الحلقة الأولى. في أستوديو القناة الفضائية، وعلى الهواء هذه المرة.. رهبة الكاميرا واحدة، لم تزد كثيرا لحسن الحظ.

لم يكن ممكنا أن أتجاهل حلقة وائل.. افتتحتُ بمقدمة تقليدية للترحيب بمشاهدي التلفزيون، ثم ارتجالا، ودون نص مكتوب، نظرت إلى الكاميرا بجدية وتحد وقلت:

- طبعا أنتم رأيتم الفيديو إياه للصحفي الذي يتهمني بالتآمر، ومن لم يشاهد الفيديو رأى الجدل الكبير على السوشيال ميديا.. غالبا أنتم تنتظرون ردي.

صمتُّ لحظات وابتسمت ابتسامة ساخرة واثقة، ثم

أضفت:

- لن أردّ!.. على الأقل لن أرد على الاتهامات نفسها، لكنني سأقول شيئا واحدا.. اتهامات بهذا الحجم هي اتهامات خطيرة، وإذا صحت وثبتت على أي شخص فإن عقوبته في القانون ليست هينة.. أقول لو ثبتت عليه التهمة.. نحن نتكلم عن تهم بالتآمر والخيانة العظمى، لكن أمورا كهذه يفصل فيها القضاء وليس عدّاد المشاهدات على اليوتيوب.. «اللايك» و«الشير» لا يثبت ولا ينفي الاتهامات عزيزي المشاهد.. لو أن حضرته، أو أي شخص آخر يعتقد أنني خائن أو متآمر، فلماذا يتركني حرا طليقا؟ لماذا لا يتخذ ضدي الإجراءات القانونية؟ لمن لا يعرف فالإجراءات القانونية تبدأ من النيابة وليس من تحديث الحالة على الفيسبوك.. لعل حضرته لا يعرف أن اتهام الناس بجرائم كهذه بالباطل ودون دليل هو في حد ذاته جريمة.. وأنا محام كما تعرفون، وأعرف ما أتكلم عنه.. وأهلا بكم في حلقة اليوم!

بدأت شارة البرنامج، ثم عادت الكاميرا لي، فقلت:

- (سيريناتيس) أو (سيرين).. أشهر فرد تقريبا من الضيوف القادمين من كوكب (دوجونجواد).. (سيرين) لعبت دور حجر رشيد وشامبليون معا.. وكانت مفتاح التواصل بيننا.. سيرين لا تمثل أية جهة بشكل رسمي، لكنها بالطبع تنتمي لقومها وبني جنسها من...

هنا توقفتُ والتفتُّ إليها وأنا أسألها بابتسامة مداعبة:

- المساخيط؟

انتقلت الكاميرا إليها لتظهر ضحكة سيرين على الشاشة، ثم قالت بعربية ركيكة:

- سيرين لا مشكلة مع اسم مساخيط!

ضحكت من لغتها، وقلت:

- ممكن تتكلمي بالإنجليزية..لغتك العربية مفهومة لكنها.. صعبة عليكِ؟

ابتسمت بخجل وقالت بالإنجليزية:

- آسفة.. قضيت وقتا أطول في تعلم وممارسة الإنجليزية، وفعلا ربما هي أسهل قليلا. لا أنزعج من اسم «المساخيط».. قد يندهش البعض لذلك، لكننا سمعنا الاسم من الناس واعتدناه حتى من قبل كسر حاجز اللغة.. وعندما فهمنا معناه بعدها أثار الأمر دهشتنا أكثر من غضبنا.. يعني حتى لو كان شكلنا يبدو مختلفا عن البشر فهذا لا يعني أننا مسوخ أو مشوهون..

سألتها:

- لكنك عرفت مصدر التسمية..؟

- نعم، رأيت الفيديو.

- ولا مشكلة عندكم في اسم المساخيط فعلا؟

- بعضنا غضب من التسمية طبعا، لكن أغلبنا لا يرى مشكلة في الاسم.

- لماذا؟

- أعتقد أن الأمر في سياق الثقافة المصرية والعربية لا

يُقصد به الإهانة أو الاحتقار.. وفي ثقافتنا ليس عندنا حساسية لغوية كبيرة فيما يتعلق بالتسميات، خاصة إذا كان الغرض الأساسي منها هو الوصف الدقيق.. أما اكتساب الكلمة لسمعة سيئة وتحولها إلى سبة فهي مسألة اصطلاح وإجماع شعبي، وهذه ظاهرة رأيتها وأنا أتعلم العربية.. يعني بعض الناس يقولون مثلا «عربجي» و«بلطجي» و«فلاح» على سبيل الإهانة، في حين أن هذه كلمات تشير لمهن ووظائف.. لم يكن ينبغي أن تكون سبة.

- نعم، لكن «المساخيط»...

- وعندكم دولة اسمها السودان وهو اسم من اللون الأسود .. هل من العادي الآن وصف شخص بأنه أسود؟

- ليس بالضبط، هناك بعض الحساسية في الموضوع الآن ..

- فماذا تقولون إذن للتعبير عن لون هؤلاء الناس؟

- نقول أسمر.

- وبرغم ذلك، فالدولة ما زال اسمها كما هو.

- نعم، هم لا يرون فيه غضاضة فيما أظن.

- نحن مررنا بمراحل في تاريخنا نتنازع ونتقاتل على أمور كهذه، لكن بعد تجاوز مشكلات العنصرية وتحقيق قدر من المساواة بين الأعراق والأجناس المختلفة اختفت هذه الحساسيات تدريجيا، بل إنها صارت تحمل نوعا من الذكريات الطريفة.. أنتم ما زلتم في مرحلة «الصوابية

السياسية»، فربما لهذا ما زلتم تتحسسون كلماتكم..

أتاني صوت المخرج في سماعة أذني بوجود اتصال هاتفي. وجَّه المتصل، الذي كان فنانا تشكيليا شابا، سؤالا فنيا إلى سيرين:

- لماذا توحي فنونكم التشكيلية بالبدائية، وكأنها رسوم أطفال؟ رسومكم كلها بلون واحد أو لونين على الأكثر.. هل حضارتكم لم تعرف الرسم منذ وقت طويل مثلا، فلم يتطور عندكم؟

تحمست سيرين للسؤال، وقالت:

- بالعكس، عرفنا الفنون التشكيلية، ووصل فيها الفنانون عندنا إلى مراحل مذهلة من المطابقة والمحاكاة الدقيقة، ثم التلاعب والتعبير الكاريكاتوري.. لكن تطور الفنون التشكيلية وصل بنا إلى درجة من التجريد بهدف إتاحتها للجميع.. كل واحد فينا رسام يمكنه التعبير بالرسم.. الرسم صار لغة يتحدثها الجميع، وليس فقط الشخص «الموهوب».

ثم جاء اتصال آخر.. أتى صوت المتصل على الهواء:

- أستاذ فؤاد أنا لا يهمني الاسم.. مساخيط أو تنانين حتى، المهم ماذا تفعل بهم؟

- وأنت ماذا تريد أن تفعل بهم يا..؟ لم نتعرف بحضرتك؟

- أنا الحاج زُهير.

- ماذا تريد أن تفعل بهم يا حاج زهير؟

- أنا اشتريت مسخوطة من السوق لغرض الخدمة

المنزلية يعني، لكن بعد ذلك لا مؤاخذة وقَعَتْ وانكسرت رجلها.. وطبعا علاجها ليس سهلا.. قالوا لي إن تكلفته آلاف الجنيهات، يعني أكثر من قيمتها.. وحتى لم أستطع إرجاعها أو بيعها واستعادة فلوسي، فـ..

حاولتُ عبثا مقاطعته قبل أن يقولها:

- خلاص يا حاج!

لكنه واصل:

- فذبحناها وأكلناها ولكن...

قلت له في حدة:

- ما هذا الكلام يا حاج؟ لا يصح أن تقول هذا على الهواء!

ردَّ في خشونة:

- أهي جريمة يا أستاذ فؤاد؟ الناس كلها تفعل هذا.

رمقتُ سيرين بإشفاق وقد أخفت وجهها بين كفيها، بينما الرجل يواصل الحديث عن أسواق بيع المساخيط ومطاعم طبخهم والجزارين الذين يبيعون لحومهم..

كانت سيرين تتألم، لكنها لم تنطق. أشرت إلى المخرج بقطع الاتصال. وساد الصمت.

انتظرتها أن ترفع رأسها، لكن صمتها طال.

أشرت للمخرج بالخروج إلى فاصل ونهضتُ إليها وقلت:

- سيرين!

كانت تبكي.

## سيرين

بعد الفاصل هدأتُ وبدأت أحكي. قلت وأنا أواجه الكاميرا:

في بدايات وجودنا هنا وقبل اختلاطنا بالمجتمعات البشرية كنّا في معسكرات صغيرة.. مخيمات. وفي المخيم الذي كنت فيه في الخلاء كنّا مجموعة كبيرة، بعضهم كانوا أصدقائي وربما أكثر، وبعضهم كانوا مجرد زملاء، لكننا كنّا نقضي يومنا معا، نتعلم صيد الحشرات ونأكلها ونتريض وندرس ونلعب معا.. حتى حدث ما حدث..

بدأ الأمر بحوادث فردية.. طلق ناري تتبعه طلقات نارية أخرى، ونكتشف أنه صياد من البشر يتجول في الغابات أو المناطق الطبيعية المفتوحة، ويهاجم أحدنا فجأة.. نهرول هاربين في فزع، ونتسلق الأشجار ونختفي وسط أغصانها المتشابكة حتى يبتعد.

ثم توالى ظهور الصيادين وهجماتهم المتكررة، وبدأت أساليبهم في التنوع والتطور لاصطياد أفراد من معسكرنا.

في البداية كانوا يطلقون النار ويأخذون الجثة، ثم بعد ذلك صاروا يحاولون الإمساك بأحدنا حيا. قُبض على أكثر من واحد منّا أمام عيني.. ولم أستطع تقديم المساعدة.

وعندما وقع (جادروبيت) أخي في يد الصيادين لم أستطع تركه.. طاردتُهم.. طاردت الصيادين!.. كنت حمقاء، لم أكن أدري ماذا سأفعل لكنني لم أستطيع التوقف.. كادوا يمسكون بي أنا، لكنني أفلتُّ وضللت

الطريق بعد ذلك، حتى قابلت ليزا وأسرة فؤاد أبو ضيف، وحدث ما حدث.

وفيما بعد عندما خرجت من محبسي كانت الظروف قد تغيرت.. صار هناك مجتمع من المساخيط بينهم نوع من التواصل، وهكذا سألت عن رفاقي القدماء وتتبعت آثارهم، لأرى ماذا حدث لهم وأين هم الآن..

لم أضطر للبحث عن (جادروبيت)، لأنه هو الذي تتبعني حتى وصل لي في بيت فؤاد..

# فؤاد

الحلقة التالية عرضنا في بدايتها تقريرا مصورا عن د. زياد نصري، وتجاربه السرية في مستشفاه، حتى حدثت الفضيحة التي ذكرها موقع المفاتيح.

بعدها تحدثت سيرين عن حالة (دروجسادا). قالت سيرين بالإنجليزية:

- إن أهل (دروجونجواد) - أو المساخيط - ينقسمون إلى عرقين أو طائفتين كبيرتين.. نحن مختلفان في الكثير لكننا تعلمنا عبر تاريخنا الطويل أن نتعايش في سلام.. (دروجسادا) كانت من (الموخدوجون)، أي أهل جنوب العالم، بينما أنا شمالية من (اليوخدوجون)، وكانت تكرهني. كان زوجها يحبني ولم يكن هذا ذنبي.. دروجسادا ليست طيبة وليست حسنة النية ولم أحبها قط، لكن ما حدث لها لا يرضي أحدا.. حتى أنا. دروجسادا تعرضت للاغتصاب معمليا من بشر ومن حيوانات وبشكل متكرر.

- كيف عرفت هذا؟

- حدث هذا لها في مستشفى دكتور زياد نصري، والأسوأ من الاغتصاب كان المهانة، فكل هذا حدث أمام أسرى آخرين.

صمتت سيرين لحظات تغالب البكاء، ثم قالت بصوت متهدج:

- حتى لو كان يعتبرنا حيوانات.. هل تغتصبون

الحيوانات هنا؟ هل تعذبون الحيوانات قبل قتلها؟ هل تقتلون الحيوانات أمام بعضها؟

- وأين دروجسادا الآن؟

- نزفت حتى الموت، فشرّح جسدها واستخدم أعضاءها في تجارب أخرى فيما يبدو.

اتصل أحد المشاهدين هاتفيا ووجه سؤاله إلى سيرين:

- ما دليلك على كل هذا؟

الدليل على هذه الواقعة تحديدا شهادات من حضروا.. هل تقبلون شهادات من مساخيط؟ الدليل نتائج علمية أعلنها زياد نصري بنفسه هل حاسبه أحد؟

قلت:

- على كل حال هو هارب ولا أحد يعرف مكانه ليحاسبه أصلا.

أتاني صوت المخرج بوجود اتصال آخر فقلت:

- ومعنا اتصال آخر.. من؟ فعلا؟ هذا د. زياد نصري بنفسه.

***

لم ينتظرني د. زياد حتى أقدمه أو أسأله، واضح أنه أعد كلامه جيدا، فقال:

- السؤال ليس زياد نصري، السؤال هو هؤلاء المساخيط.. من أين جاءوا؟ كيف تغلغلوا في مجتمعنا وفي عالمنا بهذه السرعة؟ ماذا يريدون وإلامَ يخططون؟

ماذا لو كانوا طليعة جيش استعماري قادم؟ هل هي مصادفة أنهم استطاعوا اختراق عالمنا وثقافتنا والاندماج في مجتمعاتنا على اختلافها بهذه السرعة؟ هل هي مصادفة أنهم يرسّخون وجودهم بيننا يوما بعد يوم، وكل من يتشكك في نواياهم أو يجرؤ على توجيه أي اتهام لهم يُهاجم ويُحاصر ويُخرب بيته ويُطارد إلى أقصى الأرض؟ هل هذه صدفة؟ هل فعلا جاءوا من كوكب خارجي؟ ماذا لو كانوا كائنات مخلّقة جينيا في المعامل ليكونوا سلاحا بيولوجيا واجتماعيا يستخدم على نطاق واسع لصالح من يحركهم؟

ثم ارتفعت نبرة صوته، وقال كأنه بطل يخاطب الجماهير:

- هناك مؤامرة تُحاك ضدنا، وكل ما فعلتُه أنني جرؤت على دراسة هذه الكائنات الهجينة للتحقق من هذه المزاعم بشكل علمي منهجي، والنتيجة كما ترون.. أنا بعيد عن بلدي، وهؤلاء المسوخ صاروا نجوما وأبطالا..

انتظرته حتى أكمل كلامه ثم قلت:

- هل تسمح لنا ببعض الأسئلة يا دكتور زياد؟

لم يرد. وأجابني صوت الصفير المتقطع يعلن انقطاع الاتصال. قلت مبتسما:

- د. زياد أنهي الاتصال بعد أن قال ما لديه.

قالت سيرين:

- من الواضح أنه ليس مستعدا للحوار.

قلت مواجها الكاميرا:

- كان هذا اتصال د. زياد نصري، ومن الواضح أنه اتصال تكتيكي يقول فيه كلاما عامًّا، ويلقي فيه اتهامات جزافية لا دليل عليها، ولا هدف منها إلا تمييع الموضوع وإبعاد الأنظار عنه هو.. نحن ندعوه لمعاودة الاتصال في أي وقت والإجابة على أسئلة واضحة تخص عمله ومصدر معلوماته وتصريحاته عن المساخيط.. كيف عرفت كل هذا يا دكتور زياد؟ ما طبيعة التجارب التي أجريتها على المساخيط في مستشفاك؟ ما قولك في كل هذه الوقائع التي نسبت إليك؟. ننتظر اتصالك.

قالت سيرين في ثقة:

- لن يتصل.

قلت:

- إذن لننتقل إلى القصة التالية.. هل نتحدث عن قصة نادي الصيد السري؟

اكفهر وجهها وقالت في خفوت:

- الآن؟ هذا يكفي اليوم.. لن أحتمل المزيد..

# حكم بيع وشراء واقتناء العبيد من المساخيط

## فتوى منشورة للشيخ أحمد حسين زغلول

السؤال: ما حكم بيع وشراء واقتناء العبيد من المساخيط؟ وما حكم قتلهم؟

الإجابة: الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن والاه، أما بعدُ: فإن حكم معاملة المساخيط يعتمد على تمتعهم بالعقل، وهو شرط التكليف، فإذا ثبت أنهم كالأنعام والدواب كائنات غير عاقلة فهم مسخرون للإنسان كغيرهم من الكائنات مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ سورة يس.

وأما إذا ثبت تمتعهم بالعقل، فإنه بالقياس، يكون حكم قتلهم هو حكم قتل الإنس، فإن كان بغير سبب يبيح قتله، فلا يجوز، وأما إن كان قتله لدفع ضرره بحيث لا يمكن دفعه إلا بالقتل فجائز.

وأما أمر العبيد، فهو حكم العبيد في الإسلام، فإن شراء العبيد وقبوله كهدية هو أمر جائز شرعا بشرط حسن المعاملة وتقوى الله فيهم، فإن تحقَّقْتَ أو غلب على ظنك أن ما يُباع ليس برقيق وإنما هو استرقاق للأحرار فلا يجوز حينئذ الشراء، والله أعلم.

## فؤاد

بدأنا الحلقة التالية باتصال رتّبه فريق الإعداد مع الشيخ أحمد سعيد زغلول الداعية السلفي الشهير، الذي اشتهر بنبرته الهادئة اللينة، لمناقشته في فتواه الأخيرة بخصوص شراء العبيد المساخيط، وفتاواه الأخرى بخصوص المساخيط.. اخترنا الشيخ زغلول خصوصا لأن فتاواه مسموعة يأخذ بها كثير من الناس.

بدأ الشيخ زغلول اتصاله بديباجة عامة نوعا ما حول قدرة الله وبديع خلقه، مستشهدا بقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون). تركته يكمل مقدمته، ثم سألته مباشرة عن فتواه القديمة بإباحة أكل المساخيط. قال:

- لم تكن فتوى بإباحة أكل المساخيط، وإنما كانت توضيحا للسائل عن أحكام الحيوانات التي يجوز أو يحرم أكلها في الإسلام، وكان السؤال عن كائنات جديدة غير مصنفة، وأجبته وقتها على قدر السؤال.

- إذن فالإجابة قد تختلف الآن؟

- الفتوى آنفة الذكر كانت تسأل عن «حيوان من البرمائيات»، لكننا نرى الآن أن توافر صفة العقل تنفي صفة الحيوانية عن الكائن المذكور، فإن الفيصل هنا هو العقل وهو شرط التكليف، فإذا ثبت أنهم كالأنعام والدواب كائنات غير عاقلة فهم مسخرون للإنسان كغيرهم من الكائنات، وأما إذا ثبت تمتعهم بنعمة العقل فهذا يعني...

هنا قاطعته سيرين قائلة بعربيتها الركيكة:

- مولانا!.. معك يتحدث سيرين.. فهل عاقلة سيرين؟ وهل عاقلة المساخيط؟ أم من دواب وأنعام؟

- أفهم طبعا، وأنا أشرح كيف تنبني الأحكام الشرعية، وثبوت تمتع المساخيط بالعقل يترتب عليه شرعا عدد من الأحكام أولها أنه يحرم قتلهم، وبالتالي لا يجوز أكل لحومهم وأما ما قد سلف فيُعذر الجاهل بجهله.

سألته عن فتواه التي أجاز فيها شراء العبيد من المساخيط، وقلت:

- لكن يا شيخ زغلول مسألة العبودية هذه كانت في الماضي والآن الحياة اختلفت..

فقال الشيخ:

- الحكم الشرعي ثابت، والحاجة إليه قد تعود أحيانا حتى لو اختلفت ظروف الحياة. صحيح أن مسألة اتخاذ العبيد أصبحت نادرة جدا ولكنها إن عادت لأي سبب فحكمها الشرعي كما هو..

قررت تغيير الموضوع فسألته:

- أثير الجدل مؤخرا حول مسألة التزاوج بين البشر والمساخيط وبعض الأصوات كانت تتساءل عن رأي الشرع في ذلك هل أصدرت فتوى في هذا الشأن؟

نظرت لي سيرين نظرة طويلة، وابتسمت بدهشة وكأنها لم تتوقع مثل هذا السؤال.. تجنبت نظراتها وركزت على الكاميرا، بينما أجاب الشيخ زغلول:

- لم أصدر أية فتوى بهذا الشأن، لكن هذا الأمر له

شقان، الشق الأول هو إمكانية حدوث الاتصال الجسدي والمعاشرة والمتعة، وإمكانية حدوث الإنجاب أم لا، وهو أمر يفصل فيه العلماء والأطباء.. والشق الثاني يتعلق بالعقيدة وهذا أمر لا أعرفه، لكن لماذا لا نسأل الآن الأخت سيرين؟

- نعم؟

- ما هو دينكم؟

فوجئت سيرين بالسؤال ولم تجب، فألح الشيخ:

- هل أنتم مسلمون؟

- مسلمون؟ يعني دين الإسلام والقرآن والنبي محمد؟ كل هذا لا عند مساخيط، ولا في كوكب مساخيط.

- هل تعبدون الله الواحد الأحد؟ ما هي عقيدتكم؟

هزت سيرين رأسها في حيرة قبل أن تقول (بالإنجليزية هذه المرة) وهي تنظر لي:

- هي أقرب إلى فلسفات، ليست عقائد بالضبط، لكني لا أعرف كيف أشرح هذا.

قال الشيخ:

- من تعبدون؟ هل تعرفون من خلق الكون؟

- الموضوع معقد، هناك نظريات علمية و...

- هل سمعتم عن الإسلام؟ هنا على كوكبنا؟

- نعم..

- إذن فقد وصلتكم الرسالة، والآن أنتم مدعوون إلى دين

الله ولا عذر لكم.

سألتُه في حذر:

- وهذا شرط يا شيخ زغلول؟ أعني للزواج؟

- نعم، هذا شرط.

- هل تتحدث عن المرأة المسلمة فقط..؟

- والرجل المسلم لا يتزوج من غير المسلمة إلا إذا كانت من أهل الكتاب، أي من اليهود أو النصارى..

لا أعرف لماذا رمقتني سيرين بابتسامة خبيثة وبدا كأنها بذلت جهدا لتكتم ضحكة.. أنهيت المكالمة عند هذا الحد قائلا:

- شكرا يا شيخ.

# الفلسفة الروحية عند المساخيط

## تقرير مصور

المساخيط لديهم فلسفة روحية ومادية متكاملة، تتبناها الأغلبية منهم، أو من يسمون بـ(يوخدوجون)، وهذه الفلسفة يظهر أثرها وتطبيقاتها في الكثير من نواحي الحياة، مثل الطعام وطقوس الزواج، والعلاقة بشكل عام مع الكوكب والبيئة.

مر المساخيط عبر تاريخهم بمراحل حضارية تشابهت مع مراحل مرت بها الحضارة الإنسانية عبر تاريخها، وبالتحديد في مسألة الغذاء على الحيوان والنبات، وتصنيع الطعام بكميات كبيرة، بشكل يؤثر سلبًا على الكوكب وعلى البيئة، وعلى صحة الأفراد أنفسهم. المساخيط من جانبهم مروا في تطورهم بمراحل مشابهة، ثم مراحل أخرى أكثر تطورا.. ساد عندهم في البداية الاتجاه إلى الأكل النباتي فقط، من أجل ترشيد التعامل مع الحيوانات وتقليل التصنيع الضخم للأطعمة غير الصحية، وبعد سنوات انتشر عندهم اتجاه جديد يعتمد على معالجة الشعور الفطري لديهم بالتقزز والاشمئزاز والتخلص من نفورهم من الحشرات واستخدامها كمصدر رئيسي للغذاء.. وبذلك يصبح هذا الغذاء طعامًا ورياضة يومية كذلك (حيث يصطاد كل فرد وجبته بنفسه)، وهو جزء من فلسفة روحية تهتم بالتواصل مع روح الكوكب، وهي التي عُرفت عندنا باسم «فلسفة الدوائرية»، التي أخذها البشر عن المساخيط وبدأت تنتشر بالفعل ويُخصص لها مراكز

تدريب ونوادٍ في أنحاء الكوكب..

و(الدوائرية) فلسفة تتضمن بعض الأفكار النظرية عن الارتباط والتوحد مع الكوكب وحركات رمزية تعتمد على شكل الدائرة والطواف الذي يرمز إلى الحركات الفلكية للكواكب، وتتضمن عادات وطقوسًا في الأكل أهمها صيد وأكل الحشرات والديدان.. والموضوع يشمل معسكرات وتدريبات وطقوس للتدريب على التخلص التدريجي من التقزز والاشمئزاز، ثم الانطلاق في مكان زراعي لصيد الحشرات والديدان.. وأخيرا البدء في أكلها.

***

# فؤاد

لا أعرف لماذا شغلتني فتوى الشيخ زغلول إلى هذا الحد. الحق أن الفتوى، ولو أنها جاءت من الشيخ زغلول إلا أنها لا تخلو من وجاهة، خاصة الجزء الأول الخاص بشرط الطبيعة البيولوجية للزواج.. الرجل قال كلاما منطقيا بصراحة، ليس لأنني أهتم بهذا الأمر أكثر من غيري مثلا.. أنا فقط أريد أن أعرف، كما أريد أن أعرف أي شيء آخر.. هذا ليس غريبا ولا يعني أي شيء آخر.. أليس كذلك؟

الغريب فقط أن الأمر ظل يتردد في ذهني طيلة الليل، إلى أن رُحت في النوم.. بل إنني في نومي رأيت الكثير من الأحلام التي يتزوج فيها بشر من مساخيط، حتى أنني أنا نفسي - تصوروا! - كنت أستعد لزفافي على مسخوطة، وكنت أرتب مسألة «الكوشة» المناسبة، لمراعاة الحجم الصغير للعروس المسخوطة!

استيقظت من النوم وكدت أقهقه بصوت عالٍ وأنا أتذكر هذه الأحلام..

كان ذلك يوم الجمعة. نزلت لصلاة الجمعة مبكرا، فآثرت أن أتمشّى حتى مسجد الشهيد عند مستشفى حلوان العام.. وفي المسجد، وأثناء الخطبة لاحظته هناك أمام منبر الإمام، عند الصف الأول.. الشيخ عبد الغني! ياه! يالها من أيام!

الشيخ عبد الغني شيخ الكُتّاب الطيب البشوش المثقف، الشيخ الاستثنائي الذي كان يُحفِّظ الأطفال القرآن دون

عصا أو «جلدة» يضرب بها الأطفال.. كانت آخر أيام الكتاتيب عندما كنت صغيرا في كفر العلو، لكن أبي كان مقتنعا بأن الكتاتيب هي التعليم الحقيقي، وأصرّ على أن أذهب للكُتّاب إلى جانب المدرسة.. بكيت طويلا حتى يُخرجني من كُتّاب الشيخة زينب العنيفة المخيفة، ليُدخلني في كُتّاب الشيخ عبد الغني.. وافق أبي برغم أن بيت الشيخ بعيد عندما وعدته بأن أجتهد أكثر عنده.

كنت أحب صوته العذب وهو يقرأ القرآن، وابتسامته الهادئة المطمئنة التي لم تكن تفارق وجهه.. تغيّر كثيرا الآن، وظهرت عليه آثار الشيخوخة والمرض.

أسرعت إليه بعد الصلاة وصافحته بحرارة وذكّرته بنفسي، وفرحت عندما وجدته ما زال يتذكرني.. قال لي إنه جاء إلى هنا للمتابعة في مستشفى حلوان العام بعد إجراء عملية استخراج حصوة من الكلى.

جلستُ معه في المسجد قليلا بعد انصراف الناس.. لقد جاءني في وقته.. سألته عن المساخيط وعن الفتاوى التي تصدر كل يوم بخصوصهم.. قال لي:

- لا تظلموا الشيوخ يا بني.. الزمن تغير وباب الاجتهاد شبه معطل منذ عقود، وصار مقتصرًا فقط على القياس على الأمور والأحكام القديمة.. كل شيء تغيّر الآن.. الأمور صارت صعبة في زمنكم هذا.. التفاعل الإنساني نفسه تطور.. يمكنك أن تتواصل الآن مع شخص آخر بلمسات من أصبعك على هاتفك أنت.. صح؟.. وحتى بدون كتابة كلمات.. بمجرد اختيار وجوه تعبيرية!

لم أتمالك نفسي من الابتسام، فدفعني في كتفي بطريقته المميزة في المزاح:

- تضحك؟ تتساءل كيف يعرف عجوز مثلي هذه الأشياء؟ أحفادي يُعلمونني.. أحاول أن أفهم ما يدور حولي.. الموضوع صعب.. فكيف نحكم ونُحكّم الدين في كل هذا؟.. سُئلتُ مرة مثلا عن حكم التعليق بـ«إيموجي الحضن» على منشور امرأة أجنبية! والسائل يريد فتوى، السائل يسأل عن أي شيء يخطر بباله ويريد فتوى قاطعة.. والشيوخ يُصدرون الفتاوى دائما.. دائما لديهم رد..

- وماذا كان ردّك؟

- ردّي أننا شيوخ، لكننا بشر مثلكم. الناس يتناسون ذلك!

- نعم، لكن.. ماذا عن الفتوى؟

- ردي هو: لا أدري! كيف نقيس على هذه الحالة؟ الرجل لم يتكلم ولم ينطق ولم يحرك لسانه والمرأة التي استقبلت تعبيره لم تره، وربما لن تراه في حياتها أبدا.. أنا لا أعرف وهذه فتواي.. ربما حان الوقت لأن نعود إلى قوله صلى الله عليه وسلم «استفت قلبك وإن أفتوك».

***

انتشر الحديث مؤخرا عن فلسفة المساخيط وطريقتهم الفريدة في التواصل مع جوهر الكون أو الكوكب أو البيئة، لكن كثيرين لم يتحمسوا لهذه الأفكار، خاصة في القرى والمناطق الشعبية..

قال لي إسماعيل بواب العمارة المجاورة الريفي، بدون مناسبة، وهو يحضر لنا طلبات السوق:

- نحن لا نأكل من هذا الكلام يا بك، نحن متصلون بهذه الأرض وبهذه البيئة منذ آلاف السنين، ونفهم لغتها جيدا، ولا نحتاج إلى مترجمين من كواكب أخرى.

منطق يشع اعتدادا بالنفس لكنه يلخص شعور الكثيرين.

لكن الأمر لم يتوقف عند عدم ابتلاع فلسفتهم.

بدأ الموضوع بعد حلقة الشيخ زغلول في برنامجي.. أو أن هذا ما بدأت ألاحظه.. هل كان خطاب الشيخ زغلول مؤشرا على ما يحدث بالفعل تحت السطح؟ أم أنه كان الشرارة التي أشعلت النار؟

لا أعرف، لكن الأخبار بدأت تتواتر بعدها.

بدأ الأهالي في مراقبة هذه الكائنات في تجمعاتهم بالقرى وعلى أطرافها وبدأوا يلاحظون بعض الحركات والطقوس اليومية المنتظمة التي يقوم بها المساخيط، فرادى وجماعات.. طقوس تبدو ذات طابع عقائدي.. يؤدونها في مواعيد معينة عند انتصاف الشمس في السماء، وعند اكتمال القمر، وعند انتصاف الليل، وربما في بعض الأعياد والمناسبات التي يحتفلون بها في مواعيد بعينها..

ودائما هناك الدائرة.. يرسمونها على الأرض، ويقف داخلها المسخوط، أو يقفون حولها جماعة.. يطوفون في دائرة.. يدورون حول أنفسهم في دائرة، ثم يقتربون إلى

المركز تدريجيا حتى يتّحدون به.. يبدو أن لهذا رمزية ما عندهم..

قالت لي سيرين إن لهذا جوانب روحية وفلسفية، مرجعها وجود الدائرة في كل شيء يخص الحياة ونظام الكون من المدارات الكونية إلى دائرة الحياة نفسها.

بدأت الأخبار تتواتر.. فيديوهات صُوّرت خفية لمساخيط يمارسون طقوسهم، انتشرت على وسائل التواصل الاجتماعي ليشتعل الجدل كالعادة.. من الغاضب المستعد حالا لقتل من تجرأ على اختراق خصوصية عقائدية مثل هذه وتصويرهم دون إذنهم، إلى الغاضب المستعد حالا لقتل هؤلاء الكفرة الوثنيين الذين تجرؤوا على ممارسة هذه الوثنية بيننا.

ولم يتوقف الأمر عند حدود مصر أو المنطقة العربية، بل انتشر عالميا.. وكما حدث عندنا حدث في بقية الكوكب.. البشر هم البشر في كل مكان. العقول هي العقول برغم اختلاف الألوان والألسنة.. عقول يسكنها النور، وعقول يغشاها الظلام، هنا وهناك، عندنا وعندهم.

وهكذا حقَّ لنا هذه المرة أن ندافع عن أنفسنا بطريقتنا المفضلة: هذا لا يحدث عندنا فحسب، بل في العالم كله، في أمريكا وفرنسا والهند والصين وكوريا وروسيا واليابان..

كل التقدم والاستيعاب والتفاهم والتقارب الذي حدث في الفترة السابقة، وكل التقارب الثقافي والتبادل الفكري توقف عندما اصطدم بالدين. المجتمعات المحافظة أدانتهم دون تردد.. البعض اعتبر طقوسهم وثنية،

والبعض طرحوا نظريات خزعبلية تدّعي أنهم يمارسون نوعا من السحر الأسود أو عبادة الشياطين.. والتصقت بهم تهمة جلب اللعنة والفقر والوبال على الأماكن التي يقطنون فيها.

تراوحت ردود الأفعال بين السخرية والاستهزاء والاتهام بالوثنية، إلى الهجوم والتكفير، بل وإباحة الدم والدعوة للإبادة.. في حين تبنى البعض منهجا سلميا باتباع محاولات الهداية والإقناع بالديانات «الأرضية» عن طريق تعريضهم لتلاوات من الكتب المقدسة لعلهم يستجيبون ويتركون عقائدهم الوثنية.

وهكذا اشتعلت النيران ولم يعد إطفاؤها ممكنا.. صدرت أحكام وفتاوى التكفير وإباحة الدم، وخطابات سياسية ودينية وشعبوية تحض على العنف..

وفي هذه الآونة وإزاء هذه الدعوات كانت كل ردود أفعال المساخيط محكوم عليها بالإدانة مسبقا، فعدم الاكتراث والتجاهل يعتبر كفرا وعدوانية، بينما أي تصرف من أحد المساخيط بإبداء الاحترام والإجلال للأديان السماوية التي يعتنقها البشر (صارت تسمى العقائد الأرضية الآن، في مقابل عقائد المساخيط الفضائية)، فإن احترامه هذا يعد دليلا على الاعتراف والإقرار بصحة ديننا والاعتراف بضلالهم والإصرار عليه..

أما حالات النجاح فكانت الأكثر شعبية.. فيديوهات ظهر فيها رجال دين نجحوا في «هداية» بعض المساخيط وإقناعهم باعتناق أديانهم.. وهذا حدث مع أديان وعقائد مختلفة. شاهدتُ بعض هذه الفيديوهات.. لا أعرف

بالضبط ماذا تم خلف الكواليس وماذا كانت القصص التي انتهت بكل منهم بمشهد الاعتناق الدرامي المؤثر هذا، لكن لا يخفى على أحد أن للأمر مكاسب لا تنتهي (بالنسبة للمسخوط الذي يعتنق العقيدة الجديدة): قبول اجتماعي ومأوى وطعام وربما عمل ودخل ثابت.. فلو لم يكن هذا الاعتناق عن إيمان وقناعة فهو صفقة رابحة بالتأكيد.

لكن سلوك الدعوة للدين هذا كان من رجال الدين المسالمين.. كان هناك آخرون ليسوا بهذه الرقة ولا يتحدثون لغة المنطق، و هؤلاء كان لهم رأي آخر.

هكذا بدأت هذه السلوكيات الفردية في الظهور هنا وهناك.. بعض الشباب يحاصرون جماعة من المساخيط حول دائرتهم المقدسة، ويبولون عليها، ويضحكون في سخرية..

وهؤلاء كانوا مجرد أطفال أشرار.. غيرهم من الأهالي ذبحوا بعض أفراد المساخيط على الدائرة أمام أفراد أسرهم وصوروا ذلك بالفيديو ونشروه.

***

قالت لي سيرين في مرارة ويأس:

- إلى متى سنظل ندافع عن أنفسنا؟ إلى متى سننتظر أن تعطفوا علينا وتغيروا نظرتكم إلينا.. هذا مهين!

- أعرف يا سيرين صدقيني، هذا ما حدث معنا نحن أيضا.

- أنتم؟ من أنتم؟

- نحن.. البشر!

- حقا؟ ومن عاملكم بعنصرية؟

- نحن البشر أيضا.. الرجل عامل المرأة بعنصرية، والبيض استعبدوا السود، والغرب استعمر الشرق، وأبناء المدن مارسوا العنصرية ضد أهالي القرى.. ومعظم الأغلبيات اضطهدت الأقليات في مناطق سيطرتها ونفوذها..

- وحديثكم عن قبول الآخر؟ ظننت أننا قد نُصنف يوما باعتبارنا «آخر» يمكن قبوله!

- أي آخر هذا الذي تنتظرين منا أن نقبله يا سيرين؟.. نحن نجد أناسا يشتركون معنا في الوطن والعرق والدين والمذهب، لكنهم يختلفون معنا في الملابس الشرعية فنرفضهم وندينهم، بل ونبرر قتلهم.

- وما الحل؟ أنا تعبت.. لم أعد أحتمل.

- لكننا قد نصل إلى شيء.. اصبري..

- أنت لا تفهم.. الأمر ليس بهذا السكون من ناحيتنا.

- ماذا تعنين؟

- أعني أن بيننا من يفكرون في حلول أخرى غير انتظار تفضّل البشر علينا ببعض الحقوق.

- تقصدين.. بالقوة؟

نظرت لي ولم تجب.

***

عادت سلوكيات همجية في الظهور وزادت في الاستهزاء والتمثيل والتنكيل بهم.

ابتكر شيطان ما لعبة تعتمد على استثارة المسخوط للانتفاخ باستخدام حيلة، وهي دس عصا في مؤخرته ثم ربطه بحبل واللعب به كبالونة أو منطاد يحمل لافتة تهين المساخيط.

مظاهرات كاملة منظمة لأشخاص يحملون بالونات حية بهذا المنظر المهين.

***

جاءتني سيرين مصدومة وأشارت إلى ألبوم صور على التابلت يضم نماذج من التنكيل بالمساخيط: التبول على الدائرة المحاطة بالمساخيط.. حمل المساخيط كبالونات حية تتدلى عصي من مؤخرتها في مظاهرات جماعية تحمل لافتات مسيئة.

لم تكن حزينة أو غاضبة.. كانت مصدومة، لا تفهم. سألتني:

- لا أفهم.. من هؤلاء؟ ولماذا يفعلون هذا؟

- هؤلاء متعصبون.

- متعصبون لماذا؟

- لدينهم.

- دينهم؟ ومن تعرض إلى دينهم. لا أفهم.

- هذا هو التعصب! المتعصبون لدينهم يكرهون أصحاب الدين المختلف.. و.. ربما يريدونهم أن يعتنقوا دينهم.

ابتسمَتْ، ونظرت لي بحثا عن نكتة خفية، لكنني لم أضحك. تأكدَتْ من أنني لا أمزح، فعادت الحيرة لاحتلال وجهها. قالت:

- دينهم؟ يريدوننا أن نعتنقه، فيفعلون بنا هذا؟ هل تمزح؟

- للأسف لا.. لا أمزح!

- لكن.. أعني.. أليست أديانكم تدعو إلى السلام والمحبة والتسامح ومكارم الأخلاق..؟

- نعم..

- لكن.. بهذه المقاييس، فهؤلاء يخالفون أديانهم.. كيف يكون هؤلاء هم دعاة الدين؟ ألا يجب أن يكون ممثلو الدين ملتزمين به.. ظاهريا على الأقل؟

- نعم.. لكن.. لا أعرف كيف أشرح هذا.. قلت لكِ أن تاريخنا يعج بالمهازل والمتناقضات..

- لكن هذا غير منطقي.

- نعم البشر كائنات غير منطقية.. هذه حقيقة تاريخية. اجلسي واهدئي.

- أهدأ؟

- نعم.. لدي فكرة.. سنحاول أن نفعل شيئا.

## منى

ماما كانت تعبانة جدا اليوم.

سقطت في المطبخ، وعثرتُ عليها أنا بالصدفة..

وبعد الكثير من الصراخ والبكاء والعرَق عاونتُها على النهوض إلى السرير..

بابا لا يعرف وهي أصرت على ألّا نخبره.

# فؤاد

بمجرد بداية المناظرة بدأت أشعر أنني تسرعت وبالغت في تفاؤلي.. سيرين كانت على حق.

فوجئت في الأستوديو بأن مديرة اللقاء ليست هي نيفين. وقالوا إنها اعتذرت في اللحظة الأخيرة وجاءوا بالمذيعة مايسة رشاد. ومايسة ليست محايدة.. لن تكون محايدة، ولكنها ستحاول التظاهر بالعكس، وهذا أسوأ ، ولو أنها بدأت المناظرة بمقدمة متوازنة، تتظاهر بالحياد.. ظهرت الكلمات أمامها على الشاشة، وراحت هي تقرأ:

«كائنات غريبة ظهرت بيننا فجأة.. ما هي؟ ومن أين جاءت؟ وكيف جاءت؟

لا أحد يعرف..

ماذا نفعل معها؟ هل نكافحها ونقتلها كالآفات؟ أم نستخدمها ونُسخّرها لخدمتنا، كما نفعل مع كل ما تقع عليه عيوننا في هذا العالم؟

كان هذا هو الموقف، حتى اكتشفنا أن هذه الكائنات تختلف تماما عن كل الكائنات التي عرفناها من قبل، ولأول مرة في التاريخ نجد كائنا يمكننا نحن أن نتعلم منه.. لكن أنانيتنا، التي تغلبنا دائما، تدخلت كالعادة فأفسدنا كل شيء..

هل يمكن أن نتعلم من أخطائنا ونصحح الأمور قبل فوات الأوان؟

المساخيط أو اللاجئون الزرق.. ما لهم وما عليهم.»

ثم دخلنا في فاصل، عرضوا فيه فيديوهات مسجلة (لم يطلعني أحد عليها قبل الهواء!) تمهد لموضوع الجدل.. فيديوهات ليست محايدة تماما.. لم تهاجم المساخيط صراحة، ولم تكذب، لكن الصياغة والسرد واللقطات المستخدمة.. كل هذا كان يدينهم ويصنفهم..

وتوالى «العك»: بدأ السياسي (ممتاز شرقاوي) - الذي قدمته مايسة على أنه حقوقي ليبرالي - القصيدة بالكفر، وهو الذي يفترض أنه في جانبنا.. قال التعس:

- كيف نمنح كائنات كهذه حقوقا كحقوق الإنسان؟ هم ليسوا بشرا ولا تنطبق عليهم أية معايير حقوقية.. لا حقوق إنسان ولا حتى حقوق الحيوان.. نحن نحمي الحيوانات النادرة ونحافظ عليها من الانقراض بهدف حماية التوازن البيئي للكوكب.. أما هنا فالأولى بنا أن نفعل العكس، فهذه الكائنات دخيلة على كوكبنا، ووجودها هو الذي قد يخل بالتوازن البيئي.

علق (صلاح غالب) رئيس الحزب المحافظ الجالس في الجبهة الأخرى (المعارضة لوجود المساخيط):

- ونحن نتفق مع الفريق الآخر في هذا!

الرجل كان ينتظر أي رأي متعاطف مع المساخيط لينقض عليه فوجد هذا الهراء!

واصل رئيس الحزب:

- أعني أيه حقوق هذه التي قد نمنحها لهم؟ هذه كائنات همجية مقززة، تأكل اللحوم نيئة وتلتهم الحشرات.. بل تمتص الحشرات ثم تبصق بقاياها بطريقة مثيرة للاشمئزاز..

هل رأيتم هذا من قبل؟ ما هذا المنظر؟

التقط منه السياسي (ممتاز شرقاوي) الخيط، ووافقه ساخرا، وبدأ يحكي عن مشاهداته الخاصة ومشاعر التقزز التي تنتابه.

وهنا أدركت أن آداب الحوار لن تصلح هنا.. تدخلت دون استئذان وسألته ساخرا:

- هل كنت تفضل لو أنهم ابتلعوها؟

فوجئ بسؤالي ولم يجد ردا، وراح يرفرف بكفيه كطائر الطنان بحثا عن جواب، لكنني واصلت:

- سألت أحد المساخيط مرة: لَمَ لا تبتلعونها؟.. فقال: يع! هذا مقزز!

ضج الأستوديو بالضحك، وسألتني المذيعة بغباء عن سبب هذا الرد الغريب، فقلت ببساطة وبلهجة محايدة:

- التقزز مفهوم واسع جدا ولا يوجد اتفاق حوله حتى بيننا نحن البشر.. المقزز عندنا اليوم كان لذيذا مغذيا عند أجدادنا.. مأكولات شعبية عند بعض الثقافات الآن تثير تقزز شعوب أخرى، بل أجيال أخرى من نفس الثقافة.. في مصر لدينا ذلك النوع من المطاعم الذي نسميه «المسمط» يقدم كل شيء تقريبا في المواشي باستثناء اللحم، ويسمون هذه فواكه اللحوم.. اللسان والعيون والأحشاء والذيل والأعضاء التناسلية والمخ وكل شيء.. هذا مقبول ومنتشر في مصر، لكنه غير مفهوم ومقزز عند ثقافات أخرى.. بل وعند بعض المصريين كذلك.. والمصريون أنفسهم يتندرون في تقزز بأطعمة عند شعوب أخرى..

«يأكلون الضفادع في فرنسا.. تصور!».. «السوشي سمك نيء».. «يأكلون القطط والكلاب في الصين؟ فعلا؟».. حتى الحشرات هذه ليست عادة فضائية فقط، هذه موجودة عند شعوب أرضية عديدة تنتمي لكوكبنا، فهل هذا مبرر لسحب حقوق الإنسان منهم؟

تدخلت المذيعة وأعطت الإشارة للشيخ زغلول الذي كان متأهبا على الجانب الآخر، فقال:

- دعك من الطعام يا أستاذ فؤاد، فليأكلوا ما يريدون.. لكن عندهم الأخ يتزوج من الأخت.. الأخت!

ضحكت ولم أتكلم.. وضحكَتْ صديقتي الفرنسية صوفي، التي كانت معنا منذ البداية عبر محادثة الفيديو نتابع ما يقال عبر الترجمة الفورية.. قالت صوفي بعربية فصحى بلكنة فرنسية:

- يا شيخ، أنتم في مصر الآن تتزوجون بنت العم وابن العم!

قال بكبرياء:

- نعم!.. وماذا في ذلك؟

قالت:

- هذا مقزز عندنا.. ثم ألم تقرأ تاريخكم؟ في العصور الفرعونية كان المصريون القدماء يتزوجون الأخت.

احتقن وجهه وقال في حنق:

- هذه كانت عصور كفر ووثنية لا نقيس...

هبت المذيعة من مكانها مذعورة وقاطعته:

- مهلا مهلا يا شيخ..

- ماذا؟ نعم كانت عصور...

- نلتقي بعد الفاصل!.. اقطع البث!

***

التفتت له المذيعة فور قطع البث وهي تجزّ على أسنانها.. لو تركت العنان لانفعالها لطردته فورا. قالت بأهدأ لهجة ممكنة:

- يا شيخ زغلول، هل تريد أن تخرب بيوتنا جميعا؟ هذا كلام لا يقال على الهواء.

- أي كلام؟

- كلامك أنت! وصفك للمصريين القدماء بالكفر والوثنية. هذا ببساطة غير مسموح به.

- لكنه صحيح!

- ليس صحيحا! ورأيك هذا احتفظ به لنفسك! هذا كلام لا يصح!.. ألا تعيش معنا في هذا العالم؟

قال بابتسامة خبيثة:

- وأين إذن حرية الرأي والتعبير و...؟

احمر وجهها وهتفت:

- مكفولة، لكننا لن نترك موضوعنا لمناقشة الأساسيات والثوابت هنا.. واحترام التراث والتاريخ الوطني لا نقاش فيه هنا.. هل تكمل معنا بهذه الشروط أم لا؟

بدا عليه التفكير والتردد لحظات فأكملت مايسة:

- علما بأن انسحابك الآن سيعني أن هذه الحلقة لن تحتسب لك..!

- احمرّ وجهه وكاد يصيح في وجهها. هي تتحدث عن «الشيك».. المقابل المادي الذي سيحصل عليه مقابل ظهوره في هذه الحلقة، وقد يذهب بدونه لو خرج الآن.. وهو لا يريد ذلك. لكنه كذلك لا يريد أن يظهر في صورة الساعي وراء المال فقط.. لحسن حظه تدخل ممتاز شرقاوي، وقال:

- سيكمل يا أستاذة مايسة.. استهدَ بالله يا شيخ زغلول.

- يعني أمتنع عن الرد يا أستاذ ممتاز، والرد موجود؟

- لا يا شيخ، لكن الطريقة..

قاطعَتْهما مايسة وأشارت لهما بالصمت والاستعداد لعودة البث. أعطت مايسة الكلمة للشيخ زغلول من جديد فعاد يقول:

- رأيْنا في الفترات الأخيرة الطقوس والشعائر التي يمارسها المساخيط، وسمعنا عن بعض معتقداتهم التي يحاولون نشرها بيننا، وهي كلها أفكار وشعائر وثنية ما أنزل الله بها من سلطان.. فبدلا من تبني واعتناق هذه الأفكار الضالة على سبيل الموضة علينا نحن أن نعلمهم الدين الحق.

انتهزت مايسة فرصة صمته لتعطي المجال لصوفي، التي قالت:

- مجرد وجود معتقدات وفلسفات كهذه لديهم يعني أنهم كائنات ذكية متحضرة ذات تفكير وثقافة، وعلينا أن نحترمهم وأن نعاملهم بإنسانية.

أجابها الشيخ زغلول، الذي سمع مداخلتها مترجمة عبر الترجمة الفورية:

- حتى لو كانت وثنية متخلفة؟

- حتى لو كانت كذلك في رأينا.. أنا لا أعتقد أن هناك فروقا كبيرة بين معتقداتهم هذه وبين معتقدات البشر.

- لا طبعا الفرق كبير.

- هل تعرف كم عقيدة لدينا على هذا الكوكب؟ آلاف.. عشرات الآلاف.. هل تعرف ما رأي كل عقيدة من هذه العقائد في بقية العقائد والأديان؟ أنها كفر وضلال أو وثنية وتخلف. لقد استغرقنا نحن البشر قرونا وقرونا في حروب ومعاناة وصدامات ومذابح حتى تعلمنا بالطريقة الصعبة أن الحل الاجتماعي المريح هو ترك حرية العقائد للأشخاص.. لماذا سنتراجع عن هذا الآن؟

تدخل وائل بلباقة متحدثا بالإنجليزية وقد بدا عليه الفخر والإحساس بالأهمية:

- لأنهم ليسوا أشخاصا أصلا، وأي إنسانية هذه التي نعاملهم بها؟ كيف يحصلون على حقوق الإنسان، وهم لا ينتمون إلى جنس الإنسان أصلا؟

تدخلتُ قائلا:

- ومن قال إن الإنسانية للإنسان فقط؟ نحن نعامل

الحيوانات بإنسانية، نعامل النباتات بإنسانية.. الإنسانية تنبع من رقينا وأخلاقنا، وليس من سمو جنسنا فوق الأجناس الأخرى.

- هذا الكوكب ملكنا.. يخصنا نحن.. لماذا نسمح لهم بمقاسمتنا إياه؟

- ومن قال إنه ملكنا وحدنا؟ هو لكل الكائنات، كما جئنا نحن وأخذنا مكاننا فيه بين الكائنات الأخرى.. وحين تدخلنا في الحياة الطبيعية تسببنا في الإخلال بالتوازن البيئي وانقراض بعض الكائنات، وأوشكنا على تدمير البيئة وتهديد الحياة على الكوكب بأكمله.

- موارد الكوكب ستقل.. التوازن البيئي سيختل.

- نحن فعلنا ذلك وليسوا هم.. فلعل المساخيط يساعدوننا في إصلاحها.. وقد بدأوا في ذلك بالفعل.

***

كنت أكتب ملاحظاتي وردودي على كل ما قيل، لكن عندما أعطتني مايسة الكلمة، شعرت أننا لم نتكلم عن الموضوع المهم، وأن كل هذه كانت مناقشات فرعية..

تركتُ أوراقي، وتكلمت أمام الكاميرا لأول مرة دون نص محضر مسبقا وعلى الهواء.. قلت:

- السؤال هو: متى نقرر بالضبط أن هذا الآخر يجب احترامه ومعاملته بإنسانية ويستحق بعض الحقوق؟ ما هي الشروط؟ عندما يَعقِل؟ عندما يشعر؟ عندما يكون كائنا حيا؟ هل الشرط أن يكون من كوكبنا؟ هل لا بد أن

يكون من بلدنا؟ من ديننا؟ من جنسنا؟ أم لا بد أن يكون واحدا منا والسلام؟

ابتسمت ابتسامة خافتة لأخفف وقع الكلمة التالية:

- ما هذا النفاق؟ ألا يمكن أن نقبل الآخر إلا إذا كان واحدا منا؟.. نحن هنا نضع مبادئنا كلها على المحك.. هل نحن صادقون حقا في هذه المبادئ، أم أنها مشروطة؟ المبادئ والمثل الإنسانية، هل صارت جزءا منا حقا؟ هل نحن متحضرون حقا؟ هل نحترم حقوق الآخر حقا؟ أم أننا نتظاهر بكل هذا، لأن هذا هو الجو السائد؟ هل نؤمن بهذه المبادئ، أم أننا نمشي مع القطيع ونخشى الانتقاد، وبمجرد أن نخلو بأنفسنا بعيدا عن أعين الرقباء نفعل ما يحلو لنا؟

تراءت لي نادية في هذه اللحظة، وخطر لي أنها تشاهد الآن وتبتسم بسخرية وهي تقول «وماذا أيضا أيها الواعظ»! أبعدت الفكرة عن رأسي، وواصلت:

- ماذا؟ هل تعتقدون أن هذه أسئلة غبية؟ هل تظنون أن إجاباتها بديهية؟ فكروا مرة أخرى لو سمحتم.. فنحن أمام اختبار حقيقي ولا يبدو أننا سننجح فيه.

# ليزا

بابا أصبح مشهورا!

أنا كنت أعرف أن عنده قناة على اليوتيوب، ولذلك فهو مشهور من زمان. لكن بعد التلفزيون تقريبا أصبح أشهر. واحدة من زميلاتي في المدرسة قالت إنهم يشاهدونه على التلفزيون في البيت كل يوم.

لكن سميرة قالت إن أباها يقول إن بابا دماغه مغسولة (وهذا صحيح فهو يغسل دماغه كل يوم بالشامبو) وإنه سوف يتحول إلى مسخوط هو نفسه.

لم أفهم كيف يمكن أن يحدث هذا.. سألتها فراحت تسخر مني وتشتم بابا، فتشاجرت معها وعلمتها الأدب، ثم جاءت الميس، وأخذتنا إلى المديرة.

# فؤاد

لا أعرف الأسباب بدقة، لكن هذه المناظرة حققت نجاحا غير مسبوق، وانتشرت بسرعة على وسائل التواصل الاجتماعي في العالم كله تقريبا، والقناة نفسها حققت من هذه الحلقة وحقوق إعادة بثها وترجمتها وعوائدها من الإنترنت دخلا ربما يفوق دخل القناة بأكملها سنويا.

ثم تبعتها سلسلة من المناظرات المشابهة، نظمتها قنوات وشبكات إعلامية حول العالم، كل منها وضعت بصمتها طبعا، وتناولتها ونظمتها بطريقتها.. شاهدتُ النسخة الأمريكية والنسخة الأوروبية، ثم فقدت الاهتمام بعد ذلك، لكنني تابعت تفاصيل إنتاج النسخ الإسبانية والهندية والكورية..

تلا ذلك موجة من التناول الساخر للظاهرة في برامج الاسكتشات الساخرة الشهيرة حول العالم، مع سيل لا ينتهي من الفيديوهات و»الميمز« على السوشيال ميديا.. موجات سخرت من كل شيء.. من المساخيط، ومن المناظرات، ومن المتربحين منها، ومن المدافعين عن المساخيط، ومن مهاجميهم، ومن ظهورهم الغامض في السابق، ومن اندماجهم تدريجيا في مجتمعاتنا..

ووسط كل ذلك تغيرت حياتي تماما.. صرت إعلاميا ذا شهرة عالمية فعلا.

انهمرت عليّ الدعوات للمشاركة في مناظرات مشابهة حول العالم.. حضرتُ بعضها عبر الفيديو، وسافرت لحضور بعضها.. دعوات لأحاضر في جامعات مختلفة.. حللتُ

ضيفا على برامج تلفزيونية وحلقات بودكاست، واحتلت صورتي مجلات وصحف ومواقع إخبارية عالمية.

وفي مصر صرت نجما، ولم تضيّع القناة التي تعرض برنامجي الفرصة، فدفعَتْ برنامجي إلى توقيت أفضل، ورفعت ميزانيته، وحصل البرنامج على رعاية إعلانية بمبالغ ضخمة.. وصرتُ أنا أحد نجوم التوك شو في العالم العربي.

ولم يعد برنامجي متركزا حول المساخيط والموضوعات المشابهة فحسب، بل صار برنامجا عاما شاملا، يغطي موضوعات الساعة.

***

في تلك الفترة تطورت أحوال المساخيط كثيرا.. بدأت بعض المبادرات تعطيهم فرصا للمشاركة الاجتماعية.. حكومات غربية وشركات مختلفة بدأت تعتمد عليهم في مهن مثل ساعي البريد وعامل التوصيل، مستغلين سرعاتهم في الانتقال وقدرتهم على الطيران.. ثم توالت الأفكار المشابهة مثل مهنة عامل تنظيف المباني من الخارج، وعمال البناء، خاصة في المباني الشاهقة..

وفي حفل مطربة بوب أمريكية شهيرة ظهر بعض المساخيط في سماء المسرح، وشاركوا في تقديم استعراض موسيقي مبهر، ألهم الكثيرين بعدها لتكرار الأمر نفسه، حتى صار المساخيط جزءا من التقاليد الجديدة للحفلات الموسيقية والاستعراضية.

وبدأت شركات الدعاية والإعلان توظفهم في حمل اللافتات الإعلانية في سماء التجمعات الجماهيرية الكبيرة

مثل مباريات الكرة والمنافسات الرياضية الشهيرة، وحتى الأفراح الشعبية عندنا في مصر.

بعض المساخيط بدأوا يظهرون في السينما والتلفزيون، في أدوار ثانوية غالبا لكنها كانت بداية.

الجامعات ومؤسسات البحث العلمي بدأت تهتم بهم أخيرا لتبدأ الأساطير والخرافات التي تروى عنهم في التهاوي لنجد أخيرا بيانات علمية دقيقة نستند إليها.

بعض الأبحاث أظهرت تفوقهم الملحوظ في العمل الجماعي، حيث يعملون معا في فريق بتكامل فطري، وكأنهم مملكة من النمل أو النحل.. واستغلت بعض الشركات هذا الأمر فأسندت تنفيذ مشروعات كاملة إلى فرق من المساخيط، مثل بناء مدن أو حفر أنفاق أو إدارة مزارع..

أبحاث أخرى اكتشفت قدرتهم الفائقة على الحياة في درجات حرارة شديدة الانخفاض، فأمكن الاستفادة من ذلك في مناطق شديدة البرودة مثل شمال آسيا وشمال أوربا وكندا، خاصة في الأعمال الخارجية التي لا يقوى البشر على العمل فيها.

وفي مصر، استثمر رجل الأعمال نجيب ساويرس في الأمر وأنشأ قرية متكاملة منتجة يعمل فيها آلاف من المساخيط في الزراعة والصناعة والإنتاج.. قرية غزت منتجاتها الأسواق وقدمت مستويات مميزة من الجودة.

بعض شركات التقنية الشهيرة دخلت المشهد، وأعلن مديروها بفخر دمج المساخيط في العمل والإنتاج في

مصانعهم وخطوط إنتاج منتجاتهم.. تلك الشركات كانت تواجه اتهامات مستمرة بتوظيف عمالة رخيصة من الفقراء وأحيانا من الأطفال في ظروف غير آدمية في شرق آسيا، فوجدوا هذه فرصة جيدة لتحسين الصورة.

وتطور الأمر لاحقا ليشمل تعليم المساخيط ودمجهم في وظائف أرقى، مثل البرمجة والتصميم والإدارة، وبدأ مفهوم التنوع العرقي (الذي تلتزم به الشركات في اختيار العاملين بها) يتسع ليشمل المساخيط.

***

أظهر المساخيط قدرة استثنائية على التعامل والتفاهم مع الحيوانات، وبالتالي قدرة على توظيفها في العمل والاستفادة منها بشكل أكبر.. ومن هنا تم توظيفهم في عروض السيرك الترفيهية وفي حدائق الحيوان وفي مزارع الدواجن والمواشي وفي أنشطة الصيد باستخدام الحيوانات وفي أعمال تصوير الأفلام والمسلسلات خاصة الوثائقيات الخاصة بعالم الحيوان وفي مجال الطب البيطري والمحميات الطبيعية.

أنا بدأت كل هذا.. أو على الأقل أسهمت في إطلاق الشرارة التي أشعلت كل هذا.. فالمناظرة أدت إلى موجة من المناظرات الشبيهة حول العالم، وهذه المناظرات خلقت حالة موسعة من الجدل، أدت إلى تزايد قبول المساخيط عموما، وانتقلت بالجدل من الخلاف حول قبولهم في كوكب الأرض من عدمه إلى الكلام عن قبولهم في مجتمعاتنا ودمجهم فيها أم لا.

وبدأت بعض البلدان المتقدمة في تبني دمجهم في مجتمعاتها بشكل ممنهج، مثل كندا والسويد وهولندا وألمانيا وسويسرا، باعتبارهم سينفعون البلد كغيرهم من المواطنين.

وفي لعبة حشد سياسية قبيل الانتخابات قرر رئيس الوزراء الهولندي منح الجنسية لبعض المساخيط واعتبارهم مواطنين رسميا.. لتكون هولندا أول دولة في العالم تأخذ تلك الخطوة.

القرار شمل عددا محدودا منهم في الحقيقة، لكنه في المقابل دخل التاريخ وحقق هدفه وكسب شهرة وتفوقا باعتباره مثالا للحقوق الإنسانية والديمقراطية.

وفي المقابل ظلت بلدان أخرى على موقفها، وظل المساخيط فيها في تجمعاتهم النائية في الخلاء، مثل بلدان الشرق الأوسط وكثير من بلدان آسيا وشرق أوروبا وأمريكا الجنوبية وأفريقيا.. لكن وضعهم تحسن على الأقل في هذه البلدان.. صاروا يحظون ببعض الأمان.. وحتى الهجوم عليهم بدأ يقل، مع ظهور حالة جديدة من الانحياز للمساخيط وإدانة كل من يهاجمهم، أُطلق عليها اسم «الصوابية العرقية».. (على غرار «الصوابية السياسية»!).

أما سيرين فكانت مشغولة تماما مؤخرا.. كنت أراها تخرج مع (جاد) وتغيب طويلا في الخارج وتعود متأخرة.. أوقفتها مرة وسألتها فيم انشغالها، فقالت لي إنها.. تستعد للزفاف!

# الجزء الثالث

# إلى بعيد

## فؤاد

حفل زفاف سيرين وجادروبيت كان مدويًّا.. ربما لأنه كان أول حفل زفاف علني للمساخيط بكامل طقوسه وتقاليده.. وربما بسبب هذه الطقوس نفسها التي جذبت الكثير من الفضوليين والمهتمين للحضور والمراقبة.. وربما بسبب شهرة سيرين وربما بسبب المفاجأة التي حدثت في الزفاف نفسه.

***

مراسم الزواج عند المساخيط تستغرق يومين. ومنذ وصولهم إلى كوكب الأرض وهم يتزاوجون دون طقوس أو في احتفال سريع على نطاق ضيق.. هذه المرة أرادت سيرين إحياء هذه العادة وإقامة الحفل بكامل طقوسه. قالت لي:

- حتى نشعر بأننا في وطن، وبأن لنا أهل.. أريد أن أُشعرهم بالبهجة.. لقد عانوا كثيرا وهم يستحقون فرحة صغيرة كهذه.

- لكن.. أنتم لم تشهدوا مثل هذه الطقوس من قبل فـ..

- فلا يجب أن تعني لنا الكثير؟

- لا أعني هذا..

- الطقوس مجرد رمز نشاط جماعي يُشعرنا بالانتماء..

يقربنا من بعضنا.. أتعرف؟ ما كنا لنحتاج هذا الانتماء هكذا لو أننا شعرنا بالانتماء لكوكبكم بما يكفي.

- ولم لا؟

- نحن نريد، لكنكم لم تتركوا لنا الفرصة لننتمي إلى هنا.. أو ربما هي الظروف.. لا أعرف.. نحن ننتمي إلى كوكبنا بالاسم فقط، ولم نره قط.. كل معلوماتنا عنه هي ذكرياتنا المزروعة المتوارثة عن أسلافنا، لكننا ولدنا هنا ومستقبلنا هنا.. نحن بلا وطن حقيقي.

- الوطن ليس مكانا.. وطنكم هو أنتم.. أنتم تنتمون إلى بعضكم وهذا يكفي.

- ربما.. المهم أنني أردت أن نحتفل هنا.. لعلنا نستعيد بعض هذا الشعور بالوطن الذي لم نجربه في حياتنا.

كنت أتوق إلى مناقشتها في فكرة زواجها من أخيها هذه، لكن لساني انعقد ولم أنطق.. راحت ترمقني بابتسامة غريبة وسألتني:

- هل تريد أن تقول شيئا؟

هززت رأسي نفيا ولم أنطق.

***

تبدأ الطقوس عند غروب الشمس في مقتبل ليلة يكتمل فيها القمر. والمكان يجب أن يكون عند شجرة.. عادة في غابة، لكن هذه مصر، من أين سنأتي لهم بغابة؟ لحسن الحظ لدينا أشجار في حديقتنا..

تبدأ الطقوس برسم دائرة حول الشجرة يقف داخلها

أفراد عائلة العروس المقربين.. أما العروس نفسها فتجلس على أحد الفروع أعلى الشجرة فوق رؤوسهم، فهي زهرتهم التي يفخرون بها ويحيطون بها.. ويقف العريس خارج الدائرة ويدور حولها.. وبمجرد اختفاء قرص الشمس من الأفق يبدأ هو في الارتفاع عن الأرض، ويستمر في الدوران خارج حدود الدائرة وهو يرتفع تدريجيا، حتى يصل إلى مستواها فيحاول أن يثبت قليلا في الهواء (وهذا صعب عليهم بسبب التكنيك الذي تستخدمه أجسامهم في الطيران)، فيظل يصعد ويهبط وهو يجاهد للثبات لحظات، ثم يفرد ذراعيه نحوها ويطلب منها الزواج قائلا:

- يا أخت روحي لقد غربت الشمس، فهل تقبلين أن تكوني شمس حياتي، تغمرينني بدفئك بقية حياتنا؟

تنظر له العروس في عينيه ولا تجيب (هكذا تقتضي الطقوس)، وهنا يمكنه العودة للطيران والدوران حولها، على ألا تغيب عن عينيه أبدًا.. ويكرر ذلك ثلاثًا، حتى تشير هي إليه، وترفع ذراعها نحوه، فيحط العريس على فرع الشجرة المجاور لها وتتكلم هي أخيرا، وتقول (إذا كانت تقبل الزواج به):

- يا أخا روحي، لقد حل القمر وأضاء الدنيا لكن نورك في عيني أجمل وأجمل، فهل تقبل أن تكون قمر حياتي تنير ليلي وتبدد ظلامي بنورك بقية حياتنا؟

فينتقل العريس إلى جوارها على غصنها هي، ويحتضنها وتحتضنه، ويحلقان معا فوق الشجرة.

وهنا ترتفع أصوات أفراد العائلة بالغناء. غناء حنجري

على لحن مبهج، لا بد أنه يوازي عندنا لحن «ها قد أتت العروس» الشهير من أوبرا فاجنر، الذي غنت ماجدة الرومي نسخة عربية منه باسم «طلّي بالأبيض».

وهنا تنتهي طقوس اليوم الأول. وفي اليوم التالي وعند غروب الشمس كذلك يجلس العروسان هذه المرة داخل الدائرة تحت الشجرة نفسها وخارج الدائرة يجتمع الأهل والأصحاب وكل من يريد الحضور.. الدعوة عامة في ذلك اليوم.

حين أخبرتني سيرين قبلها بهذه الطقوس سألتها في حذر:

- وكيف سيوفر العروسان طعاما لكل هؤلاء المدعوين؟

ضحكت وقالت:

- لن يفعلوا، هذا واجب الضيوف.. كل منهم يأتي بكميات طعام وشراب للعروسين.. وللضيوف.

فكرت للحظات ثم قلت:

- هذا أسوأ! كيف سيأكلان طعاما من كل هؤلاء الناس؟

- ليس بالضرورة.. الضيف يقدم لهما الطعام فيحنيان رأسيهما شكرا، ثم يتناول كل منهما قطعة، فإما يأكلانها إن أرادا، أو يدسانها في فم الضيف نفسه ليأكلها هو!

قلت ضاحكا:

- جيد! على الأقل، لن يجرؤ أحد على تقديم طعام مسموم!

نظرت لي في حيرة ولم تفهم الدعابة.

هكذا حاولت تنظيم الأمور لتتم بشكل مثالي كما وصفتها سيرين. وفي اليوم الأول وقفتُ خارج الدائرة مع المقربين من المدعوين.. كنت أتمنى أن أترك كل هذا وأبتعد.. أريد أن أنفرد بنفسي، لكنني لم أستطع.. ربما تأتي فرصة لاحقا وينشغل الجميع.. وقفت أصوّر الطقوس البديعة بكاميرا هاتفي وبجواري نادية وليزا ومنى وعدد من الجيران والأصحاب وهم يلتقطون الصور والفيديو في سعادة..

ركزت العدسة على سيرين الجالسة على فرع الشجرة.. كانت تبدو في غاية الجمال، في ثوب بنفسجي بديع.. لا أظن أنني رأيت عروسا بهذا الجمال والرقة من قبل..

لكن الأمور لم تسر على السيناريو المرسوم.. بدأت المراسم كما هو متوقع، وحين صعد (جاد) يطير ويدور حول سيرين لم تنظر له في عينيه كما كان يجب.. كانت تنظر نحونا.. نحوي أنا..

كرر سؤاله (بلغة المساخيط) ثلاث مرات، وعندها استدارت له وقالت شيئا بلغة المساخيط لم أفهمه، لكنه - بالنظر لما حدث بعدها - لم يكن قبولًا.. قالت تلك العبارة، وفي آخرها كانت تشير نحونا.. نحو تجمع الحاضرين..

قالتها وحلّقت مبتعدة عن الشجرة وتهادت قادمة نحونا.. نحوي.. وهبطت بجانبي!

تركزت الأنظار علينا، فاحمرّ وجهي، وكدت أموت من الحرج، بينما هي كانت مبتسمة في بساطة.. أشارت إلى هناك نحو الشجرة، فتقدّمت أربع مسخوطات يرتدين أثوابا

بنفسجية فاتحة متشابهة نحو الشجرة.. لا بد أن هؤلاء هن الوصيفات..

سألتها همسا:

- ماذا فعلتِ؟

أشارت نحو الشجرة، بمعنى «ركّز هنا»، وهمسَت:

- سأخبرك!

لحسن الحظ توجهَت الأنظار نحو ما يحدث هناك وابتعدت عنا.. كان (جاد) قد احتل مكان سيرين على فرع الشجرة، بينما ارتفعت الوصيفات الأربعة ورحن يطرن ويدرن حوله في الهواء، ثم يتوقفن، وتتقدم إحداهن نحوه وتمد يدها وتقول شيئا.. يبدو أنها تطلب يده!

لم أستطع الاحتمال أكثر، قلت لسيرين في حدة، وإن حاولت الحفاظ على صوتي منخفضا:

- هلّا ترجمتِ لي ما قلتِه هناك؟

قالت:

- «إنّي أحبّك أخًا لي، تحت هذه الشمس المباركة، وفوق هذه الأرض الطاهرة، لكنك لست توأم روحي، وأنا لست شمسك.. شمسك تنتظرك في مكان ما..»!

قلت في ذهول:

- رفضتِ الزواج منه؟ في حفل الزفاف؟

ضحكت وقالت:

- لم أرفضه، فقط لم أتزوجه.. لا أحد يتزوج أخته أو

أمه!

- لكنكِ قلتِ...

- أعتقد أنها مشكلة ترجمة.. كلمة «زواج» عندنا تعني علاقة ارتباط داخل الأسرة بين ذكر وأنثى.. الولد يظل مرتبطا بأمه هكذا، حتى يطلب منها في زفافه صراحةً أن تصبح «شمس حياته»، فترفض وتُطلّقه، علامة على مباركتها لفكرة انفصاله عنها..

- إذن فهي كلها مراسم رمزية!

- تقريبا!

- والعروس؟ كلكم كنتم تعرفون من البداية أنها واحدة من الوصيفات؟

- نعم.. لا نعرف كلنا أية واحدة منهن.. لكن العريس والوصيفات يعرفون بالتأكيد!

أومأت متفهما بابتسامة واسعة.. رمقتني بنظرة طويلة وقالت:

- تبدو سعيدا!

قلت وكأنني أدافع عن نفسي:

- نحن نحتفل هنا.. أليست هذه مناسبة تدعو للسعادة والبهجة؟

كنت مخطئا!

المشكلة أن صور وفيديوهات اليوم الأول التي نشرت على السوشيال ميديا انتشرت انتشارا واسعا، وتناقلت

المواقع والصحف الخبر باعتباره أول حفل زواج رسمي للمساخيط على كوكبنا.. وهكذا فوجئنا بهذه الأعداد الضخمة جاءت لتشهد الحفل في اليوم الثاني. صحفيون ومصورون وفضوليون ومعجبون بسيرين ومتعاطفون مع قضية المساخيط جاءوا للاحتفال.

كل هذا كان جميلا.. حتى جاءت المظاهرة وحدث الشغب.. ليست مظاهرة بالضبط، مجرد تجمع صغير لمجموعة من المتعصبين، جاؤوا حاملين لافتات معادية للمساخيط ولتواجدهم بيننا.. وقفوا في صف طويل على مسافة من المشاركين في الحفل، صامتين في البداية، ثم بدأوا يهتفون باستخدام ميكروفونات، وكأنهم يحاولون التشويش على موسيقى الحفل.

شعرت بالقلق ورحت أتحسس هاتفي.. هل أتصل بالشرطة؟ لكن ماذا سأقول لهم؟ مظاهرات تهتف ضد المساخيط؟

بدأت أعدادهم في التزايد تدريجيا.. وبعد نصف ساعة سقط علينا أول حجر، أصاب مصباحا كهربائيا فحطمه، وساد الصمت والذهول بعدها، فبدا وكأنه قنبلة انفجرت بيننا.. ثم بدأت الحجارة تتهاوى علينا.. هنا اتصلتُ بشرطة النجدة وقالوا إنهم سيأتون فورا.

اندفع البعض يحاولون الخروج، فأشرت للجميع بالتوقف.. لن يستطيع أحد الخروج الآن.. وبدأت الحجارة تصيب أهدافا حية، وبدأت الدماء تسيل.. كان حصارا.

تناولت ميكروفون «الدي جي» وتحدثت مخاطبا المهاجمين:

- ماذا تريدون؟ نحن هنا في مكان خاص ولم نضرَّ أحدا.. أرجوكم دعونا وشأننا.

- توفرون لهم المأوى وتساعدونهم على التكاثر بيننا واحتلال بلادنا ووظائفنا والتهام طعامنا وتحتفلون بهذا؟ ثم تقولون لم نضرّ أحدا؟

- توقفوا عن التعصب والعنصرية.. ارجعوا لتاريخنا.. كم مرة جاءنا غريب وقبلناه بيننا، حتى صار واحدا منا؟ ما تفعلونه هذا ليس منا.

تعالت هتافاتهم ردًّا عليّ:

- أنت لست منّا.. لست منّا.

تناولت الميكروفون من جديد وقلت:

- الشرطة في الطريق!

كان هذا خطأ مني، لأنه استفزهم أكثر، وعادت الحجارة تنهمر بشراسة أكبر.

رفع المدعوون الكراسي والطاولات يحتمون بها، وهرعت أنا أفتح لهم الأبواب ليدخلوا البيت.. وحين وصلَت الشرطة كان قد سقط من بيننا عشرات الجرحى من البشر والمساخيط، ومات ثلاثة في المستشفى كلهم من المساخيط.

## سيرين

رحل العروسان لبيتهم في أحد معسكرات المساخيط، وعدت أنا لغرفتي في بيت فؤاد بالطابق العلوي.

وهنا راحوا ينظفون الفوضى التي حدثت في الحديقة وفي الدور الأرضي، وحاولت أن أساعدهم.. راح فؤاد يحاول إقناعي بأن أستريح «ولا أتعب نفسي» برغم أنني كنت أساعدهم في أعمال البيت في السابق، ولم يكن يمانع!

حاولنا استعادة جو البهجة والاحتفال، لكن جاء خبر وفاة ثلاثة من المصابين ليعيد حالة الوجوم.. كأن الموت وحش سكن معنا وسيطر على المكان ولم يعد بإمكاننا تجاهله.. ثم توالت الأخبار.. أطلقت الشرطة سراح القتلة بعد تبرئتهم من تهم القتل والاعتداء، إذ لم يسقط ضحايا من البشر، والقانون لا يعاقب من يصيب أو يقتل أحدنا.

حين سمعنا الأخبار كنت معهم جميعا في غرفة المعيشة وأمام التلفزيون.. تناول فؤاد الريموت وأغلق التلفزيون، وقال لي كالمعتذر:

- لن يفلتوا.. سأقاضيهم بتهم التخريب والاعتداء على الممتلكات و...

قلت في مرارة:

- الممتلكات نعم، لكن أرواحنا لا قيمة لها.

لم تكن الفكرة وليدة اللحظة.. كان جادروبيت يلحّ عليّ منذ زمن أن أنتقل معهم إلى المعسكر.. أعتقد أن الوقت قد حان الآن.. نهضت وقلت لهم بحزم:

- سأرحل.

***

عند مدخل المخيم اقتربتُ في رهبة ويدي في يد جادروبيت.

كان الوضع مأساويا هنا. نظرتُ له فرمقني بابتسامة غامضة، وقال:

- هنا سترين أحوالنا على أرض الواقع، سترين الحقيقة.. هنا سنبدأ العمل، وليس من فيلا فؤاد!

نظرت له في ارتياب ولم أنطق.. ماذا يجري هنا؟

توقفتُ وأدرت عينيّ في المكان، وتجاهلتُ جادروبيت الذي كان يدعوني لخيمته.. اتجهت إلى تلك الخيمة الكبيرة في منتصف المعسكر، وعندما وقفت أمامها رأيت تلك الراية الزرقاء فوقها، وعلى باب الخيمة رمز غريب لكنه مميز..

استدرت لجادروبيت خلفي في ذهول، وهتفت:

- هذا ليس مجرد مخيم..؟

- لا.. أنتِ لم تفهمي.

واصلت بغضب:

- هذا معسكر للتنظيم السري؟

- لا.. ليس بالضبط.

- ليس بالضبط؟ ماذا إذن؟ ما هذه الخيمة؟

- اهدئي أولا وتعالي لخيمتنا وسأشرح لك.

علا صوتي أكثر، وصحت بغيظ:

- لن أهدأ.. كيف تخفي شيئا كهذا عني؟ هل تستدرجني؟

- لا.. أقسم لكِ.. تعالي أولا.

جذبني بعيدا عن الخيمة وقال بصوت خفيض:

- هذا معسكرنا يا سيريناتيس، معسكرنا نحن أبناء كوكب (دوجونجواد) وليس المساخيط كما يسموننا.

- لا فارق!

- وأبناء التنظيم السري مناء.. (اليوخدوجون) و(الموخدوجون) منا، وهذا معسكرنا.. بيتنا.. من حقنا جميعا التعبير عن آرائنا بحرية دون وصمنا بالإرهاب كما يفعل معنا البشر..

- لا أصدق أنك تقول هذا.. لو عرفوا بوجود هذا التنظيم بيننا، أتعرف ماذا سيحدث؟ كل جهودنا للاندماج والتعايش بسلام، كل التقدم الذي حققناه، كل الحقوق التي نسعى للحصول عليها.. كل هذا سيضيع.

- أي حقوق يا سيرين؟ هل تنتظرين حقا منهم أي شيء؟ «الحدأة لا ترمي الكتاكيت» كما يقول البشر.. هذه الكائنات أنانية مسيطرة دموية.. لن نحصل على شيء منهم، صدقيني.. طرقك السلمية هذه عبث.. الاستسلام لهم والخضوع وقبول الذل والإهانة عبث.. الاستمرار في محاولات إثبات حسن النية إلى الأبد، وانتظار تعطفهم علينا بأي تنازل.. كل هذا عبث يا سيرين.. عبث.

- عبث؟ تعني أنك معهم؟

قال بسرعة:

- لست معهم لكنني لا أدينهم.. لا أشكك في نواياهم، وأومن بحقهم في الاختلاف..

رمقتُه في شك وقلت:

- جادروبيت، أنتَ لم تقل شيئا عن هذا من قبل.

- أنتِ التي كنت بعيدة عن أرض الواقع.. لم أشأ أن أصدمك.

- بعيدة؟ كنت مسجونة!

- طبعا، لا ألومِك، لكن حان الوقت لتشاهدي أحوالنا الحقيقية.. وصمنا بالإرهاب ومطالبتنا بالسلام لن يحل أزماتنا.. لن يطعم هؤلاء ولن يحميهم.

أحنيت رأسي وتنهدت في حزن. اقترب منّي وقال:

- آسف أنني لم أصارحك بالصورة قبل مجيئك.. أردت أن تريها بنفسك.

وابتسم مشجعا وأضاف:

- لا تقرري الآن.. عيشي الوضع واحكمي بنفسك.. لو أردتِ العودة فهذا حقك..

تناول وجهي بين كفيه ثم تمتم:

- أنتِ قلت لي أن فعل أي شيء أفضل من التذمر والرثاء للذات.. أليس كذلك؟

أومأتُ موافقة.

- حسنا، هذا هو المعسكر، وهؤلاء هم الدوجونجواديون، بأفكارهم واتجاهاتهم. وجّهيهم.. اقنعيهم قوديهم بنفسك.. ما زالت لديك الشهرة والكاريزما وكلهم يحبونك.

- ليسوا كلهم.

جذبني من يدي، واقترب من جماعة منهم جالسين أمام مخيمهم.. رأوني فأشاروا لي بسعادة وحماس.

رمقني جادروبيت بنظرة «ألم أقل لكِ؟».

واصلتُ السير في حيرة.. قال لي في ثقة:

- تعالي.. سأريكِ شيئا.. سيغيّر رأيك تماما.

نظرتُ له بتساؤل فابتسم في غموض وأشار لي بالتقدم..

# فؤاد

مع بداية الربيع بدأ الوباء فعله الرهيب. تفشى الوباء المميت، وحصد ما لا حصر له من الأرواح، وواصل تقدمه المدمر وانتشاره المخيف حول العالم، ولم تُجدِ أية احتياطات أو عناية بشرية لإيقافه. أنا لست بوكاشيو، ولم يكن هذا وباء الموت الأسود، لكنه كان الوباء الأكبر والأخطر منذ فيروس كورونا.. هذه المرة لم يكن واضحا من أين بدأ بالضبط، لكن الحالات المبكرة ظهرت بالتوازي تقريبا في دول شمال أفريقيا وجنوب وشرق أوروبا وبعض دول آسيا والخليج العربي.. انتشر المرض بسرعة قبل أن ننتبه إلى أنه مرض جديد..

لست متخصصا، لكنني فهمت أن السبب يرجع إلى دورة حياته العجيبة غير المألوفة لنا.. فترة حضانة الفيروس عشرة أيام، يبدو المصاب فيها سليما تماما لا يعاني من أية أعراض، بينما ينتشر الفيروس في الجسم ويتخذ موقعه كجيش حذر يتأهب للهجوم.. يلي ذلك أعراض برد خفيف؛ التهاب في الأنف وفقدان لحاسة الشم مع التهاب في العينين وسيولة مستمرة في الغدد الدمعية وصداع ودوار.. والأسوأ أن هذه الأعراض تختفي بعد ثلاثة إلى خمسة أيام.. الأعراض نعمة لا ندرك قيمتها حقا.. مع هذا الوباء اللعين تختفي الأعراض، فيظن المريض أنه شفي من نزلة البرد أو الأنفلونزا هذه ولا تبقى لديه إلا أعراض خفيفة منها يظنها بوادر شفاء.. وهنا يبدأ الهجوم الحقيقي الشرس.. هجوم ينتج عنه فقدان شبه تام لحاسة البصر وضعف تدريجي في حاسة السمع.. كابوس حقيقي

يعيش فيه المريض، فيصير معزولا عن الآخرين يتواصل باللمس، ويسمع بالكاد.. وفي الغالب لا يطول الأمر كثيرا بعد هذه المرحلة، فسرعان ما يجهز عليه الوباء تماما في غضون ساعات.

كل الأوبئة كانت تنشر الرعب والفزع بين الناس لكن هذه المرة كان الرعب مضاعفا.. الوباء كان مخيفا.. وصفه الكثيرون بأنه أسوأ من الموت.. حالة رعب من المرض، انتشر بسببها هذا الإجراء الاحترازي الرهيب: الاحتفاظ بجرعة سم قاتلة يبتلعها المريض فور دخوله في حالة العزلة الرهيبة إياها.. في شرق آسيا استخدموا الخناجر، والبعض استخدم أسلحة نارية.. البعض كانوا يوصون أحد المقربين منهم بقتلهم، لكن العواطف دائما ما تفسد هذه الأمور، كما أن القاتل سيخشى الملاحقة القضائية، فظل الانتحار هو الحل الأمثل.

راح العلماء والباحثون في مراكز الأبحاث والجامعات وشركات الأدوية يسابقون الزمن بحثا عن دواء أو لقاحٍ، لكن المفاجأة كانت بانتظارهم ..هذا ليس فيروسا بالضبط.. هذه عائلة كاملة من الفيروسات.

كانت مشكلتنا مع عائلة كورونا مثلا أن الفيروس يتحوّر وينتج سلالات جديدة مقاومة للقاحات التي ننتجها والتي تستغرق شهورا أصلا، فيظل هو يسبقنا بخطوة.. هذه المرة الفيروس لم يأت منفردا، وإنما جاءنا بعائلته كلها.. مجموعة سلالات مختلفة متحورة من البداية، رصد العلماء منها أكثر من 70 سلالة كلها تقود إلى نفس النتيجة، وكلها تستمر في التحوّر. كانت هذه نقطة لم أفهمها بالضبط..

هل هناك 70 فيروسًا انتشروا بيننا بالفعل؟ أم أنه فيروس واحد يجيد التحوّر إلى أكثر من 70 صورة؟ لا أفهم ولا أحد يفهم.

***

أين المساخيط من كل هذا؟

كانوا محظوظين هذه المرة، فلم يُبدِ الوباء قدرة على اقتحام أجسادهم.. لم يفهم العلماء سبب ذلك بالضبط، فهم يلتقطون بعض الأمراض من البشر، منها البرد والحصبة وبعض الأمراض الجلدية، وبعض الأمراض الأخرى لم تؤثر فيهم.. المهم أنّ مناعتهم من هذا الفيروس دفعت بعض الدول والشركات إلى الاعتماد عليهم حصريا في الخدمات والأعمال التي تتطلب خروجا وتعاملا مع الجماهير أو توصيل طلبات للمنازل.

وبعد فترة صار الطبيعي أن ينعزل البشر في البيوت، يعملون عن بعد من المنزل، بينما يتولى المساخيط الأعمال الخدمية الخارجية.

## سيرين

استيقظتُ مبكرا فشعرت بحركة ونشاط خارج الخيمة.. في الخارج كان جادروبيت ومعه مجموعة من المعاونين يقابلون ويفحصون عددا من الأفراد الواقفين في صفوف، ويختارون من بينهم، ويقسمونهم إلى مجموعات مختلفة.

اقتربت من جادروبيت، وسألته عما يفعله، فقال مبتسما:

- حركة توظيف من البشر.. يحتاجون إلينا في وظائف مختلفة..

- نعم نعم. فهمت.

- مالكِ؟

- لماذا تبدو سعيدا؟

- لأنني سعيد!.. هذه فرصتنا لاحتلال دور رئيسي في هذا الكوكب.

- لكن..

التزمت الصمت، فسألني:

- ماذا يقلقك؟

ترددت ثم قلت:

- لا أعرف.. الأمر بهذه الطريقة يبدو مريبا..

صاح بي بحنق:

- ماذا تعنين هل تتهميننا بـ...؟

- لا أتهم أحدا بشيء، لكن كل هذا يبدو مريبا..

انفجر بغضب:

- ماذا بكِ يا سيريناتيس؟ ليس لهذه الدرجة.. لقد صرتِ تنتمين لهم أكثر منا.

نظرتُ له ولم أُجب.. كنت أتوجس خيفة.. أشعر بشيء قادم ليس طيبا على الإطلاق.

## فؤاد

لا أعرف بالضبط مَن كان أول مَن طرح نظرية أن المساخيط هم مصدر الوباء.

والحقّ أنه لا يهم من طرحها.. في هذا الزمان صار بإمكان أي حمار طرح نظرية مهما كانت حمقاء.. أي معتوه قد يصير نجما في ساعات.. أي مخبول قد يثرى فجأة ويصعد إلى قمة الهرم الاجتماعي إذا بالغ في خبله بما يكفي ليأتي بنوع جديد نادر من الخبل.. في كل قضية وفي كل تريند تُطرح كل الآراء وكل التفسيرات، وكل النظريات تجد من يتبناها مهما كانت حمقاء..

لكن لماذا تنتشر آراء وتفسيرات بعينها دون أخرى؟ لا أعرف بالضبط.. لا أعتقد أن الأمر يعتمد على العقل والمنطق، وإنما على سلوكيات الجماهير.. الجماهير تندفع بعفوية وبقوة العاطفة.

ما الدليل أن المساخيط هم مصدر الوباء؟ لا يهم.. لا أحد يسأل عن الدليل.. نظريات المؤامرة لا تحتاج إلى دليل، المهم أن الفكرة كانت متداولة، من بين تفسيرات عديدة أخرى تناقلها الناس.. حتى جاء دونالد ترامب الذي كان بعيدا عن الأضواء منذ سنوات وظهر في فيديو جديد يصيح ويلوّح بطريقته المميزة ويهاجم المساخيط على تسببهم في هذا الوباء لكوكبنا، وكأن هذه حقيقة مؤكدة.. وبرغم تصنيع لقاح ناجح والبدء في توزيعه بالفعل فإن الأزمة لم تكن قد انتهت، وانتشر الفيديو حول العالم مصدرا موجات واسعة من السخرية والاستهزاء بهذا

النموذج منعدم المنطق، لكن السخرية من كلام الرجل لم تقف حائلا أمام انتشار نظريته.. بل إن السخرية نشرتها أكثر.

وهذا ما كنت أخشاه.

وائل نصيح وعزيز وأمثالهما يجيدون استغلال هذه الأمور.. يجيدون إعادة رواية القصة لتتفق مع روايتهم.. وهم فعلوها.. كانت هذه فرصتهم وقد أحسنوا استغلالها.. وائل نصيح في مصر، وكل وائل نصيح في كل بلد آخر.

كان برنامجي في إجازة بعد انتهاء موسمه الأول، لكن حتى لو كنا موجودين، ماذا كنا لنفعل أمام هذا الطوفان؟

فتحت التلفزيون مساءً على بعض البرامج الحوارية.. كان هناك ضيوف محنكون عالمون ببواطن الأمور يسردون أسرارا وحكايات ومؤامرات عن المساخيط وتاريخهم وطباعهم الخبيثة، بتفاصيل لم يسألهم أحد من أين حصلوا عليها.. وكانت هناك اتصالات تليفونية من مواطنين غاضبين، يصرخون هلعا على الهواء.. انتقلتُ لبعض القنوات الأجنبية، لم تكن الأمور أحسن حالا.. أطفأت التلفاز وخلدت للفراش سعيا لنوم لن يأتي بسهولة.

وفي اليوم التالي بدأت الأحداث الكارثية تتوالى.

# هل قصة ساندي دليل على النوايا الاستعمارية للمساخيط؟

## نقلا عن موقع (المفاتيح)

(...) وظهرت عدد من الدراسات النقدية والدراسات المقارنة مؤخرا، حاولَتْ ربط قصة ساندي بجذور تراثية تاريخية على كوكب الأرض، منها دراسة حديثة لباحث أمريكي متخصص في تاريخ الأدب الشعبي، ربطت القصة ببعض الحكايات الشعبية، أبرزها قصة (سندريلا) الشهيرة.

الدراسات الحديثة أعادت البحث في أصول قصة سندريلا نفسها بنسخها العديدة المتشابهة في مختلف الثقافات.. نعرف نحن في ثقافتنا العربية قصصًا شعبية عديدة تتشابه مع قصة سندريلا، فهناك (بديحتي) في عُمان، و(يمة سميكة) في الكويت، و(فاطمة الجميلة) في السودان، و(برق) في المغرب.. الدراسات أشارت أيضا إلى نسخ أخرى شبيهة في التراث العالمي في الصين وفرنسا وإيطاليا، بل وأعادت إلى الأذهان أقدم نسخة معروفة من القصة وهي قصة (رودوبيس) النسخة الفرعونية المطابقة لقصة سندريلا.

كانت الدراسات القديمة قد أرجعت كل ذلك التشابه إلى وحدة الفكر الإنساني، وإن رجّحت بعض هذه الدراسات أن القصة نفسها انتقلت عبر الثقافات من مصدر واحد قديم.. لكن الدراسات الجديدة بدأت

نتساءل إن كان هذا المصدر القديم له علاقة بالمساخيط وبكوكب دوجونجواد.

مجرد تساؤلات نقدية قد تمرّ مرور الكرام، خاصة أن ذلك التشابه المزعوم كان طفيفا، ويقتصر على شخصيات القصة.. فقصة ساندي بعيدة عن مشكلة الحفلة وزواج الأمير وحذاء سندريلا.

لكن ذلك الجدل امتدّ إلى البحث في اتجاه النظرية نفسها: هل زار المساخيط كوكبنا من قبل؟

استدل البعض على إمكانية ذلك برسوم كهوف تاسيلي الغامضة التي احتوت على رسومات لأشخاص مجهولين، يشبهون المساخيط.. أجسام نحيفة وعيون واسعة، كما أنها صوّرتهم يرتفعون في الهواء كأنهم يطيرون.

نظرية أخرى أشارت إلى كلام المسعودي في كتابه (أخبار الزمان) عن (ذكر الأمم المخلوقات قبل آدم عليه السلام)، قوله: «ومنها أمة طوال خفاف زرق ذات أجنحة كلامهم فرقعة».

هل كان يتحدث عن المساخيط؟

قد يكون هذا صحيحا.. قد تكون هناك بعثة قديمة من كوكبهم زارت كوكب الأرض في زمن قديم، ثم عادوا الآن من جديد.. وأرجع أصحاب هذه النظرية فرق الزمن الكبير بين الزيارتين لطول زمن السفر عبر الفضاء.. وقد يكون كل هذا هراء.

لكن الأجهزة الأمنية في عدد من الدول انتبهت إلى هذه النظرية، واعتبرت أنه في حال ثبوت ذلك فإنه

سيعني أن المساخيط قد رجعوا إلى كوكب الأرض هذه المرة بدوافع استعمارية.. أي أن الزيارة الأولى كانت استكشافية وتمهيدية لهذه. كلها نظريات، لم يثبت منها شيء بشكل قاطع، لكنها تنذر بتطورات وتصعيد في سياسات التعامل مع اللاجئين الزرق...

# فؤاد

كانت مظاهرة من المناهضين للمساخيط في مدينة 6 أكتوبر.. مظاهرة من حاملي الشارات الخضراء المميزة للحاصلين على اللقاح.. توجهوا في مسيرة احتجاجية طافت المدينة بهتافات ضد المساخيط تطالب بطردهم.. وزادت أعداد المشاركين وانضم لهم المزيد من الناس، ولسبب ما توجهت المسيرة إلى أحد معسكرات المساخيط في صحراء الهرم.

ودون مقدمات تحولت المظاهرات من الهتافات إلى الهجوم على المعسكر وتحطيم الخيام والاعتداء على المساخيط وطردهم من المكان.. سقط كثيرون منهم قتلى وجرحى وهرب أغلبهم من المعسكر، لكن عددا منهم عادوا بعد هروبهم محلّقين في الهواء، حاملين كميات من الحجارة فوق أنقاض المعسكر، ليمطروا بها المهاجمين الذين كانوا ينتشرون في أرجاء المعسكر.. وحين سقطت الحجارة فوق رؤوسهم لم يستطيعوا فرارا.. وسقط عشرات الجرحى من المتظاهرين وتوفي أربعة منهم.

وكانت هذه هي البداية. اشتعلت النيران ولم يعد بإمكان أحد إطفائها.

***

سعار أصاب الجميع.. البرامج الحوارية والصحف والسوشيال ميديا.. الجميع يهاجمون المساخيط بشراسة.. حملة مكثفة استغلت ما حدث ببراعة، ثم حالة رثاء وحداد مكثفة، ممعنة في الحزن والأسى على الضحايا..

لا تسئ فهمي، الروح لها حرمة والعزاء والحداد واجب، لكن هذا كان نوعا من الصيد في الماء العكر.. ففعاليات حداد منظمة وحلقات نقاش وتحقيقات عن الراحلين ولقاءات مع أسرهم.. كل هذا كثير.. اعذرني.. قبل كل شيء، هؤلاء مجموعة من المخربين المعتدين، ولولا أن المعتدَى عليهم لا يتمتعون بالحماية القانونية لأُدين هؤلاء المعتدين.. وبدلا من ذلك تحول مقتلهم إلى قميص عثمان جديد.. ذريعة لتغليب رأي على رأي وفريق على فريق.

برز برنامج وائل نصيح والبرامج الشبيهة في تلك الفترة، وخرج وائل علينا بسلسلة تحقيقات عن جرائم المساخيط أغلبها قديم أو وقائع فردية أو غير مؤكدة، لكنه وضعها معا كي يحقق الهدف المنشود.. مسخوط قاتل تم اصطياده وقتله.. مسخوط لص عُرف بسرقة المواد الغذائية من المتاجر الكبرى في بلدة بغرب الدلتا، وألقت الشرطة القبض عليه.. واقعة سجلتها كاميرات بعض المواطنين لمسخوط يدير مطعما مفتوحا يقدم فيه أطعمة للمساخيط ويرفض التعامل مع البشر.. عنصرية واضحة لكنها سُجلت في فيديوهات عديدة، وبرغم أنها عنصرية مضادة لكنها أثارت السخرية على السوشيال ميديا..

من أين حصل وائل على كل هذا ومتى؟

ولماذا الآن بالذات؟

***

ووسط كل هذا، ماذا سأفعل أنا؟ هل أستمر في الدفاع عنهم والانحياز لهم في البرنامج كما كنت أفعل؟

وددت لو أمكنني أن أصمت الآن.. ألا أضطر إلى إعلان موقف في هذا الوقت الحرج.. لست جبانا لكن إعلان موقف الآن بمثابة الدخول في حرب، ولا أحد يحب خوض الحروب.

جاءني رئيس فريق الإعداد الشاب يسألني بحرج:

- ماذا سنفعل في الحلقة القادمة؟

نظرت له في حيرة ولم أحر جوابا فتابع:

- أعني.. تعليقا على ما يحدث الآن.. هل هل سندافع عنهم أيضا؟

لا أدري لماذا شعرت بالاتهام.. صحت فيه بحنق:

- ماذا تعني؟ وهل سنغير مبادئنا الآن؟

تراجع بحذر وتمتم:

- لكن هذا صعب في هذه الأجواء.. لن يرحمنا أحد، و...

- وماذا سنفعل إذن؟

- إحم.. لدينا اقتراح..

التفتُّ إليه باهتمام.. كان يحمل أوراق الإعداد فعلا، ولم أنتبه لهذا وسط توتري.. تناولت الملف منه فتابع وقد تشجع قليلا:

- لن نستطيع تجاهل الموضوع الآن، لكن يمكننا تناول الموضوع بحياد ودون انحياز، كأنها متابعة إخبارية بلا تعليق من جانبنا.

- وهل لدينا مادة كافية؟

تحمس أخيرا وأجاب:

- الكثير.. روايات متعددة وشهادات عن الأحداث.. جهات رسمية محلية وأجنبية ومشاهير علقوا على ما حدث..

أشرت له بكفي، وقلت في ارتياح:

- صح.. هذا يكفي فعلا.. برافو عليكم.

ابتسم في امتنان وشكرني وانصرف إلى عمله.

أخذنا مواقعنا وأجرينا الحلقة. وقبل النهاية بعد منتصف الليل بقليل جاءني صوت المخرج يقاطعني فجأة بانفعال:

- اقطع يا فؤاد. عندنا إذاعة خارجية، حادث آخر في البرلمان!

تمتمت بتوتر وأنا أنظر إلى الكاميرا بعيون زائغة:

- ننتقل إلى بث مباشر لمتابعة حادث البرلمان.

رحت أتابع البث على الشاشة الكبيرة في الأستوديو. كان المشهد مذهلا..

كان المراسل أمام الكاميرا يتحدث وخلفه مبنى البرلمان، وأمامه دائرة من النيران تتوهج، كان يقول:

- ما يقرب من ثلاثين جثة من جثث المساخيط الذين يُعتقد أنهم من ضحايا أحداث الأمس.. الجثث تم رصها وسط دائرة نارية مرسومة على الأرض داخل سور البرلمان القديم.. عدد من المساخيط المجهولين حملوا الجثث

هنا متخفين في ظلام الليل ورسموا حولها دائرتهم الرمزية بمواد قابلة للاشتعال، ثم أشعلوها وهربوا.. ومن الواضح أنهم دخلوا وخرجوا طائرين.. لماذا فعلوا هذا ولماذا هنا؟.. المقتحمون لم يحاولوا تخريب أية منشآت، ومن الواضح أن هدفهم كان توصيل هذه الرسالة الرمزية.. أجهزة أمن المكان تستخرج الآن تسجيلات كاميرات المراقبة لمعرفة المزيد عما حدث، وللتعرف على الجناة.. والآن نرجع إلى الاستوديو.

عادت الكاميرا لي.. كنت مذهولا معقود اللسان. هززت رأسي بعصبية وأنا أنظر إلى الكاميرا، لا أدري ماذا أقول.. البرلمان؟ لا.. هذه حماقة لم يكن لها داعٍ قط.. قلت متلعثما:

- أعتقد أن وقت حلقتنا انتهى، و..

صاح المخرج في أذني:

- ما زال لدينا 10 دقائق.. استمر.

تجاهلته وواصلت في إصرار:

- نلقاكم في الحلقة القادمة.. تحياتنا.

***

ركنت سيارتي واتجهت للبوابة شاردا، حين شعرت فجأة بأصابع تقبض على كتفي من الخلف.. انتفضت في رعب، واستدرت بكل قوة الأدرينالين في دمائي ودفعت ذلك الشخص بعيدا عني لتفلت يده كتفي ويسقط أرضا.. كان الظلام يخفي ملامحه.. اقتربت منه لأراه

أكثر، وعندها شهقت قائلا:

- أنتِ؟

## منى

ماما ما زالت تتألم.. أعتقد أن حالتها تزداد سوءا. وبرغم ذلك قررَتْ فجأة أن تنهض وتعود لممارسة الرسم.. أخرجَتْ الفرش والألوان والأوراق وأدوات الرسم لأول مرة منذ سنوات، وراحت ترسم.. سكتشات بالرصاص، وبورتريهات ومناظر طبيعية.. كانت هذه أسعد أوقات ليزا، فانضمت لها، وراحت تقلّدها وترسم مثلها.. لا أعرف ما الذي حمس ماما لذلك فجأة لكنها كانت فكرة رائعة.. فجأة بدأت تستعيد حيويتها ونشاطها وروحها المرحة.. ثم تحمست أكثر بعدها وقررت ممارسة هواية جديدة.. بدأت تنزل الحديقة وتزرع بنفسها، مستعينة بفيديوهات من اليوتيوب. استغرقتها هذه الهواية الجديدة، وأصبحَتْ شغلها الشاغل.. أحاطت نفسها بالكتب والمجلات وغرقت في تطبيقات الموبايل المتخصصة في الزراعة والنباتات.. وتدريجيا بدأنا نرى زرعها يزدهر في الحديقة، بعد أن كانت خالية إلا من النجيل والأشجار القديمة.. دبت فيها الحياة، وبدأت الألوان تظهر فيها.. الطماطم والخيار والفلفل والخس والبصل والذرة والنعناع والروزماري والريحان وزهور لا أعرف أسماءها.. والأجمل أنها بدأت ترسم هذه النباتات الوليدة.. ومعها ليزا تلازمها كظلّها..

الغريب أن بابا لم ينتبه إلى كل هذا، وكأنه لم يلاحظ شيئا.. وكأنه لم يعد يراها.. ولم يعلّق إلا عندما لاحظ شجرة الفلفل التي جذبته رائحتها الحريفة التي يعشقها.. عندها دخل إلى البيت مبتهجا وفي يده قرن فلفل من

الشجرة، وسألها:

- من زرع هذه الشجرة؟

ماما ردت عليه ببساطة وكلمته عن هوايتها الجديدة..

لكن بابا لم يفهم.. كان يفكر أن كل هذا معناه أنها تتحسن وتتعافى. لا يعرف أن الأمور تزداد سوءا وأن الآلام تتضاعف.. أما هي فكانت تجبرنا على ألا نخبره بشيء.. لم تكن تريده أن يعيد النظر في سفرياته، فهي تعرف مدى أهميتها له ولنجاحه كما تقول..

لكن.. كيف لم يعرف هو بنفسه؟

## فؤاد

نهضت سيرين تنفض ملابسها وقالت بسخرية:

- أهكذا تستقبل ضيوفك؟

- ليس بالضبط.. ضيوفي لا يقابلونني هنا عادة.. اللصوص فقط قد يفعلون..

- حقا؟ لا خوف عليك من اللصوص إذن!

- معذرة، أنا متوتر حقا.

هزت رأسها أن «لا عليك»، فأشرت للداخل، وسرنا معا عبر البوابة وسألتها:

- لكن لماذا هنا؟

قالت بحرج:

- أردت أن أقابلك أنت.. لو دخلت سأقابل الجميع لأول مرة منذ رحلت و...

- وماذا؟

- بصراحة لا طاقة عندي الآن لهذه الدراما..

ابتسمت قائلا:

- ألا تخشين أن تأتيك الدراما مني أنا؟

لم تضحك. سألتها:

- ماذا بكِ؟

- ألا ترى ما يحيق بنا؟ هجوم مستمر من الجميع.. خطاب عنصري وتحريض ضدنا طوال الوقت.

- نعم.. وهذا ما نحاول تغييره منذ زمن..

- الأمر تجاوز الكلام الآن..

- أعرف.. آسف لما حدث..

- أتدري لماذا جئت في هذه الساعة المتأخرة؟ المشي في شوارعكم لم يعد آمنا بالنسبة لنا..

كدت أجادلها وأقول «ليس إلى هذا الحد» أو أي شيء من هذا القبيل، ثم تراجعت.. قلت بلهجة متعاطفة:

- كيف؟ هل حدث لك مكروه؟

- لست أنا، لكن كثيرين غيري.. من يُرى في الشارع يُقبض عليه ويُفتش ويُحقَّق معه..

- مِن البوليس؟

- لا.. من الناس! ومن يقرر الطيران فوقكم فإن حظه أسوأ.. يرمونه بالحجارة أو حتى يطلقون عليه النار..

- لهذه الدرجة؟

- نعم.. عدنا لأيام الصيد.. الناس مشحونون ضدنا.. صار الجميع يكرهنا..

- أو يخافون منكم.. هذا ما يفعله الخوف بالناس.

جلسنا على نجيل الحديقة.. شهقت بعمق واستشعرت الهواء البارد على وجهي.. ليلة جميلة، لكن الأحداث الجارية تجعلها ليلة سوداء. لماذا لا يمكننا الاستمتاع بليلة جميلة كهذه وسط الظروف القادمة؟ العسل يظل طعمه حلواً في فمك، حتى لو كنت في جنازة أبيك، أنت فقط

الذي تمنع نفسك من الاستمتاع بحلاوة طعمه لأنك تخجل من ذلك، وكأن الاستمتاع وسط الحزن عار.

قالت سيرين توقظني من شرودي:

- ماذا سنفعل الآن؟

- لا أعرف بالضبط.. أنا في موقف لا أُحسد عليه.. لا أستطيع إيقاف البرنامج.. وفي مجلس التحرير لم نستطيع العثور على مدخل للدفاع عنكم وسط كل هذا، ونحاول بالكاد عرض ما يحدث كما هو بموضوعية و...

نظرت لي شذرا، ثم قالت ببطء:

- لم تستطع الدفاع عنا؟ صرت تخجل منا إذن؟

قلت في حدة:

- وكيف أدافع عنكم وأنتم هكذا؟ لماذا التخريب والسرقة؟ المساخيط فعلوا ويفعلون كل هذا..

- والبشر؟ ألا يفعلون كل ذلك وأكثر؟ كم واحدا منا فعل ذلك؟ كم نسبتهم؟ مقارنة بالبشر فالمساخيط ملائكة.

- ألا يعرفون أن كل ذلك ضدهم وضد بني جلدتهم؟ كل هذا يسيء لكم جميعا.. ماذا سأفعل أنا؟ ثم لماذا يجب أن أحرص أنا على مصلحتكم أكثر منكم؟

- لأنك تقول إن هذه هي مبادؤك.. أنت قلت إن هذه هي الإنسانية.. الإنسانية هي الرقي والرحمة في معاملة الإنسان وغير الإنسان.. في معاملة كل كائن حي.. الرحمة في معاملة الحيوان اسمها إنسانية، لا حيوانية.. «الإنسانية صنعة الإنسان».. أليس هذا كلامك؟

قلت بخفوت:

- بل كلام فؤاد حداد!

- الذي كنت تعلّمه لي.. مع اللغة العربية!

لم أنطق. كانت محقة. هززت رأسي وقلت بأسف:

- معكِ حق، لكنني فعلت كل ما بيدي.. أتدرين كم أتحمل من أجلكم؟ كم خسرت وكم أخسر من أجلكم؟

- من أجلنا نحن؟ هل تمنّ علينا بالدفاع عن مبادئك؟

- لا لم أقصد..

نهضت وقالت بانفعال:

- لاحظ أنك كسبت كثيرا أيضا من وراء هذه القضية.. حين كان المزاج العام معنا كنتَ في مقدمة المشهد وصرت نجما إعلاميا..

- والآن سأخسر عملي وأخسر كل شيء لمجرد أنكم لا تبالون بمصلحتكم الخاصة وتصرون على إشعال الدنيا ضدكم.. أنتم لا تريدون توحيد صفوفكم.

- من قال إننا لا نريد؟ نحن نريد، ولكننا لا نستطيع.. لا نعرف كيف نفعل ذلك.. هل استطعتم أنتم فعلها؟.. إنكم منقسمون طوال الوقت.. دول وطوائف وجماعات ولغات وقبائل وأمم وأعراق كلها تتنافس وتتصارع وتتقاتل.. تهدرون جهودكم ومواردكم في الحروب والصراعات والمؤامرات.. وحتى الدول الشقيقة تتصارع وتتنافس وتتقاتل، ربما أكثر مما يفعل الأعداء.. بل إنكم كشعوب تخضعون لحكام لا تريدونهم، ودولكم تنتهج

سياسات وتخوض صراعات وحروب ضد إرادتكم.. بل إنهم يقمعونكم أنتم.. هل أنتم سعداء بكل هذا؟ لماذا لم تحلوا مشاكلكم هذه؟ لماذا لم توحدوا صفوفكم؟ ألا تعرفون مصلحتكم الخاصة؟

كانت محقة. تركتها حتى تنتهي.. بعد لحظات من الصمت قلت في خفوت:

- أنتِ محقة يا سيرين، نحن مثلكم نعاني من هذه الآفات.. وأنا لم أقصد مهاجمتكم، لكن.. أنتم لديكم الآفة نفسها..

- وهذا ما قلته.

- راجعي ما يحدث بدقة.. راجعي مواقع العمليات التخريبية التي يقوم بها المساخيط.. هذه ليست أعمالا فردية يا سيرين.. هناك مخطط منظم وممنهج، وكأنه يعمل تحت قيادة موحدة.

احتقن وجهها علامة على الغضب، وقالت:

- أنت.. أنت تردد كلامهم!

- لا.. افهمي قصدي..

- نحن إرهابيون، والعنف جزء من طبعنا.. نحن نتظاهر بالسلمية، وندبر لكم المؤامرات في الخفاء؟

- لم أقل هذا.

- بل هذا بالضبط ما قلته.. إنك حتى لم تجتهد في التفكير.. أول أزمة واجهتك توقفت وتخليت عن القضية كلها وبحثت عن أقرب نظرية بديلة جاهزة معلبة.

- لا.. اهدئي من فضلك.. كل ما في الأمر أنني أحاول أن أكون موضوعيا في حكمي.. نحن أصدقاء وتقريبا أسرة.

قاطعتني بحزم:

- كلا.

ونهضت مبتعدة في حزم.. توقفَت لحظة وأضافت دون أن تستدير:

- وأبلغني عندما يصدر الحكم.

## منى

لم أكن أسعى بأي شكل لأن أصير مشهورة في مجتمع الجامعة، لكن هذه الأمور ليست باختيارك دائمًا. وقائع عديدة جعلتني وجها مألوفا وسط الدفعة، منها قصتي مع د. عزيز وموقفه الدنيء الذي تسبب في اعتقال سيرين من بيتنا.. وأنا نفسي بُحت لبعض زملائي بهذه القصة التي انتشرت فيما بعد على أي حال، حينما ذاع صيت سيرين نفسها.

وعندما تحول المزاج العام إلى التعاطف مع قضية سيرين، وعلت الأصوات تطالب بمنحها حريتها، تحولت سيرين وقتها إلى رمز للقضية نفسها، وأصبحت صورتها تظهر على لافتات ومجلات حائط ومطبوعات في الجامعة.

وقتها كنت أواجه هذه الأسئلة الفضولية من زملائي في القسم: هل سيرين كانت تقيم عندكم فعلا؟ هل تكلمت معها؟

وتجاوز الأمر قسمي إلى الأقسام الأخرى نظرات فضولية بعضها يشي بالإعجاب وبعضها يشع بالامتعاض.. حاولت أن أتجاهل كل ذلك.. وحتى جلسات النقاش والجدال التي ينخرط فيها الطلاب فيما يتعلق بالمساخيط قضية الساعة كنت أنأى بنفسي عنها.

في البداية كنت أفعل ذلك لأنني أمقت أن أجد نفسي محط الأنظار وأعرف أن أي رأي سأتبناه سيقود إلى تفسيرات تربط كلامي بعلاقتي بسيرين، ثم تفتح الباب للمزيد من الأسئلة الفضولية.. لو تركت المجال لذلك

فسوف أقضي وقتي في الجامعة أروي تفاصيل حياتي وأعيدها على السائلين.

## سيرين

كان المخيم هادئا مظلما عندما وصلتُ بعد منتصف الليل. الجميع في خيامهم الآن وأغلبهم نائمون بالتأكيد.

لم أتجه لخيمتي، إذ كنت أعرف أن النوم لن يواتيني الآن.. واصلت السير في شرود حتى صف الأشجار الموازي للمخيم من الناحية الغربية، وتوقفت أمام شجرة عالية وشهقت بعمق لأسحب الهواء بداخلي، وارتفعت صاعدة للأعلى حتى وصلت إلى فرع كبير ممتد أفقيا بعيدا عن الغصون المتشابكة.. كانت هذه بقعتي المفضلة في المخيم.. من هنا أرى أمامي منظرا بديعا للمساحات الجبلية الممتدة، وللمدينة البعيدة خلفها.. ومن خلفي المخيم البائس، أراه كاملا من هنا.. مشهد بانورامي يلخص كل شيء.. من هنا يبدو القمر أقرب، وتبدو السماء أجمل.. ومن هنا أشعر أنني أحتضن هذه السماء.. أو أن السماء هي التي تحتضنني.. جلست على الغصن وكان هو هناك.. جادروبيت.

جلستُ بجانبه دون كلمة، سألني باقتضاب:

- فؤاد؟

أومأت برأسي إيجابا في صمت.

- تشاجرتِ معه؟

أومأتُ برأسي من جديد. صمتٌّ طويلا ولم يعلق هو، ثم انفجرتُ فجأة، وكأنما أتحدث مع نفسي:

- هو أيضا معذور.. واحد في موقعه، ماذا يمكن أن

يفعل؟ كل هذه الأحداث في هذا التوقيت بالذات.. من سيصدقه حينما يدافع عنّا؟ كيف يستمر في الحديث عن السلام وسط كل هذا؟

قال جادروبيت بخفوت وإشفاق:

- سيرين.. حبيبتي.

أمسك وجهي بين كفيه فتأملتُه بامتنان.

- أنتِ رومانسية أكثر من اللازم، مثالية أكثر من اللازم.. كل هذا ليس حقيقيا.

- ماذا تعني؟

- هذه سياسة يا سيرين.. كل هذا الكلام عن السلام هو خطاب دعائي موجه لجماهير وشرائح انتخابية بعينها لتحقيق مصالح وخدمة تيارات وأحزاب ضد غيرها.. هذا هو كل شيء.

نظرت له في حيرة، فأضاف:

- مجرد تلاعب بالجماهير لا يعنينا نحن.. موقفهم منا نحن كما هو.. البشر يروننا كائنات أقل.. كائنات تُسخَّر وتُستعبد وتُستخدم لا أكثر.. لن يسمحوا لنا بالاندماج في مجتمعاتهم.. سنظل بالنسبة لهم تهديدا ومصدر خطر.

تأملته طويلا.. السياسة تملأ هذا الرأس الأزرق.. ومنذ تعلم اللغة الإنجليزية وهو لا يكفّ عن القراءة عنها.. قلت ببطء:

- ربما لأن بعض المساخيط فعلا...

- حتى هذا يا سيريناتيس.. نحن لسنا مساخيط.. نحن

دوجونجواديون.. أنتِ تتكلمين مثلهم! انظري ماذا يفعلون بنا منذ جئنا إلى هنا.

- إذن أنت مع عمليات العنف هذه؟

قال بسرعة:

- لا، ليس بالضرورة، لكنني أرفض أن نوضع في موقف المتهم طوال الوقت. هم الذين يتعرضون لنا بالأذى والاستعباد والقتل والإهانة طوال الوقت، ثم يطالبوننا بإثبات أننا مسالمون ولا نضمر لهم شرا! وبمجرد أن يجرؤ بعضنا على الدفاع عن نفسه أو يرد الاعتداء بمثله نتحول كلنا إلى أشرار وإرهابيين.. ما هذا الهراء؟ أهناك منطق أغبى من ذلك؟

قلت في عصبية:

- لكنهم هكذا.. لقد عرفنا وفهمنا واقع وتاريخ هذا الكوكب.. هكذا تسير الأمور هنا، كما كانت الممالك في تاريخنا القديم.. القوة هي القانون، الدول والأنظمة هنا تقوم وتسقط بالقوة، الشعوب تُقيم دولها وتنتزع استقلالها بالقوة، الدول تأخذ ما ليس لها وتجعله حقها الشرعي وتأخذ اعتراف الدول الأخرى بالقوة والسياسة وتحالف المصالح وبالتقادم ومرور الزمن وبقاء الأمر الواقع على ما هو عليه.. هذا هو عالمهم، وهكذا يتعاملون مع بعضهم البعض..

- بالضبط.

- بالضبط ماذا؟

- بالضبط ما تقولين.. القوة هي القانون في هذا الكوكب.. لماذا إذن تلومين من يلعب معهم بقواعدهم؟

## منى

لا أعرف لماذا تصرفتُ هكذا في تلك الندوة.. لم أفكر.. كأنني كنت أشاهد ما أفعله كالآخرين!

كانت ندوة يشرف عليها الدكتور عزيز، الذي صرت أحرص على تجنبه منذ القصة إياها.. ويدير الندوة عمرو مبروك، ابن عمي العزيز، ورئيس اتحاد الطلاب!

كانت ندوة يحضرها مئات الطلاب.. في المعتاد عشرة فقط يكفون لإصابتي برهاب التكلّم.

لم أفكر في حضور الندوة، فأنا بالطبع لن أحضر ندوة للدكتور عزيز وعمرو معا.. لكنهم كانوا يستخدمون الميكروفونات والصوت كان مسموعا من الخارج، فسمعت جانبا من كلامهم عن المساخيط.. كان ما يقال محض هراء.. افتراء سهل ومجاني، لا يكلف نفسه التذرع ببعض الحجج أو القرائن.. افتراء واضح مُصمّم ومُوجّه للعقول الكسلى.. طار صوابي، ووجدت نفسي أفكر في هذه العقول الكسلى التي تريد أن تعرف الحقيقة وتصدق أول ما يقال لها.. هذه العقول لا يجب أن تُترك لهؤلاء. كنت عند الباب الخلفي لقاعة المحاضرات، وجدت نفسي أقتحم الباب.. انفتح الباب على مصراعيه فوجدت نفسي في مواجهة المنصة. التفتت العيون كلها لي في ترقب، بينما كان الدكتور عزيز يتكلم في الميكروفون، حين رآني.. تلعثم قليلا لكنه تمالك نفسه وواصل حديثه، وكأنني لست هنا:

- ورأينا كيف هوجم الذين تشككوا في نوايا هؤلاء المساخيط من البداية، وانهالت عليهم اتهامات بالتعصب

وتبني نظريات المؤامرة.. والآن رأينا ونرى بأعيننا ما يحدث كل يوم.. قلنا وحذرنا من المخطط الاستعماري للمساخيط ومن جيشهم السري الذي يتحرك بيننا، وسخروا منا.. هل عرفتم الآن من كان على حق من البداية؟

كنت أتقدم ببطء بين صفي المقاعد وأنا أرمقه بتحدٍّ، حتى وقفت أمامه مباشرة وهو ينطق عبارته الأخيرة.

مددت يدي دون استئذان وانتزعت الميكروفون بثقة من أمامه والتفتُّ إلى الطلاب وتكلمت:

- بعد إذن الدكتور عزيز، لا يليق بمن هو في مكانته العلمية أن يتلاعب بالحقائق ويلوي المنطق عمدا، ليروج لنظرية لا دليل عليها، لمجرد أنها تخدم مصلحته، أو تدعم رأيه، الذي لا دليل عليه كذلك.

احتقن وجه عزيز وصاح:

- كيف تجرؤين على...

قاطعته في ثقة وثبات لا أدري من أين جئت بهما:

- سألقي سؤالي وأنتظر الإجابة من حضرتك يا دكتور.. دكتور عزيز طرح مقدمات هي: أولا أن البعض طرح نظريات مؤامرة ضد المساخيط لا دليل عليها باعترافه هو.. وثانيها أن هناك أحداث عنف تورط فيها بعض المساخيط هذه الأيام. ثم خرج من هذه المقدمات باستنتاج (غير منطقي) وهو أن نظريات المؤامرة ثبتت صحتها، ثم أضاف عليها بعضا من نظرياته الخاصة، وهي أن هناك تنظيم سري. وسؤالي للدكتور هو.. هل هو يرى فعلا أن هذه النتيجة منطقية حتمية؟ ألا يمكن أن تكون هذه عمليات

فردية نتيجة الضغط والاضطهاد الواقع عليهم؟.. هل الدكتور عزيز فعلا غير قادر على التمييز بين النتائج المنطقية الحتمية، أم أنه يعرف جيدا خطأ الاستنتاج وتعمّد تلفيقه للتلاعب بالحقائق وإثارة العداء ضد المساخيط؟ بانتظار رد الدكتور!

ومددت يدي بالميكروفون وأعدته لمكانه بابتسامة باردة.

ألقيت نظرة على وجهه المحتقن في انتصار وأنا أتراجع منتظرة ما سيقول. كنت أعرف جيدا أن نقطة ضعفه في بطء ردود أفعاله، لكنني كنت أتوقع أن يفيق منها بأسرع من ذلك.. توقعت أن يقاطعني ويسحب مني الميكروفون.. لكنه لدهشتي لم يفعل، واستمر تلعثمه حتى وضعت الميكروفون أمامه، وكأنه لم يكن مستعدا.. بعدها صَمَتَ لحظات، ثم تمتم بكلمات عصبية غير مفهومة.. وأمام كل النظرات المحدقة به صاح أخيرا:

- قلة أدب! هذه قلة أدب! أنتِ.. أنتِ مفصولة.. هاتي الكارنيه!

نظرت له بدهشة، فصاح بصوت أعلى وفي صرامة وتصميم وكأنما وجد المخرج:

- قلت هاتي الكارنيه!

ابتسمت ببساطة وقلت:

- لا!

واستدرت مغادرة القاعة وسط الصمت الرهيب.

# سيرين

فوق تلك الشجرة كنت أجلس شاردة، فلم أنتبه إليهما وهما يقتربان من الشجرة تحتي، إلا حينما صاح جادروبيت باسمي.. كانت هذه (منى)، جاءت بنفسها لتقابلني هنا! يالها من مفاجأة! هبطت وأنا أصيح ضاحكة:

- كيف جئتِ إلى هنا؟ مجنونة طول عمرك!

وقف جادروبيت يراقبنا ببرود ونحن نتبادل الأحضان فالتفتت (منى) نحوه، وقالت بابتسامة حارة أكثر من اللازم:

- شكرا يا جادروبيت.

ظل واقفا فهزت رأسها بنفاد صبر وقالت لي:

- ممكن نتكلم على انفراد؟

ابتسمت وجذبتها من يدها للخارج وأنا أقول:

- طبعا.. تعالي نتكلم في الطريق، سأوصلك لبيتك.. اشتقت للمكان هناك!

قلت مداعبة وأنا أتبعها:

- في عُرفنا، هذه قلة ذوق استثنائية.

- أنا استثنائية كما تعلمين!

***

في حديقة الفيلا افترشنا النجيل الأخضر.. روت لي ما حدث في الجامعة بالتفصيل، استمعتُ لها في صمت وانتباه ولم أقاطعها حتى انتهت، ولم أعلق.. لم يكن لديّ ما أقوله.

سألتني:

- ما رأيك؟ لم لا تقولي شيئا؟

- لا أعرف.. لا أعرف شيئا عن قوانين الجامعة، لكن والدك...

- - دعك من هذا، أنا أتكلم عن هذه الحالة التي وصلتم إليها، وهذا العداء الذي صنعوه ضدكم.. ألن تفعلي شيئا؟ نظريتهم التي ينشرونها هذه عن تنظيم سري و...

هززت رأسي في أسف.. ماذا أقول لها؟ أنني نفسي لم أعد متأكدة؟ لم أنطق. سألتني بخفوت:

- ماذا بك يا سيرين؟ فيم تفكرين؟

- منى، نحن هنا أقلية.. أضعف من أضعف أقلية عندكم.. نحن كالحيوانات هنا..

- و...؟

- ولا يمكنك لوم بعض الأفراد الذين يريدون الدفاع عن أنفسهم.

- ماذا تعنين؟

- نحن نحاول الحصول على حقوقنا بأية طريقة، ومن الطبيعي أن تختلف الآراء في هذا.. نحن مثلكم، بيننا الحكماء وبيننا الحمقى والمتهورون..

- سيرين، ماذا تقولين بالضبط؟ هل تعنين..؟

- لست متأكدة.

انتفضت (منى) واقفة، وهتفت في ذهول:

- لست متأكدة فعلا؟

نهضتُ وجذبتها من ذراعها لتجلس، وقلت:

- لست متأكدة بعد، لكن حتى لو كان صحيحا، فهذا تنظيم ضعيف في النهاية.. ثم إن مطالبهم مشروعة.

- بالعنف يا سيرين؟ ألديك أية فكرة عما قد يعنيه ذلك؟

- لا أعرف، قلت لكِ لست متأكدة.

- لكنك تعرفين شيئا..!

- لا أعرف حقا.. مجرد شكوك.

كنت أتكلم وأنا أغرس أصابعي في الطين وأقلّب فيه، حتى التقطتُ دودة صغيرة فرحت أمتصها وأبصق بقاياها في توتر، وأضفت:

- شكوك بلا دليل واحد، لكنني أعرف أنهم يرفضون العنف، مثلي ومثلك.

قالت منى في عصبية:

- أو هذا ما يقنعونك به.

- ماذا تعنين؟

- أعني أنهم يخدعونك.. ربما هو تنظيم أكبر وأعنف وأخبث مما تظنين.

- لا أرى ذلك.

- ربما هم يخفون عنكِ كل هذا.

- ربما.. ربما.. هذا كلام نظريات المؤامرة يا منى.

- حتى نظريات المؤامرة تصدق أحيانا.. لم يعد هناك شيء مُستبعد.. انظري لي.. وقفتُ بمنتهى الثقة والحماقة أدافع عنكم وأنفي هذه النظريات أمام الجامعة كلها، وها أنت تقولين إنكِ لست متأكدة!

ثم زادت عصبيتها فجأة وصاحت فيّ:

- وتوقفي لحظة عن التهام الحشرات وبصقها أمامي.. هذا مقزز!

توقفتُ عن المضغ مبهوتة.. قلت وأنا أخرج البقايا من فمي وأدفنها في الطين وأتحاشى النظر إليها:

- أنتِ تتكلمين مثلهم.

- آسفة.. لم أقصد.

- لا، أنا التي يجب أن تعتذر.. لكنني.. لا أفعل هذا أمام البشر عادة.. أنا أكون على طبيعتي معكم فقط.. لأنكم أسرتي.. لكنني لن أفعل هذا أمامك مرة أخرى.. أعدك.

قلتها ونهضت.. لا أظن هناك المزيد من الكلام الآن.. قالت (منى):

- آسفة يا سيرين، صدقيني لم أقصد..

- أما عن موقفك في الجامعة فهو موقفك أنتِ يا منى.. موقف نبيل أن تنحازي لضحايا وتطالبي بحقوقهم، لكن لا تفرضي شروطك عليهم، ولا تتوقعي منهم الالتزام بهذه الشروط.. أو فلتراجعي موقفك أنتِ.

# فؤاد

دخلت من بوابة الفيلا فوجدت سيرين أمامي في طريقها للخارج..

كانت مفاجأة سعيدة.. ابتهجتُ حقا لرؤيتها.. كنت أتمنى رؤيتها قبل سفري.. متى كانت آخر مرة جلسنا فيها وحدنا معا؟

لم أدرك مدى اشتياقي لها إلا عندما وجدتها أمامي.. وعلى غير عادتي فاضت مشاعري ووجدت نفسي أحتضنها.. رفعت عينيها الواسعتين إليّ في دهشة.. كان وجهها حزينا، لكنها كانت تنظر لي في حيرة.. وحب.. أعتقد أنه حب..

هذه الشفاه الصغيرة المكتنزة كانت تنتظرني.. لطالما فكرت في تذوقها، لطالما زارتني في أحلامي، مضاعِفةً آلامي وشعوري بالذنب.. كنت أطردها وأهرب منها، وأكره نفسي..

هذه المرة استسلمتُ لها واستسلمَتْ لي.

وجرفتني المشاعر، وقررت أن أعترف. قلت لها:

- سيرين، أنا..

وضعَتْ أصابعها الرقيقة على فمي وقالت بحزن:

- لا.. لا تقل شيئا..

- لماذا؟

هزت رأسها في إشارة إلى البيت، ثم استدارت

وانصرفت..

ماذا تقصد؟ البيت؟ أم.. مَن في البيت؟

وجدت نفسي أمام شجرة الفلفل اليانعة.. اقتربتُ منها، فأفعمَتْ رائحتها النفاذة المنعشة أنفي، وراودني شعور بالذنب أن ما حدث بيننا ذلك كان أمام شجرة الفلفل..

# نادية

رأيته معها.

أنا أعرف حالته جيدا.. أشعر به وأفهم كيف يفكر.. أعرف أنه يعاني وأنه ضعيف هذه الأيام، ولا يمكنني أن ألومه بعد أن أصبحتُ هكذا.. بقايا امرأة..

من يمكنها أن تلوم زوجها على الزواج بعد وفاتها؟ فقط المتوفاة تكون محظوظة لأنها لا ترى ذلك بعينيها.. يمكنها أن تموت وهي تقنع نفسها بأنه لن يفعلها وسيظل مخلصا لها.. لكنني رأيتُ بعيني..

وهي التي رفضت!.. كان يقول لها شيئا وهي التي رفضت!

هذه هي سيرين التي أعرفها!

ككل مرة، تفعل الكثير من أجلنا.. وبرغم ذلك، لم أترك لنفسي الفرصة لأمنحها الحب الذي تستحقه.

# فؤاد

كنت أود أن ألحق بسيرين.. أن أتحدث معها.. أن أبقى بجانبها أكثر بعدما حدث.. لكنني كنت قد ارتبطت بسفرية مهمة إلى الخارج.. كنت قد تلقيت دعوة لحضور منتدى إعلامي عالمي في أوروبا حول القضايا الراهنة وخاصة اللاجئين الجدد (المساخيط)، وبالفعل رتبت للسفر واعتبرتها فرصة للحصول على إجازة مؤقتة من تقديم البرنامج.

لا أريد أن أتحدث.. ليس عندي ما أقوله.. هذا هو عيب هذه المهنة الذي لم أكن أتحسب له، عليك دائما أن تجد ما تقوله.. عليك دائما أن تتخذ موقفا وتطلق حكما واضحا.. ليس من حقك أن تبقى كالآخرين في المنطقة الرمادية، تشاهد من بعيد ولا تعلق، أو تكتفي بـ»لا أعرف» و»لا أهتم» و»بالتوفيق للجميع».

وعلى هامش زيارتي إلى أوروبا حللت ضيفا على عدد من البرامج التلفزيونية والإذاعية حول المساخيط وأحوالهم في مصر والشرق الأوسط، وأجريت كذلك مقابلات صحفية مع عدد من أبرز الصحف الأوروبية.

تعمدت زيادة مدة سفري حتى أقتطع بعض الوقت لأحصل على قسط من الراحة والاستجمام.

أرسلت رسالة قصيرة قبل سفري إلى صوفي دولاك، بموعد وصولي إلى فرنسا.. لم نكن قد التقينا وجها لوجه منذ سنوات، لكننا كنا نتواصل بالرسائل من آن لآخر، آخرها كانت تلك المناظرة التلفزيونية.. ردت على رسالتي

بسرعة، ترحب بزيارتي وتدعوني للقاء..

كان لقاء حميميا، كأننا كنا صديقين منذ الطفولة.. رحنا نتبادل الأخبار ونستعيد ذكريات الأيام الخوالي.. تأملتها عن قرب.. كانت قد كبرت بالطبع، إلا أنها ظلت بارعة الجمال كما كانت.. وربما أكثر. أخبرتني أنها حصلت على الماجستير، وتعمل الآن في متحف التاريخ الطبيعي في فرنسا، وما زالت مشغولة في الدكتوراة.. هؤلاء القوم لا يتوقفون عن الدراسة!

سألتني عن نادية، وتحدثت عن أول يوم قابلتها فيه في الجامعة.. لم يفتني ملاحظة تلك الابتسامة التي ظهرت على ملامحها من جديد.. سألتها:

- قولي لي.. ماذا قالت لك نادية في ذلك اليوم.. في الجامعة؟

رمقتني بابتسامة عابثة، وقالت:

- ولماذا لم تسألها هي؟

- سألتها ولم تخبرني..

- وجئت إلى فرنسا لتسألني هذا السؤال؟

- ليس إلى هذا الحد طبعا، لكنني هنا الآن، فلماذا لا أسألك؟.. يمكنكِ أن ترفضي الإجابة طبعا..

تأملتني طويلا ثم قالت:

- ألم تلحظ وقتها قطُّ أنني كنتُ واقعة في حبك؟

قلت في ذهول:

- أنتِ؟

تراجعت بظهرها للخلف، وضحكت وهي تقول:

- نادية كانت محقة فعلا!

- محقه في ماذا؟

- في أنكَ لا ترى هذه الأشياء!

- حقا؟ وأنتم ترونها؟

- طبعا.. هي عرفت بمشاعري نحوك في دقائق.. وأنا في نفس الوقت عرفت أنك تحبها هي.

- أظن أن النساء موهوبات في هذه الأمور..

ضحكت وقالت بإشفاق:

- بل كل الناس.. هذه الأمور واضحة، يراها الجميع كأنها مكتوبة على الوجوه.. أنت الذي لا تجيد قراءة هذه الأمور.. أنت تعاني أمية في هذه اللغة!

أعتقد أنها محقة في هذا.. قلتُ محاولا تغيير دفة الحديث:

- أريني يدِك، أين الحبر الفسفوري؟ ألم تدلي بصوتك بعد؟

كانت الانتخابات الرئاسية تجري هناك في هذه الأيام. عبّرت عن يأسها وإحباطها، وقالت إن الانتخابات لا تبشّر بخير، فذلك المرشح اليميني المتطرف سيفوز بها حتما.

كانت فكرة غبية لموضوع محادثة.. حاولتُ تغيير الموضوع، فقلت:

- ماذا عن ذلك الرجل وتلك المسخوطة اللذَيْن تزوجا

هنا؟

- ماذا عنهما؟

- هما حديث الساعة عندنا هذه الأيام.

- حقا؟ لماذا؟

قلت ضاحكا:

- أسباب كثيرة.. مناقشات وجدل حول مدى شرعية هذا الزواج.

- شرعية؟

- نعم دينيا!

ضحكَتْ صوفي، فبانت غمازتاها.. ما زالت فاتنة كما هي.. قلت لها:

- أنا أتكلم عن مصر، لا تنسي هذا.

- نعم نعم.. أفهم طبعا.

- ليس دينيا فقط.. يتكلمون عن الطبيعة والفطرة والجينات.. ماذا سيحدث؟ كيف سيكون الجنين؟

هزت كتفيها بلا مبالاة وقالت:

- هذا شأنهما!

قلت مبتسما:

- في مصر لنا رأي آخر، هذه أمور لا بد أن نحسمها.. من سيدخل الجنة، ومن سيدخل النار؟ من سيفعل ماذا؟ وأين؟ هذه الأمور تخصنا ويجب أن نعرفها!

- وإلى أين وصل الجدل؟

- حاليا تبدو الغلبة لنظرية البغل.

- نظرية البغل؟

- نعم ثمرة زواج جنسين مختلفين يكون مصابا بالعقم مثل البغل.. أو هكذا يتوقعون!

***

قابلتها مرة أخرى بعد نتيجة الانتخابات، فسبقتها وقلت:

- كما توقعتِ تماما.

هزت رأسها إيجابا في أسف وجلسَتْ وهي تشير للنادل وتطلب قهوة.

- هل كنتِ تقرأين المستقبل؟

- بل كنتُ أقرأ الواقع.. هل تريد أن تعرف المستقبل فعلا؟ يمكنني أن ألعب هذه اللعبة!

- طبعا، تفضلي!

- في الأسابيع القادمة، انتظر قرارات هذا الأحمق!

- قراراته بشأن ماذا؟

- قضية المساخيط بأكملها.. كل الحقوق التي حصلوا عليها.. سيتجمد كل شيء.. سيحجِّم وجودهم تماما، وسيوقف تجديد تصاريحهم وأوراقهم وعقود عملهم وإقامتهم.. كبداية.

- كبداية؟

- نعم، بعدها سيُوقف كل جهود دعمهم وقبولهم كلاجئين في بلدنا، وكل إجراءات دمجهم وتوظيفهم في مجتمعنا، وهذا فقط ما سيكون واضحا معلنا أمام الجميع..

- وهل هناك المزيد؟

- أظن ذلك.. السياسات الأمنية والتضييق غير المعلن.. وكل هذا سيؤدي إلى ضغوط شديدة ومسار حتمي لا أرى غيره.. الصدام.

- أي نوع من الصدام؟ هل نتوقعين..؟

- أتوقع مأساة.

وصدقت توقعاتها.

# فواعلية أوروبا الجدد

## نقلا عن موقع (المفاتيح)

فواعلية يرتدون الجلاليب الريفية يجلسون على الرصيف. يقترب زبون محتمل، فترتفع العيون إليه في لهفة وترقب، وبمجرد التحقق من كونه زبونا فعلا يتكالبون عليه أملا في الفوز بعمل والعودة ببعض القروش في نهاية اليوم. هذا هو المشهد القديم المعتاد عندنا في مصر. مشهد لم يعرفوه هنا في أوروبا على الأرجح.. على الأقل قبل المساخيط (يسمونهم هنا في فرنسا «ليه بلو» أي «الزُرق»).

مع تزايد أعدادهم في أوروبا توزعوا على أنشطة ووظائف مختلفة حسب قدراتهم وحظوظهم، بعض الإناث عملن في الدعارة أو في تنظيف البيوت، ومن تبقى منهم لم يجدوا إلا هذه الحيلة.. المكوث في الشارع، وعرض خدماتهم لمن يدفع. كانوا يفعلون أي شيء يُطلب منهم.. في الغالب هي مهام تتعلق بالنقل، كحمل أشياء ونقلها إلى أدوار عليا أو إلى مسافات بعيدة، حل أسرع وأرخص من شركات النقل كما ترى.

كثير منهم تعرض لحالات اختطاف بهذه الطريقة.. يأتي الزبون ويعرض عملا على المسخوط، فيذهب معه ليجد نفسه أسيرا. بعد ذلك ربما يُذبح أو يُباع أو يُغتصب أو تقطع أوصاله. الجميع سمع بهذه الحوادث، وبرغم ذلك فلم يكن أمامهم إلا الاستمرار في هذا العمل.. هذا عمل من لا عمل له، واسأل الفواعلية في مصر عن ذلك.

وفي ذلك الشارع الواسع في باريس (أورنانو بوليناردِ)،

تراصت تلك المجموعة من المساخيط على الجانب تحت الأشجار كما اعتادوا مؤخرا.. وحين اقتربت سيارة رياضية وأطل منها رجل غامض يرتدي نظارة شمسية معتمة تفحصهم بنظراته هرعوا يتسابقون نحوه.. انتقى أطولهم وأقواهم بنية وأشار له بأن يركب معه.

***

(سياجينالو) كان من دفعة المساخيط الذين هبطوا من البحر المتوسط ونزحت بهم الروبوتات نحو أوروبا.

كان من المفترض أن يعتني به روبوته، يعلّمه ويلقنه ويُطعمه على مدار ٥ سنوات على الأقل، حتى يشبّ عن الطوق ويعبر مرحلة الطفولة. لكن جماعات هواة صيد المساخيط اكتشفت معسكرهم في منطقة غابات تقع بين بلجيكا ولوكسمبورغ وفرنسا، وراحت رحلاتهم الخرقاء تستهدفهم يوما بعد يوم.. في البداية كانوا يقتلونهم فقط ثم يأخذون الجثث.. صيد بهدف الأكل. بعد هذا زادت الجرأة، فكانوا يختطفونهم أحياء.. وحين عثر بعضهم على الروبوتات ثار فضولهم، وجاءت حملات خصيصا لصيد وجمع هذه الروبوتات، ربما أملا في العثور على تقنيات متقدمة بها.. كان هذا حين فقد (سياجينالو) روبوته. وهكذا وجد نفسه في هذا العالم دون أن يتعلم شيئا.. يمكنك أن تعتبره مثل بشري لم يدخل مدرسة في حياته.. راح يراقب ما حوله في بلادة، ويسيح في الشوارع ويفعل كما يفعل أشباهه..

حين وصل به الرجل إلى منزل هادئ.. قاده إلى الداخل، كان المكان خاليا تماما.. بدأت مخاوفه تتصاعد..

ماذا سيفعلون به؟

هنا جاءت امرأة حسناء ترتدي سماعات رأس بميكروفون، وتحمل سماعة مكعبة الشكل..

تكلمت المرأة فصدر الصوت مترجما إلى لغته من ذلك المكعب.. لم تكن المرة الأولى التي يرى فيها هذا الشيء، كان قد رآه مع عدد من الزبائن من قبل.. كانت ترحب به وتدعوه للجلوس.. جلس في تردد، فقالت مطمئنة:

- أنت تريد عملا.. أليس كذلك؟

أومأ برأسه إيجابا، فقالت مبتسمة:

- لدينا لك عمل سهل.. ستحصل منه على أجر سيغنيك عن العمل لوقت طويل جدا.

بدت عليه اللهفة، فمدت يدها له بصورة ملونة. تفحَّص الصورة.. كانت لشاب يرتدي ملابس عصرية بألوان مبهرجة.. رفع عينيه لها في تساؤل، فقالت في غموض، ونقل له المكعب الترجمة:

- احفظ شكله جيدا وسأخبرك بمهمتك بالضبط.

(سياجينالو) هذا هو الذي نفّذ العملية.. وأما التدبير والتخطيط والهدف من العملية فأمر آخر..

# فؤاد

«ما حدث كان مريبا فعلا، ولا أصدق أنكم لا ترون هذا معي..

دعونا نراجع هذا السيناريو العجيب. اختيار هذا الرجل بالتحديد ليكون هدفا لعملية اغتيال مثل هذه تم بعناية شديدة ليُحدث ضجة ضد المساخيط.. هذا ليس لصالحهم أبدا.. لا يمكن أن نعقل أنهم خططوا لهذا.. هذا الاغتيال ليس هدفا يحقق لهم أية مصلحة أو يزيح من أمامهم خصما لدودا.. هذا رجل محبوب لا يميل إليهم وهذا كل شيء.. يوتيوبر ساخر خفيف الظل وواسع الشهرة خاصة بين الشباب. لماذا تختار شخصا كهذا لتغتاله إذا كنت مسخوطا إرهابيا؟»..

هكذا علّقتُ على الحادث، في مداخلتي في القناة الفرنسية الثانية.. أجابتني المذيعة:

- لا أعرف، لكن الغباء ليس عذرا، وليس دليل براءة يا مسيو فؤاد.

- طبعا.. النقطة التالية أن الضحية في ذلك اليوم كان في ذلك الفندق في باريس في ذلك التوقيت بالذات لحضور فعالية ثقافية ما، في حين أنه يقيم في ليون أصلا.. هذه معلومات دقيقة.. كيف حصل عليها مسخوط كهذا؟.. الرجل كان نزيلا في غرفة بطابق مرتفع، الطابق الرابع والعشرين، ومن شرفة غرفته جاء هذا المسخوط ليلا وقت نومه، وألقى بعبوة الغاز السام وأغلق الشرفة بإحكام لدقائق، حتى قضى الرجل، ثم فتحها من جديد ليتأكد

من خروج الغاز السام.. هذه لمسة غريبة لم أر إرهابيا يلجأ إليها من قبل.. هذا إرهابي رقيق لا يريد ضحايا أبرياء آخرين. من أين تحصل على غاز سام كهذا إذا كنت مسخوطا؟ هذه أسئلة ينبغي أن نجيب عنها قبل أن نضع تفسيرا نهائيا لما حدث.

أنهيت مداخلتي، التي تركوني مشكورين أدلي بها، ثم انهالت عليّ الردود المفحمة والهجوم عليّ وعلى المساخيط عموما.

«أي عقل وأي منطق تنتظره من إرهابيين؟»

«المعلومات ليست دليل براءة وإنما مؤشر على أن لديهم تنظيم استخباراتي خطير..»

«حيازته للغاز السام تعني أن لديهم جيشا سريا.. ربما اشتروها أو سرقوها من بعض التنظيمات الإجرامية..»

«التخطيط الدقيق يعني أنهم صاروا أخطر مما كنا نظن».

«لا بد أننا أمام أسوأ تنظيم إرهابي اخترق مجتمعنا في التاريخ، ولو لم نتحرك بسرعة فلا تستبعد أن ترى 11 سبتمبر جديدة هنا».

***

لم تكن مجرد حلقة أو برنامج حواري أخسر فيه الجدل، كانت حملة إعلامية شرسة انطلقت من فرنسا واجتاحت أوروبا كلها.. حملة حولت حياة المساخيط كلهم إلى جحيم.. فجأة صار الجميع عدائيين ضدهم.. لفظهم المجتمع بالكامل.. مقاطعة شاملة ورفض تام لمجرد تواجدهم..

ولأول مرة خرج المساخيط هناك في مسيرات ومظاهرات احتجاجية يرفعون لافتات بالفرنسية والإنجليزية والعربية ضد العنصرية وضد اضطهاد المساخيط.. مسيرات سلمية كلها، لكنها لم تمر بسلام.

وخرج الرئيس الفرنسي اليميني الجديد (فياني بلانشو) بخطاب استفزازي وكأنه يتعمد إشعال الأمور أكثر.

ازداد الهجوم على المساخيط بعد ذلك الخطاب، فتصاعدت احتجاجاتهم وانضم بعض البشر لبعضها من وقت لآخر.

***

اتصلتُ بصوفي وطلبت منها أن نلتقي مرة أخرى، هذه المرة لسبب آخر.. كنت أريد أن أفهم وحاولت أن أتابع الأخبار، وأقرأ على الإنترنت عن خلفيات القوى السياسية هنا، لكن الأمور بدت أعقد مما أتصور.. ثم إن صوفي فرنسية، وواضح أنها بارعة في قراءة ما بين السطور..

والتقينا مرة أخرى، ومنها فهمت الكثير مما وراء الكواليس.. فهمت أنني لم أكن أفهم شيئا على الإطلاق.

## نادية

اليوم زاد الألم بشدة.. لو تركتُ العنان لنفسي لصرخت بأعلى صوتي، لكنني اعتدت على كتمان الألم.. أنهض وأبحث عن مسكن للألم أبتلعه في صمت.. الألم صفير إنذار تطلقه أجسادنا طلبا للنجدة والمساعدة.. أجسادنا تستغيث بنا لنخلصها من الخلل الذي يصيبها، وصراخنا نحن هو استغاثة بالآخرين.. أما ألمي أنا فلا حل له ولا دواء، ففيم الصراخ إذن؟ لماذا أزعج طفلتيَّ، ولماذا أزيد من آلام فؤاد وهو ليس بيده شيء لمساعدتي؟

تكفيه آلامه التي تعذبه والتي يحسبني لا أعلم عنها شيئا..

# فؤاد

قالت لي صوفي:

«كل هذا مدبر حتما.. الأمور لا تسير بهذه الدقة والأحكام بمحض الصدفة.. لا بد أنه سيناريو مخطط له وقد نُفّذ بإتقان.. تواجه قوات الشرطة الاحتجاجات، وفي خضم الفوضى يبدأ العنف..

من أطلق الشرارة الأولى؟ من بدأ بالعنف؟ من هاجم الآخر أولا؟ هذه الأمور يستحيل تتبعها في هذه الظروف..

المهم أن الاشتباكات تحدث، المتظاهرون يقذفون الشرطة بالحجارة، والشرطة تطلق عليهم قنابل الغاز والرصاص المطاطي، ثم الرصاص الحي، ويسقط القتلى، ويتزايد العنف من جانب المتظاهرين، ثم تنتشر مقاطع فيديو لمتظاهرين يلقون الحجارة على الشرطة..

كل هذا رأيناه من قبل في أحداث شبيهة سابقة.. الجديد هنا أن الحجارة تأتي من أعلى، فهؤلاء متظاهرون يطيرون.. كل أربعة منهم يحملون ملاءة كبيرة حمّلوها بالحجارة، يرتفعون بها فوق الرؤوس، ثم يلقون بها فوق أفراد الشرطة، فيسقط وابل الحجارة على رؤوسهم..

هذه الحجارة تقتل فورا.. الخوذات والدروع تحمي بعضهم، لكن ضحايا يسقطون.. ضباط كانوا يقفون دون خوذات تهشمت جماجمهم.. مشاهد بشعة أحسنت وسائل إعلام فياني استغلالها جيدا».

***

هل هناك نحس أكبر من هذا؟

تظل طيلة حياتك تحلم بزيارة مدينة مثل باريس، وحينما تزورها أخيرا يكون ذلك في توقيت مظاهرات واشتباكات وحظر تجوال!

قضيت جل وقتي في غرفتي بالفندق، أو في الكافيهات التي وجدتها تعمل، أتابع الأخبار وكأنني في غرفتي في مصر.

خرج الرئيس الفرنسي (فياني) بخطاب درامي ينعى فيه شهداء الشرطة الفرنسية، ويقول إنهم قُتلوا لأن المساخيط يريدون الاستحواذ على مستقبل فرنسا، لكنهم يعرفون أنهم لن يحصلوا على مرادهم بوجود أبطال مطمئني النفس مثل هؤلاء الشهداء، الذين قتلوا بيد «جبناء». ثم طالب المساخيط ومناصريهم بالانسحاب من الشوارع وإيقاف أعمال التخريب في البلاد، وأنهى خطابه بإعطاء مهلة للمتظاهرين، وإلا فإن قواته ستضطر للتصعيد ضدهم.

وفي الأيام التالية لم تتوقف الاحتجاجات، بل على العكس بدأ المتظاهرون في الاعتصام في الشوارع والميادين الرئيسية في فرنسا، وهذا سهل على المساخيط، فهم يعيشون في معسكرات على أي حال.

استمرت الاعتصامات، وبدا أن الأمور تفلت من بين أيدي فياني وحكومته.. هذا ضغط لن يتحمله الاقتصاد..

وكل يوم يمر يضعف موقفه لصالح المعتصمين.. الحركات والمؤسسات بدأت تضغط عليه لإنهاء هذا الوضع بأي ثمن.. ماذا يريدون؟ تشريعات؟ تقنين أوضاع؟ أوراق

إقامة؟ يريدون جنسية؟ أعطهم ما يريدون ودعنا نعمل!..

ولهذا بالضبط كانت صوفي تعتقد أن كل هذا كان سيناريو مدبرا.. فهنا بدأت مرحلة أخرى من الرعب.

***

الفيديو الذي بثّه التلفزيون الفرنسي والذي انتشر بعدها في العالم كله، كان يعرض مقطعا لمشهد صار مألوفا في المظاهرات الأخيرة: أربعة من المساخيط يحملون ملاءة محمّلة بالحجارة ويحلقون بها فوق قوات الشرطة الذين أطلقوا النار عليهم وأسقطوا أحدهم بالفعل، لكن الثلاثة الباقين واصلوا التحليق في مسارات متعرجة، حتى بلغوا نقطة فوق تجمع قوات الشرطة الفرنسية وألقوا حمولتهم.

هذه اللقطة بالتحديد أعاد التلفزيون عرضها كثيرا، مقرّبة وبالتصوير البطيء، لتتضح تفاصيل مهمة.. لم تكن هذه حجارة عادية.. كانت هذه أجسام معدنية لامعة، كرات معدنية منتظمة رأيناها في لقطات مقرّبة حتى لحظة ارتطامها بخوذات الجنود وأسقف السيارات، وبدلا من أن ترتد عنها كأية كرة معدنية مألوفة فإنها تنفجر بلا صوت وتتناثر منها كرات صغيرة دقيقة.. مئات منها تخترق كل شيء وكأنها كرات من الحمم البركانية.. حتى خوذات الجنود المضادة للرصاص اخترقتها وأذابتها محدثة فيها ثغرات غائرة، لتواصل طريقها وتخترق الجماجم تحتها.. كرات تخترق كل شيء.. لا بد أنها اخترقت الجسد ذاته حتى الأرض.. لا بد أنها اخترقت الأرض وواصلت طريقها حتى مركز الأرض..

الفيديو يعرض هذه الأجزاء بالتفصيل، ثم يستعرض الجثث وآثار هذا السلاح الفتاك في السيارات.

كانت هذه هي الهدية التي ينتظرها فياني.. خرج بعدها بخطاب درامي آخر لكنه مدروس ومتقن.. كان خطابا طويلا، لكنه يتلخص في كلمات مفتاحية سحرية أجاد استخدامها حقا: «أسلحة دمار شامل»، «تنظيم سري»، «جماعة إرهابية».

واجتاح الرعب العالم.

السلاح الذي ظهر في الفيديو مع خطاب فياني المفزع خرجا في تريند واحد، اجتاح الكوكب، ولم يعد من الممكن تجاهل ما حدث.

المساخيط لديهم أسلحة دمار شامل يخفونها وعلينا كحكومات وأجهزة أمنية أن نتحقق منها ونحمي شعوبنا منهم ومن مؤامراتهم القادمة.

لم نتوقع صوفي هذا السلاح لكنها كانت متأكدة من أن فياني سيجد الحجة، وعندها سيضرب ضربته، وهو يعرف أين يضرب بالضبط. بارع هو فعلا.. هذه رسالة لن تتجاهلها حكومة واحدة في العالم.

هنا تذكرتُ سيرين وشعرت بالخطر.. ترى كيف هي الآن؟ ماذا سيحدث لهم هناك في مصر؟

حجزتُ أقرب طائرة إلى القاهرة..

كنت أريد أن ألحق بها.. كنت سأقنعها بالعودة للإقامة في بيتنا والاختفاء عندنا هذه الفترة.. لكنني تأخرت.

وقبل أن أستقل طائرتي بدأت أخبار الاقتحامات تتوالى.

# ليزا

كنت أظن ماما قد شُفيت. لكنها اليوم خرج من فمها دم.. أصابني الفزع وصرخت وبكيت.. (منى) هي التي احتضنتني عندما أشارت لها ماما أن تحتضنني أنا بدلا من أن تساعدها هي. ورجعَتْ ماما من الحمام بعد أن هدأت واحتضنتني هي. ماما جميلة لكنني أخاف عليها.

أريد أن أكبر.. عندما أكبر سأعرف كل شيء ولن يُخفي أحد عني شيئا.

لكن بابا كبير وماما قالت لنا ألا نخبره بما حدث.

عندما أكبر سيخبرني الكبار بما يحدث، ولن أكون مثل بابا.

## فؤاد

اقتحام ضواحي باريس كان هو الاقتحام الأول.

بعد ظهور السلاح في الأحداث السابقة حصلت الحكومة والشرطة على الضوء الأخضر للاقتحام.. حملة حضّروا لها بعناية.. قوات من الوكالة الدولية بدعم من الشرطة، وتعزيزات من الجيش، وحصار للمنطقة بكاملها.. وفي ساعة الصفر اقتحمت القوات أكبر مخيم للمساخيط في فرنسا، الحي الذي كانوا يسمونه هناك (حي الفضائيين).

كان هدف الاقتحام المعلن هو التفتيش، فالتقارير الأمنية وتقديرات الخبراء تتوقع وجود أسلحة خطيرة في المعسكر، ولذلك خططوا له بهذه الطريقة.. بقوات مسلحة وبحصار كثيف واقتحام مفاجئ تحسبا لأية مقاومة مسلحة، ولعدم إعطائهم الفرصة لإخفاء أي شيء.

ما رأيناه من الاقتحام كان مقاطع مصورة نشرتها الوكالة والتلفزيون الفرنسي، وبالطبع كان الاقتحام (الذي ظهر في التسجيلات الرسمية) مهذبا احترافيا يخلو من أية انتهاكات.

كانت المفاجأة أن الاقتحام لم يُسفر عن شيء في الساعات الأولى للاقتحام.. هذا ما أخبرتني به صوفي وقتها في رسالة خاصة وهي تتابع ما يحدث عن كثب.

لم يجدوا شيئا، مجرد مجموعات من المساخيط المسالمين يقطنون هذه البقع.. وجدوا بحوزتهم بعض المخدرات والأسلحة البيضاء المتفرقة التي تجدها في أي حي شعبي حول العالم لا يخلو من مشاغبين، لكن لا أثر لأسلحة دمار شامل ولا دليل على تنظيم سري أو غيره.. حتى

انقلبت الأمور في اليوم التالي.

قالوا إن ذلك الكشف حدث بالمصادفة وبفضل غباء وتسرع ذلك المسخوط الأرعن، لكن صوفي قالت لي إن الأمن لديه وسائله السرية التي لا بد أنهم استخدموها..

المهم أنهم نشروا ذلك الفيديو، الذي تقتحم فيه قوات الأمن بيت أحد المساخيط.. كسروا الباب واندفعوا للداخل شاهرين الأسلحة، فألقى ثلاثة مساخيط موجودين بالمكان أنفسهم على الأرض في استسلام.. تقدم اثنان من رجال الأمن إلى الغرف الخلفية واقتحموا أحد الأبواب ليجدوا أحد المساخيط راكعا على الأرض يهيل التراب على شيء ما.. قبضوا عليه ونبشوا الحفرة.. لم يجدوا الكثير لديه.. وجدوا خنجرا عاديا وقلادة ما وبعض المتعلقات الشخصية..

ومر الموقف مرور الكرام، لولا أن لقطة منه ظهرت في فيديو نُشر على الإنترنت، وفي التعليقات كتب البعض ملاحظة أن الأمر نفسه تكرر في اقتحامات لمقرات المساخيط في بلدان أخرى. وبعد بحث بسيط اتضح أن هذه عادة عند المساخيط.. دفن متعلقاتهم المهمة.

وهكذا عادت قوات الأمن تمشط البيوت ذاتها من جديد بحثا عن أي شيء مخفي تحت الأرض وهنا عثروا على مفاجأة أخرى.

# ليزا

كنت أنا وماما وحدنا في البيت.. بابا مسافر و(منى) خرجت. كانت ماما جالسة على الكرسي في البلكونة، وسقط كوب الشاي من يدها، ثم سقطت مغمى عليها.

صرخت وبكيت وجريت عليها ورحت أنادي عليها لكنها لم تستيقظ..

مرّ الوقت وهي هكذا، فتوقفت عن الصراخ والبكاء.. أنا هنا وحدي.. لا يوجد أحد من الكبار ليساعدها.. يجب أن أساعدها أنا.. أنا لم أعد صغيرة.. لقد كبرت.. أستطيع أن أساعدها..

أخذت الموبايل من يدها، وفتحته ببصمة أصبعها، واتصلت بأختي (منى)، لكنها لم ترد..

بحثت عن اسم أعرفه.. وجدت اسم عمرو فاتصلت به، وأخبرته أن يطلب الإسعاف لماما.

## فؤاد

كل بيت أو خيمة للمساخيط فتشته قوات الأمن بعد ذلك وجدوا فيه مخبأ لدفن بعض المتعلقات الخاصة.. واضح أنها عادة عند المساخيط، مثل «السندرة» عندنا.. الغريب أن هذا المخبأ دائما كان في اتجاه الشمال.. لا بد أن لهذا بُعد ديني أو عقائدي ما.

أغلب المخابئ لم يجدوا فيها شيئا ذا قيمة، حتى عثروا في أحدها على بعض الكرات المعدنية المألوفة.. كرات مثل التي انفجرت في الفيديو الشهير. وهكذا عرفوا أنهم في الاتجاه الصحيح.. أذاعوا هذا الانتصار الصغير، وواصلوا حملاتهم التفتيشية مدعومين بهذا الكشف المثير..

وانتقلت الأنباء وعلى إثرها خرجت حملات اقتحام مشابهة في بلدان أخرى، كانت إحداها عندنا في مصر..

ومن هناك جاء فيديو اقتحام معسكر المساخيط..

***

كان الفيديو يستعرض الأسلحة المضبوطة، وكلها أجسام مجهولة.. كرات لامعة.. مكعبات تُحدث صليلا معدنيا عند هزها.. زجاجات بها سوائل مجهولة.. كرات الروبوتات إياها التي خرجت من البيض..

وتتابعت سلسلة الأحداث الحتمية.. حملات اقتحام جديدة في مصر والسودان وكينيا والكاميرون وتونس وفرنسا وسويسرا والمغرب وبلجيكا وأمريكا وألمانيا وروسيا.. كل هذا لن ينتهي على خير أبدا..

***

وماذا عن سيرين؟ أين هي الآن؟

بمجرد هبوط طائرتي في مطار القاهرة حاولتُ الاتصال بها، لكن رقمها كان مغلقا طوال الوقت.. حمقاء لا تريد أن تقتنع بجدوى هذا الجهاز.

أرسلت لها رسالة على الواتساب، لكن لم يبدُ أنها وصلت.

اتصلت برقم (منى)، ثم (نادية).. لا أحد يرد كذلك..

وصلت إلى البيت.. دخلت من البوابة.. انقبض قلبي عندما رأيت شجرة الفلفل.. كانت قد اصفرت وذبلت..

نادية! أين نادية؟

دخلت أبحث في البيت كالمجنون. لم يكن هناك أحد.

أعدت الاتصال بـ(منى) فلم ترد..

هنا أتاني اتصال من عمرو ابن أخي.. أخبرني بما حدث لنادية. قال إنه ذهب إلى البيت بنفسه مع سيارة الإسعاف واصطحبوها للمستشفى، وإنها الآن بخير.. وليزا عند خالتها، أما (منى) فلا أحد يعرف أين هي..

سأعود إلى نادية فيما بعد.. أخذت سيارتي وتوجهت نحو المعسكر.

## منى

كنت أتابع أنباء التوتر والتصعيد ضد المساخيط التي كانت تنتقل من بلد إلى بلد، حتى وصلت إلينا في النهاية.

أعرف أن سيرين كانت مضغوطة ومتوترة في المعسكر.

بمجرد أن رأتني أمامها ألقت نفسها في حضني. اعتذرت لها فاعتذرت لي.. وعندما جلسنا معا اعترفت لي بشكوكها. قررت أنني لن أتركها.. هي ترفض مغادرة المعسكر، لذلك قررت أن أبقى معها.. هذه الليلة على الأقل.

جلسنا في المساء نتابع آخر الأخبار على شاشة هاتفي معا، حين رأينا فيديو السلاح السري المدمر الذي ظهر في فرنسا.

تبادلنا النظرات المتوترة، وهبط الخوف علينا ليكون ثالثنا في الحجرة.. ماذا سيحدث بعد ذلك؟

راحت أخبار حملات التفتيش والاقتحام تتوالى.. في فرنسا، إنجلترا، أيرلندا، بلجيكا، إيطاليا، ألمانيا، السويد، جنوب أفريقيا، كندا، هولندا، المغرب..

وبدأت الفكرة تتجسد واضحة أمامنا ولا نجرؤ على التفوه بها: سيأتي التفتيش إلى هنا.

سألتها في حذر:

- هل المكان هنا.. نظيف؟ أعني لو.. جاؤوا؟

- لا أعرف.

- هل تمزحين؟ كيف تعلقين مصيرك هكذا وأنتِ غير متأكدة؟

أردتُ أن أقول شيئا، لكنني لم أنطق بحرف. أية كلمة سأقولها ستخرج عصبية ولن تُجدي شيئا. نظرت لها في تساؤل.

راحت تنظر لي في شرود، ثم وقفت فجأة وقالت:

- سنبحث نحن.

لا أعرف مدى خطورة ذلك، لكنني كنت أنتفض رعبا بمجرد أن بدأنا تلك المغامرة الحمقاء. لو أن هناك تنظيم سري هنا حقا فإنهم لن يمزحوا معنا لو أمسكوا بنا.

تسللنا وسط المعسكر إلى القسم الجنوبي. لم ألحظ هذا القسم من قبل. كانت الخيام هنا مختلفة.. كانت مداخلها مغلقة بإحكام، وتعلو كل منها راية عليها رمز غريب.

همست لي سيرين:

- هذا القسم خاص ودخوله ليس مسموحا للجميع. عرفت هذا بالمصادفة.

- وما خطتك؟

- هناك خيمة كبيرة في الخلف، أعتقد أنها مقر قيادة أو شيء من هذا القبيل.. لو تسللنا إليها من الخلف ودخلنا من تحت السور القماشي لها، نستطيع أن نجد المخبأ في الناحية الشمالية..

- ألن يرانا أحد؟

- كلهم نائمون الآن.

دُرنا دورة واسعة حول الخيام كلها حتى عثرنا على الخيمة الكبيرة.. وقفنا خلفها نبحث عن ثغرة نتسلل منها.. لم يكن الأمر سهلا.. كانوا قد ثبّتوا قماش الخيمة في الأرض بأوتاد قريبة من بعضها ولم يكن نزع هذه الأوتاد سهلا.. جلست سيرين وبدأت تحفر حول أول وتد بأصابعها، وقالت:

- افعلي مثلي.. هكذا نلخلخ الوتد دون صوت..

جلست بجانبها على الأرض، وقبل أن أمد يدي كان عدد من المساخيط يحيطون بنا.. لا بد أنهم رجال الحراسة.. قبضوا علينا، ووضعوا غمامات على أعيننا، وحملونا حملا إلى مكان ما.

***

عندما نزعوا عنا الغمامات أخيرا وجدنا أنفسنا أمام جادروبيت، ومجموعة أخرى من المساخيط.. هل هؤلاء هم أفراد العصابة؟ مجلس قيادة التنظيم السري؟

قال جادروبيت شيئا لسيرين، فردّت عليه سيرين، فقال لها شيئا وهو يشير نحوي.. لم أفهم طبعا كل هذا، إذ كان بلغة المساخيط.. رحت أنظر لها وأنتظر ترجمة. لم يستمر الحوار طويلا.. جاءوا في النهاية وحملونا مرة أخرى. هتفت باسم سيرين. قالت لي في اقتضاب:

- محاكمة.. تجسس وخيانة.

ياللمصيبة!.. لست بحاجة للسؤال عن عقوبة هذه التهم عندهم.. لا أظن هذا سيختلف عندهم.. هذه تهمة

عقوبتها واحدة في كل الثقافات.. الإعدام.

***

لكن المحاكمة لم تأتِ قط.

جاء التفتيش قبلها.. في الحقيقة لم يكن تفتيشًا بالضبط.. كان إخلاء قسريا. حملة أمنية تابعة للوكالة الدولية حاصرت المعسكر، ثم سمعنا تحذيرات صوتية بالإنجليزية من الميكروفونات، وتعليمات بإخلاء المعسكر تماما.

بعض المساخيط خرجوا في طوابير بالفعل، وآخرون تمسكوا بالبقاء.. هؤلاء سيُجبرون على الخروج في المرحلة التالية.

لكن ماذا عني أنا وسيرين؟

جاء جادروبيت وخلفه مجموعة من الحراس يقتادوننا خلفهم ونحن مقيدتان، وتوجهوا بنا إلى مؤخرة المعسكر.

هناك كان تجمع في الخيمة الكبيرة. لم يكونوا يهربون أو يستسلمون كانوا يُعدون فخا. واضح أنهم اجتمعوا وتشاوروا.. بدأوا يتابعون ما يحدث وسمعنا أصوات الألغام والفخاخ.. وهمست لي سيرين:

- قوات الأمن تقتحم الخيام الخالية.. وهم يفجرون فيهم الألغام.

شهقتُ في فزع.. وقلت:

- لا.. رد الفعل سيكون عنيفا..

وهذا ما حدث فعلا.. اشتعلت الحرب وانهالت النيران على الجميع، ونحن بينهم.

# فؤاد

قبل المعسكر، على بعد حوالي كيلومتر منه، كانت هناك قوات أمن تمنع الاقتراب أكثر.

تقدمت من الضابط الواقف وطلبت منه السماح لي بالمرور، فقال بحزم:

- ممنوع.. ابتعد لو سمحت، حفاظا على سلامتك.

وقفت أتلفت حولي في حيرة.. ماذا أفعل الآن؟

فتحت هاتفي فوجدت الأخبار تتوالى.. كل معسكرات وتجمعات المساخيط حول العالم صارت محاصرة ومعزولة.

الرئيس الفرنسي (فياني) خرج بخطاب آخر وأعلن طرد كل المساخيط من بلده.. ثم هناك ردود أفعال.. بلدان أخرى حذت حذوه وأعلنت طرد المساخيط منها..

ما هذا الجنون؟ طردهم إلى أين؟

***

رجعت من الشارع المؤدي للمعسكر بعد أن منعوني من المرور.. ركنت سيارتي ومشيت على غير هدى.. جذب انتباهي صوت يأتي من التلفزيون من قهوة بلدي.. صوتان للدقة: عزيز ووائل.

اقتربت من الشاشة ووقفت أشاهد.

في تلك الفترة كان وائل وعزيز ينضمان في حلقات مشتركة لبرنامجيهما، لملاحقة تطور الأحداث والتعليق عليها.. ربما لأنهما يقولان الكلام نفسه، فما الداعي

إذن للتكرار؟.. نفس التحريض على المساخيط الأعداء الإرهابيين وكيف انخدع الجميع فيهم، بمن فيهم المتحدث نفسه (وائل أو عزيز.. حسب الفقرة).

كان البرنامج يعرض لقطات مجهزة للمضبوطات التي وُجدت في مخيم المساخيط، أسلحة وأجسام مجهولة وذخيرة، كلها كانت مدفونة في مخابئ تحتها مساكنهم.

كدت أنصرف، عندما لمحت لقطة للمعسكر بعد اقتحامه وتدميره.. هذا هو المخيم نفسه.. حيث سيرين وجاد.. كان المشهد مخيفا. انخلع قلبي.. أين سيرين؟ ومنى..؟ ماذا لو أنها فكرت أن تذهب إلى هناك؟

اتصلت بأحد معارفي في وزارة الداخلية، لكنه عندما سألني عن المشكلة اكتشفت أنه ليس لديه ما يساعدني به. (منى) ليست مختفية حقا، أنا لا أعرف أين هي اليوم، لكنها كانت في البيت صباح اليوم.. قد تكون في أي مكان.. عند صديقة أو حتى في الجامعة.. والهواتف تتعطل طوال الوقت.

انسدت الأبواب كلها في وجهي.

رجعت إلى سيارتي واستدرت بها متوجها إلى المعسكر.. هذه المرة سأعبر وسأدخل بأي ثمن وبأية طريقة.

أعدت إجراء بعض الاتصالات وأنا أقود بسرعة خرافية باتجاه المعسكر.. هذه المرة كنت أحاول الوصول إلى مكتب الوزير. لم أتلق ردا فأعدت الاتصال أكثر من مرة.. بلا جدوى..

ثم تذكرت.. سكرتير الوزير.. عندي رقمه. اتصلت به

فأجابني.. ذكّرته بنفسي، وهتفت فيه بلهفة أنني أريد التحدث إلى الوزير.

قال في توتر:

- صعب جدا يا أستاذ فؤاد.. أنت تعرف الظروف الجو كله مكهرب.

- هذه مسألة حياة أو موت.

- سأحاول، لكني لا أعدك بشيء، معاليه في اجتماع الآن.

وصلت أمام الحرس الذي يغلق المرور باتجاه المعسكر، ولوحت لهم بالموبايل قائلا:

- دعني أدخل من فضلك.. معالي الوزير سوف يصرح لي بالدخول.

اقترب مني ضابط وقال:

- سوف..؟ طيب، ولكن من أدراني أنه هو الوزير؟

- سأجعله يحدثك بنفسه.

كان السكرتير ما زال معي على الخط، فقلت له:

- نعم يا عادل.. دعني أكلمه.. دقيقة واحدة.. نصف دقيقة لو سمحت.

تجاهل الضابط كل هذا وقال لي:

- لا يكفي يا فندم. من فضلك دعه يتصل بنا من هاتف الوزارة.. هذه مسؤولية.

- طيب.. سوف يتصل بكم.. دقيقة واحدة.

أشار لي بلا مبالاة وقال وهو يبتعد:

- 20 دقيقة.. خذ وقتك.

اتصل بي السكرتير بعدها وقال معتذرا:

- معالي الوزير ما زال في الاجتماع، ولن يمكنه الاتصال حاليا.

تراجعت بالسيارة في يأس.. ليس أمامي حل آخر.. هذا خطير، لكنني لن أتراجع..

قلبي بدأ يخفق بقوة بمجرد أن حسمت أمري.. هذا بوليس.. بوليس!

تحركت بالسيارة ببطء ناحية الحواجز الحديدية التي تغلق الطريق متجاوزا كابينة الضابط.. تظاهرت بالهدوء وأشرت مبتسما للجندي بأن يفتح لي الطريق بسرعة.. نظر لي الجندي متسائلا وهو يشير إلى كابينة الضابط خلفي، فقلت بسرعة ضاحكا:

- خلاص حضرة الضابط تكلم مع سيادة الوزير، ووافق على دخولي.. هو ما زال معه على التليفون.. لكن اقفل الطريق بعدي فورا.

بدا التردد على الجندي وأشار لي بالانتظار، وقال:

- انتظر. أتأكد من الضابط.

تركني أنتظر وذهب للكابينة.. راقبته بقلق حتى دخل كابينة الضابط، واندفعت أنا بالسيارة بأقصى سرعتها وأطحت بالحواجز، واقتحمت الطريق.. ومن خلفي سمعت دويّ طلقات نارية.

رحت أختلس النظر خلفي في رعب.. ما هذا الذي فعلته؟ هل هذه جريمة؟ هل أنا الآن خارج عن القانون؟ هل يمكنهم أن يقتلوني الآن؟ ماذا لو طاردوني بدراجات نارية؟ ماذا سأفعل؟

لم يأتِ أحد!.. تُرى لماذا؟

حين اقتربت من المعسكر فهمت. كنت أرى المعسكر من بعيد، وكانت هناك سيارة شرطة خرجَتْ من بين الخيام، ووقفت تنتظر عند نهاية الطريق.. لا بد أنهم ينتظرونني.. لا بد أن الضابط اتصل بهم، وأبلغهم بدخولي. ماذا أفعل الآن؟.. هذا هو الطريق الوحيد هنا، وفي نهايته سيارة الشرطة.. وخلفي نقطة التفتيش التي تجاوزتها.. فأين المفر؟

إلا إذا...

نظرت حولي.. كان المخيم بلا سور.. ماذا لو حاولت الابتعاد عن مدخل المخيم ودرت حوله فأدخله من نقطة أخرى غير المدخل بعيدا عن هذه السيارة؟

يمكنني أن أنحرف يمينا أو يسارا عبر المساحات الرملية، وأدور حول المخيم يمينا أو باتجاه الجبل الملاصق للمخيم يسارا.. المشكلة الوحيدة أنني سأكون مثل نقطة سوداء على مساحة بيضاء كبيرة.. مكشوف تماما.

حسمت أمري وأدرت مقود السيارة إلى اليسار قليلا، وخرجت عن الطريق الممهدة متجها إلى الجبل المتاخم للمعسكر.. أوقفت السيارة وثبتُّ المقود، ثم أدرت المحرك وتركت السيارة تتجه نحو الجبل وترجلت أنا يمينا..

***

دخلت المعسكر فوجدته خاليا من المساخيط إلا من بعض الجثث.. وجدت بعض المدنيين من البشر هناك.. وحدات طبية من أطباء وممرضين وخبراء مفرقعات يمسحون المكان.. تتبعت بعض الممرضين، حتى وجدت خيمة الوحدات الطبية.. وقفت أراقبها من الخارج.. كان بعضهم يرتدي المعاطف الطبية.. خطوت إلى الداخل وكأنني منهم..

كان هناك طبيب يغسل يديه في حوض هناك، فوقفت أفعل مثله، ثم ارتديت القفاز والمعطف الطبي.. وهكذا صرت معهم. رحت أمسح المعسكر معهم ظللتُ متماسكا هكذا برغم الأهوال التي رأيتها..

كانت القوات ما زالت تُخلي المعسكر، وفي المقدمة كانت هناك مواجهة عنيفة مع العناصر المسلحة من المساخيط.. مواجهة دامية من الأرض إلى السماء، لكن قوات الأمن البشرية كانت تحقق تقدما.

كان الفريق الطبي مصريا، بينما القوات تابعة للوكالة الدولية لأمن الكوكب.. أعتقد أن الهدف كان إخلاء المعسكر وضبط أية أسلحة، وإجلاء الجميع نحو عمق الصحراء بعيدا عن التجمعات العمرانية البشرية، ربما تمهيدا لطردهم تماما بعد ذلك.

رحت أتحرك معهم وأنا أبحث بلهفة عن نقطة بعينها.. عن خيمة سيرين.. كنت أتذكر مكان الخيمة بالتقريب. رحت أقترب وأتقدم منها..

قال لي أحد زملائي - من الفريق الطبي - إنه ما زال هناك خيام في الخلف، ويجب ألا أن نقترب من خط النار بعد.. أومأت له متفهما ثم تسللت وغبت عن عينيه، حتى ابتعدت ودخلت الخيمة.. وهناك رأيتهما.

(منى) كانت غارقة في دمائها، و(سيرين) كانت جريحة تحاول إسعافها في وهن.. رأتني فرفعت يدها تستغيث بي..

صرختُ في جزع:

- منى! بنتي!

حملتُ جسد (منى) وتبعتني سيرين تجرجر نفسها خارج الخيمة، لكنها سقطت ولم تعد تحتمل.

وقفت أصيح وأهلل طالبا الإسعاف (على عكس كل التعليمات التي يتبعها الفريق الطبي هنا).

صرخ فيّ بعض الجنود، لكنني لم أبال بهم.

جاءني فريق من الإسعاف الطبي وسألوني بدهشة:

- وأنت؟ ألست طبيبا؟

صرخت في هلع:

- لا لست طبيبا..

وخلعت معطفي وألقيت به أرضا وأنا أهتف:

- الحقوهما.. ستموتان..

***

كنت جالسا بجوار فراش سيرين في المستشفى عندما أفاقت. نظرت لي بعينين باكيتين وسألتني في جزع عن

(منى). حاولتُ أن أنطق فلم أستطع.

هززتُ رأسي نفيا. لم أستطع أن أنطقها.

انخرطت سيرين في بكاء عنيف. احتضنتها.. حتى تهدأ.. لكن كيف أهدأ أنا؟

غلبتني الدموع ووجدت نفسي أبكي أمامها.. سألتني في ارتياع:

- منى؟ ذهبت؟

التفت لها وقلت بحدة:

- ونادية أيضا.. ماتت!

لماذا هذه الحدة؟ هل ألومها على أنها لم تسأل عنها؟ أم أنني أوبخ نفسي أمامها؟ هل أحاول أن أضع نادية بيني وبينها؟ الآن، وبعد أن ذهبَتْ؟.. لا بد أنني جننت!

نادية ذهبت في غيابي.. نادية ماتت في أسوأ توقيت ممكن. موتها كان زلزالا بعد زلزال منى.. لم أعرف إلا أنها ماتت بالمستشفى، بعد أن كادت تتعافى تماما انتكست من جديد ولم تنجُ منها هذه المرة.. هل قضى عليها خبر موت (منى)؟ هل عرفت أصلا؟

ليتها ماتت قبل أن تعرف.. الموت أهون عليها من موت منى..

و(منى).. (منى) ماتت؟ لم تعد موجودة؟

لا أعتقد أنني أستوعب هذا الجزء.. سأفهم لاحقا وسأتعذب لاحقا..

ليتني أنا الذي متُّ قبل كل هذا..

كنت في مستشفى كهذه عندما وُلدت (منى).. أنتظر خارج الغرفة، يمزقني القلق على (نادية) التي كانت تمر بولادة متعثرة.. مهّدوا لي أن الجنين قد لا ينجو.. لكنها نجت، ونجت نادية ورجعتا لي..

سألتني يوما وهي طفلة:

- بابا لماذا سميتموني (منى)؟

- ماما كانت تمزح معي وهي حامل فيكِ، كانت تسألني إن كنت أريد ولدا أم بنتا..

- وماذا قلت لها؟ ماذا كنت تريد؟

- لم أكن قد فكرت في الأمر قبلها.. قلت لها كما يقول الناس «اللي يجيبه ربنا كويس».

- فعلا؟

قلت لها وأنا أقلّد لهجتها:

- هي أيضا قالت لي هذا «فعلا؟»

ضحكَتْ، فبدت مثل (نادية).. تزداد شبها بها عندما تضحك.. قلت:

- سألتْني: يعني لو رُزقنا بولد ألن تكون سعيدا؟ قلت لها: نعم سأكون سعيدا.. قالت: ولو رُزقنا ببنت؟ قلت لها: «سيكون هذا يوم المُنى»!

- وبعدين؟

- وفي يوم رجعَتْ ماما من زيارة الطبيب الذي كانت

نتابع معه الحمل، وقالت لي إنها أجرت أشعة وعرفت جنس المولود، سألتها: ماذا؟ فقالت: «يوم الولادة سيكون يوم المنى»!

ضحكتُ يومها ونادية تخبرني، وضحكت (منى) وأنا أخبرها، وضحكتُ معها.. قلت لـ(منى):

- وهكذا ظللنا حتى يوم ولادتك نشير إلى يوم الولادة على أنه يوم المنى.. فكيف كان يمكننا أن نعطيك اسما آخر؟ كان واضحا قبل أن تأتي أنكِ (منى)!

كانت تسمعني وهي تجلس متكوّرة في حضني.. أتذكرها الآن.. كانت صغيرة حقا.. أراحت رأسها على صدري وفكرت في سؤال آخر لتسمع حكاية أخرى.. سألتني:

- ومن اختار اسم (ليزا)؟

- أنتِ أيضا!

- يا سلام!

- يعني ليس بالضبط لكن.. منذ طفولتِك كنا نناديكِ بأسماء تدليل مختلفة، مثل «ميمي» و«منمن»، و«موناليزا».. وأنتِ أحببتِ هذا الاسم أكثر.. كان عمرك عامين فقط، وكنتِ بالكاد تنطقينه.. ما زلتُ أتذكر طريقتك في نطقه: (موناليثا).. كنا نحب أن نسمعه منكِ، فنتعمد أن نسألك عنه مرارا وتكرارا.. بل إنني سجّلته بصوتك ووضعته نغمة تنبيه للرسائل على هاتفي.. «موناليثا»!

كانت تبتسم وهي تسمعني، وراحت تضحك عندما قلت

«موناليثا»، ثم راحت تكررها محاولة تقليد (منى) الطفلة.. ثم قالت:

- لكنني كنت قد كبرت عندما جاءت (ليزا)..

- نعم لكنكِ كنتِ ما زلتِ طفلة.. وعندما حملَتْ ماما وعرفنا أنها بنت كنا نداعبك ونقول إنها ستنجب «موناليزا الصغيرة»، فكنت تقولين كالفيلسوفة: لا، أنا (موناليزا) وهي (ليزا) فقط لأنها صغيرة! عندها عرفنا أنا وماما أن هذا هو اسمها.. جزء من اسمِك.

- كما أنها هي جزء مِنّي.

احتضنتها بقوّة وقلت:

- طبعا.. وكما أنكِ جزء مِنّي!

أبعدت رأسها وسألتني:

- كيف؟

- أنتِ اسمك (منى فؤاد أمين أبو ضيف) صح؟

- صح. لكن..أنت فؤاد أمين أبو ضيف فقط!.. إذن أنت جزء مِنّي!

ضحكتُ وهويت عليها أدغدغها وأتظاهر بأنني سآكلها، وأقول لو أكلتكِ الآن ستصيرين جزءًا منّي فعلا.. تعالي هنا!

فتصرخ وتضحك وتهرب منّي.. وأطاردها وأنا أزأر متظاهرا بأنني وحش..

وراحت (منى) كما راحت (نادية).. كم جزءًا منّي

مات اليوم؟

استجمعتُ قوتي، وقررت أنني أريد أن أعرف أخيرا..

سألت سيرين:

- كيف؟ كيف حدث هذا؟

# سيرين

كانت (منى) هي التي لمحت ما يحدث.. هناك لعبة ما تجري هنا.

كنا أنا و(منى) قد استبقنا الفريق الطبي إلى الصفوف الأولى ورآنا أحد رجال القوات الدولية، فنهرنا وأمرنا بالعودة للخلف..

جذبتني (منى) من ذراعي لنختفي خلف أول خيمة، ثم ندور حولها ونعود للأمام..

خلف الخيمة وقفت (منى) تلهث وقالت:

- إنهم يلفقون مضبوطات في التفتيش!

لم أفهم.. سألتها:

- يلفقونه؟

- نعم.. أحدهم كان يحمل صندوقا، يُخرج منه أشياء ويخفيها في المخبأ ويعيد إغلاقه.. نحن رأيناه.

- ولماذا يفعل هذا؟

- من أجل التصوير.. يحتاجون إلى دليل مصور على وجود أسلحة هنا.

- لكن هناك أسلحة هنا بالفعل.. لماذا يلفقون المزيد؟

- لا أعرف.. ربما يريدون أسلحة أكثر خطورة من أجل...

- من أجل ماذا؟

- من أجل تبرير ما سيحدث.

- والعمل؟

قالت بحماس:

- نصورهم نحن.

- كيف؟ سيروننا طبعا.

فكَرَتْ وقالت بحماسها الطفولي نفسه:

- ليس إن طبقنا فكرتي.

أخرجت (منى) كاميراتها وأعطتني إياها، ثم فتحت كاميرا هاتفها المحمول وقالت:

- سأصور أنا بالموبايل، وأنت تطيرين للتصوير من الأعلى.

- قلت لكِ سيروننا.

- سنُبقي عيوننا على بعضنا، كل منا ستصور الأخرى طوال الوقت.. لن يجرؤ أحدهم على إيذائنا بهذه الطريقة.

نظرتُ إلى الكاميرا في شك.. هذا الشيء هو الذي سيحمينا الآن؟ سألتها:

- ماذا لو قتلونا وأخذوا الكاميرات؟

- لا.. سيخشون خطر الفيديو المباشر!

## فؤاد

ردّدتُ خلف سيرين:

- الفيديو المباشر؟

- نعم هذا ما قالته لي..

غمغمت وأنا أفتح هاتفي:

- لم أفكر في تصفح السوشيال ميديا منذ ما حدث.

فتحتُ صفحة (منى) على فيسبوك.. وعثرت على الفيديو!

كان قد أذيع بالفعل، مباشرا على صفحتها حتى لحظة إصابتها. شاهدناه معا أنا وسيرين.

كان التصوير مهتزا، وفي بعض اللحظات كانت تصوّر الأرض أو تظلم الكاميرا تماما، لكن (منى) كانت تهمس بالقرب من الموبايل:

- أحدهم يقترب.. سأخفي الموبايل حتى لا يشك فيّ..

ثم أعادت الكاميرا لوضع التصوير وقالت:

- هؤلاء هم الثلاثة ذوو السترات الفوسفورية.. وهذا الصندوق المعدني الذي معهم به أسلحة يدسونها في المخابئ، ثم يخرجونها عند التصوير، وكأنها كانت هنا.. سأقترب منهم لنراهم وهم يفعلون.

دخلوا الخيمة ووقف اثنان من الحرس أمام المدخل.. همسَتْ:

- الحرس! تبا! ليكن.. سأدور حول الخيمة من الخلف..

اتجهت الكاميرا يمينا، ودارت بها (منى) بين الخيام حتى اقتربت من خيمة بعينها وتوقفت، ثم ارتفعت بالكاميرا للأعلى حيث كانت (سيرين) هناك تحلق على ارتفاع منخفض، وتشير خفية لخيمة أخرى..

عاد صوت (منى) يقول في الفيديو:

- ميزة الخيام أنك لو لم تجد فتحة للمراقبة فمن السهل أن تصنع بنفسك واحدة!

أخرجت سلسلة مفاتيحها وغرست سن أحد المفاتيح في جدار الخيمة محدثة ثقبا ثم حركته ليتسع الثقب.. اقتربَتْ بالكاميرا من الثقب، وفي الفيديو رأينا ما يحدث بالداخل.. كان أحدهم يمسك بالصندوق مفتوحا، ويُخرج منه أكياسًا مغلقة يفضّها ثم يُخرج منها كرات معدنية يناولها للآخر، فيأخذها هذا ويدسها في المخبأ واحدة بعد الأخرى.. ثم بدأوا يهيلون التراب على الحفرة.. وهنا تركز بصر الواقف بالخلف على الشاشة.. على الكاميرا.. واقترب.. اقترب.. لقد رأى الكاميرا!

مد يده بسرعة وشهر سلاحه.. تراجعت الكاميرا للخلف بسرعة، ثم دوّى صوت الطلقة وصرخت (منى) في ألم.. لقد أصابها.. هذا هو الوغد الذي قتلها.

الكاميرا مظلمة وصوت (منى) اللاهث:

- أصابوني!.. لا بد أنهم قادمون.. سأهرب.

عادت الصورة تظهر من جديد.. أقدام (منى) والأرض تهتز.. اهتزت الكاميرا بعنف، مع صوت دويّ مكتوم وصيحة ألم ندت عن (منى).. واضح أنها سقطت أرضا..

ظهر وجهها يملأ الشاشة وهي تمسك بالكاميرا، وقالت بأنفاس متقطعة وتبتسم بصعوبة:

- أعتقد أنني سأموت الآن.. أنا مندهشة كيف أقولها هكذا.. الموت طول عمره فكرة مخيفة بالنسبة لي، ولكل الناس طبعا.. لكني الآن لا أرى الموقف بهذا السوء.. يعني هناك ما هو أسوأ.. أن أموت هباءً.. وأن يستمر الموت في كل مكان.. عندها ما المشكلة أن أموت أنا؟ سأكون مجرد رقم آخر..

هنا دوّى صوت طلقة رصاص، تلاه صرختان.. واحدة من (منى) والأخرى من أعلى.. صرخة (سيرين).

أظلمت الشاشة مرة أخرى وجاء صوت خشن غاضب يقول بالإنجليزية:

- الزرقاء معها كاميرا.. هاتوها.. هاتوا الكاميرا.

ثم دوى صوت طلقات رصاص.

- قبضتم عليها؟

- اختفت وراء الشجر.

- اذهبوا وراءها.. هاتوا الكاميرا.

- أصبناها.. هي تنزف ولن تبتعد.

- قلت هاتوا الكاميرا!

علا صوت آخر بعد لحظات يقول بالإنجليزية:

- عثرنا على الكاميرا تحت الشجرة.. والزرقاء اختفت.. يبدو أنها ماتت.

عادت الصورة بعد لحظات، وظهر وجه صاحب الصوت يملأ الكادر.. واضح أنه كان يُقلّب الموبايل بين يديه، وقال:

- جورج.. تعال افتح هذا الشيء.

اقترب صوت جورج هذا تدريجيا:

- البصمة يا سيدي.. يمكننا أن نجرب بصمة أصابعها..

فترة من الصمت ثم صاح:

- تبا! إنه يسجل!

ابتعدت الصورة.. واضح أن الضابط ألقى الموبايل على الأرض.. وأخرج مسدسه وصوبه نحو الموبايل.

صرخ جورج:

- لا يا سيدي.. لا!

ودوت الطلقة وانتهى الفيديو.

قلت:

- جورج كان يريد حذف الفيديو من صفحتها.. لكنه كان أحمق، ترك لنا الدليل الوحيد..

مدت سيرين أصابعها وتناولت شيئا من جيبها ورفعته أمامي.. كارت ذاكرة من النوع المستخدم في الكاميرات. تمتمت:

- دليل آخر.. تركتُ لهم الكاميرا خلفي وهربتُ بهذا.

- وكيف..؟

- اختفيت فوق الجبل، حتى ابتعدوا عن (منى)، فرجعت وحملتها واختفيت بها في الخيمة حتى وصلتَ أنت..

***

نشرتُ الفيديو لكنه لم يُحدث النتيجة التي كنت أرجوها.. كان الطوفان أقوى مما توقعت. كان العالم كله يشهد هجوما كاسحا على المساخيط. صياح وفزع في كل مكان. الكل يصيح في فزع وهياج تحت طبول الحرب: اطردوهم..اقتلوهم!

اسمعوا الحقيقة.. كل هذا تلفيق..

بنتي قُتلت وهي تبحث عن الحقيقة.

لكن الردود كانت جاهزة.. ردود قديمة معلّبة سمعناها كثيرا: «ومن أدرانا أن هذه هي الحقيقة؟».. «ربما هو فيديو مفبرك».. «تستحق ما حدث لها».. «أهي معنا أم معهم؟».. «ولماذا ذهبت إلى هناك أصلا؟».. «وما هذه الملابس التي ترتديها؟»..

***

كنت قد قررت البقاء مع سيرين إلى الأبد، لكن العالم كله رفض. في المستشفى لم يتركوها حتى يكتمل تعافيها.. قالوا لي:

- لقد قبلنا دخولها المستشفى وإسعافها إكراما لك فقط، وهذا استثناء صعب في هذه الظروف، لكننا لا نقدر على أكثر من ذلك.

- إكراما لي؟ أليس هذا واجبكم؟

تجاهلوني.. لا أحد لديه الوقت ليناقشني.

وفي البيت قالت لي إنها سترحل مع الراحلين.

قلت لها:

- سأرحل معك.

قالت بإشفاق:

- لن تستطيع.. وأنت قلتها لي من قبل، لن يمكنك الحياة بعيدًا عن مصر.

- سأتعلم.

- لن تستطيع.

- لا يمكنني أن أتركك تبتعدي.. لن يمكنني الحياة بعيدا عنك.

- أما هذا فيمكنك تعلمه.

- لن أتركك.. سآتي معكِ حتى آخر العالم.

قالت في مرارة:

- نحن ذاهبون إلى آخر العالم حرفيا.. إلى القطب.

- القطب؟

- القطب الشمالي.. هذا آخر اتفاق حصلنا عليه.. على الأقل سيتركوننا نحيا.. انظر إلى الجانب المشرق.. سنتجنب مذابح إبادة أخرى.

قلت لها في رجاء:

- ابقي معي.. سأحصل على استثناء لكِ.. سأجد وسيلة..

- فؤاد..

- بل ابقيْ في السرّ.. لن يعرف أحد بوجودك..

- فؤاد! أنا أريد الرحيل..

- أنتِ؟

كانت جادّة، تتحدث والتصميم يملأ عينيها.. شفتاها مزمومتان في عزم وثبات.. متى اكتسبَتْ هذه الشخصية القوية؟ ليست هذه هي (سيرين) الطفلة التي أدخلتها ليزا بيتنا سرا.. وكأنها تحوّلت إلى (نادية)!.. قالت لي:

- الدوجونجواديون اختاروني لقيادتهم.. لن أتخلى عنهم..

- حقا؟ ستصيرين رئيسة؟

رسمتُ ما يشبه الابتسامة على وجهي وقلت:

- مبروك.. أنتِ لها.. لقد أحسنوا الاختيار فعلا.

راحت تتأملني في صمت وكأنها تقرؤني.. أضفت:

- وربما يوما ما سآتي عندكم، ويجتمع شملنا من جديد.

هنا دخل جادروبيت ونظر لنا، ثم قال لها شيئا بلغتهم.. بدا عليها التوتر.

- ماذا قال؟

- لا عليك.

- ماذا قال؟

- قال إن القصة لم تنتهِ عند هذا الحد.

- ماذا يعني؟

- لا أدري.. قلت لك لا تهتم.

ماذا يعني؟ هل يقصد أنهم قد يعودون يوما ما؟

***

ذهبَتْ (نادية)، ثم ذهبت (منى) لتلحق بها.. وها هي سيرين ترحل.. تركت ليزا عند خالتها، وجلستُ أنا في البيت وحيدا أطالع مشاهد الترحيل من مختلف بقاع الأرض، يعرضونها بلا خجل أو أدنى إحساس بالذنب.

هذا ما وصلنا إليه..

سفن في ميناء الإسكندرية يصعدها المساخيط بأعداد ضخمة.. هل سيرين بينهم؟ لم يسمحوا لهم بهواتف محمولة.. لماذا لم أذهب معهم؟ هل كانوا سيقبلونني بينهم أصلا؟ قد أجرب لاحقا.. قد ألحق بها هناك في القطب.. لو مرت الأيام بسلام.

لكنني لن أرحل الآن قبل أن أتم مهمتي.

فتحت على هاتفي تطبيق الصور وطالعت تلك اللقطات التي أخذتها من الفيديو.. لقطات واضحة لوجه ذلك «السيد» الذي أطلق النار على (منى).

# ليزا (فيديو على يوتيوب)

أعزائي المشاهدين، أهلا وسهلا بكم في الفيديو الأول على قناة «فنون ليزا».

أنا اسمي ليزا فؤاد.. كلهم يقولون إنني فنانة صغيرة مثل ماما، وهذا صحيح فأنا أحب الرسم مثل ماما الله يرحمها، وأحب الموسيقى وأعزف بيانو جيدا، مع أن ماما لم تكن تعزف البيانو.

لكنني تعلمت كذلك فنونًا أخرى من فنون شعب دوجونجواد.. رسم ونحت وغناء حلقي.. تعلمتها من سيرين الزرقاء شخصيا!

وفي قناتي هذه سنتعلم معا أساسيات هذه الفنون، وسنتعلم تقنيات جميلة مفيدة في الرسم والنحت والتلوين باستخدام أدوات وخامات طبيعية، بطرق جديدة ومبتكرة من ثقافة دوجونجواد.

كل هذا لن تجدوه إلا عندي هنا.. في قناة ليزا!

طبعا هذه الدروس موجهة للأطفال أصلا، لكن ممكن الكبار يستفيدوا معنا أيضا.. لا مشكلة!

انتظروا الفيديو الأول قريبا، ولا تنسوا الاشتراك في القناة وتفعيل الجرس لتصلكم حلقاتي الجديدة في المستقبل.. تابعوني.